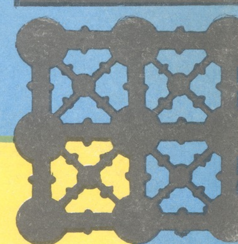


أعلام العرب

١٢٣

صبرى السربونى

سيرة تاريخية وصورة حياة

أحمد حسين الطماوى





أعلام العرب
١٢٣

صبرى السربونى
سيرة تاريخية وصورة حياة

تأليف
أحمد حسين الطماوى



١٩٨٦

الاخراج الفنى : ماجدة البنا

الاشراف الفنى : عفاف توفيق



الدكتور محمد صبري السربوني في سنيه الأخيرة

« اذا كنا قد ضللنا فالتاريخ لن يضلل ٠»

«ولكل جيل كتابه فى عنقه»

صبرى السربونى

قالوا عن صبرى السربونى

سـعد زغلول :

قال محمد كامل سليم لسـعد باشـا «محمد صبرى شاب مثقف مهذب وخبير في الحياة الفرنسية وله علاقات بالصحافة الفرنسية ، فقال سعد : أجل هذا شاب مهذب أحب الاحتفاظ به»

من يوميات محمد كامل سليم عن سعد زغلول الاخبار فى ٢١/٤/١٩٦٩

فتحي رضوان :

«كان دخول محمد صبرى السربونى المصرى المنحـدر من أصـلاب الفـلاحين ، فى ميـدان التـاريخ فى مجاليه القـومى والأجنبى خطـوة لايستهان بها ، ولكن هـذه الخطوة كانت مزدوجة الأثر ، كانت من جهة تحريرا لميدان التاريخ فى

بلادنا من الاحتكار الأجنبى بعامة والانجليزى والفرنسى بصفة خاصة ، وكانت من جهة أخرى تجديدا فى أسلوب كتابة التاريخ»

ص ٢٧٢ من كتاب افكار الكبار

بدر الدين أبو غازى :

لم يشعر أحد أن مصر فقدت برحيل صبرى السربونى آخر كتاب عصر النهضة ومفكريه العظام، هؤلاء الذين بدأوا منذ بدايات هذا القرن حركة التنوير وتألقوا مع ثورة ١٩١٩ وشكلوا للثقافة فى مصر دولة ، والدكتور صبرى واحد من هؤلاء الذين أقاموا هذه الدولة ، وشاركوا فى نسيجها ، وهو عبقرية من عبقريات مصر النادرة»

الأهرام فى ١٩٧٨/٢/١١

كامل الشناوى

«٠٠ نشر عدة مؤلفات تاريخية امتازت بدقة الفهم ، وتحرى الحقائق ، وتحليل العصر الذى يؤرخ له من شتى نواحيه الاجتماعية والسياسية بأسلوت واضح تكاد تسمع من خلال جمله

وتركيباته نبرة صوت المؤلف وهو يشرح أراءه في جامعة يحتل فيها وحده كرسى الاستاذية وكل من حوله تلاميذ»

الجمهورية فى ٩/١١/١٩٦١

أنور الجندى :

«وللتاريخ أن يسجل للدكتور محمد صبرى آية التقدير للجهد الضخم المبذول بهمة تجعلنا نتضاءل أمامه ونحنى الرؤوس اجلالا للعلم الذى وهبه »

الأديب يناير ، ١٩٦٢

د. عبد العزيز الدسوقى :

«الدكتور صبرى السربونى من جيل طه حسين وهيكل ومصطفى عبد الرازق وجلال شعيب . ذلك الجيل الرائد الذى تعلم فى مصر وفى جامعات أوربا ، ونهل من الثقافة الغربية فى موطنها الأصلى وعاد الى بلاده ينشر العلم والنور»

الثقافة فبراير ١٩٧٨

وديع فلسطين :

«الدكتور صبرى أديب ناقد ، وأديب عالم ، وأديب فيلسوف وأديب يتذوق هذه الآفاق جميعا»

المقطم فى ١٩٥٠/١٢/٢٦

«.. من أكبر حفظة الأدب ونقاده ومؤرخيه ، ولكتبه وقع القارعة فى الجو الأدبى والميدان التاريخى لأنها حافلة بكل جديد معروضا بشجاعة أدبية وصرامة منهجية تنحنى لها الرؤوس»

الأديب مايو ١٩٦٢

أحمد حسين الصاوى :

«الدكتور صبرى السربوني من أعلام تلك الأيام الزاهرة طالما كانت له فى ميادين الفكر جولات وصولات وطالما شغل الأذهان وأثار الجدل بمقالاته وبحوثه المتعددة فى الأدب والاجتماع والتاريخ»

الثقافة (احمد امين) فى ١٩٥١/١/٢٢

حسن عبد المنعم :

«قدم أستاذنا المبرور الدكتور صبرى السربونى لوطنه منذ مطلع هذا القرن مالا يقدر أو يوزن بمثقال من الذهب»

الأهرام ١٩٧٨/٣/١

محمد فهمى عبد اللطيف :

«ذلك رجل عالم ، اجتمعت فيه خصائص جيل هو جيل البعث والقوة الذى مهد لنا جلاميد الطريق ، ومن العقوق أن يمضى منسيا ، وأن نضن عليه بدمعة وفاء أو كلمة رثاء»

الأخبار فى ١٩٧٨/١/٢٥

جلال السيد :

«وضع الدكتور صبرى البدايات الحقيقية والعلمية لمدرسة التاريخ المصرى الحديث»

الجمهورية فى ١٩٧٨/٢/٤

فايق الشرقاوى :

«مات آخر الشوامخ بعد حياة حافلة بالاسهام الفكرى فى مجالى البحث التاريخى والأدبى ،

والسربونى هو أحد البناة العظام لحضارتنا المعاصرة»

الأهرام ١٩٧٨/٣/٤

وطنى :

قالت جريدة وطنى عن الشوقيات المجهولة :

«نرفع هذا الكتاب الى أعلى القمم فى الأدب المعاصر ولانخشى أن نرمى بالغلو»

وطنى ١٩٦٢/١٠/٢١

الأهرام :

«شارك منذ بداية القرن فى كل الأحداث التى صنعت المسيرة المصرية»

الأهرام ١٩٧١/١/٩

مقدمة

أرى أن المقدمة يجب أن تشتمل على أمرين :

- احاطة القارىء فى ايجاز بموضوع الكتاب
- ايضاح منهج الدراسة أو خطة البحث .

أما عن موضوع كتابى فهو الدكتور محمد صبرى السربونى الذى يعد من رجال عصر النهضة والتنوير من أمثال العقاد وطه حسين وهيكل والرافعى وميخائيل نعيمه والمازنى وعبد الرحمن شكرى وغيرهم . وهذا الجيل يمثل الطبقة الارستقراطية الحقيقية ـ ارستقراطية الفكر العالى فى مختلف ميادينه واتجاهاته، وقد تتابعت أعمالهم الأدبية والتاريخية منذ بواكير هذا القرن واستمرت حتى السبعينات .

وانه لكثرة مواهبه تعددت جوانبه

فهو من رادة الأدب ونقدته الذين أمعنوا النظر فى دواوين العرب ، وأصابوا قسطا وافيا منها ، وأعملوا الذهن فى بلاغات الأقدمين ، وحصلوا علما وافرا من معينها ، فجاءت أعماله شاهدة بما هو عليه من علم واقتدار ، منبئة بعلو الهمة وحسن التأتى .

درس شوامخ الشعراء ، وارتفع عن الأدب الساقط ، والمبذول المهترىء ، وراح يتغنى بالجمال ، ويعرض فى ثنايا مؤلفاته الشعر الجميل ، ويحاوره ، ويستطلع خوافيه ، ويفض عنه هذا الكمون والاستغلاق ، ويخرجه لنا فى وضوح واشراق ، فصار بذلك علما فى الأدب حل فيه محلا يشار اليه .

وأرخ لحقب من الزمن فى الشرق والغرب ، فهو مؤرخ القرن التاسع عشر ، وهو مؤرخ الثورات ، وهو مؤرخ مصر ، صحح فى موسوعاته التاريخية مستندات مدخولة ، وأمورا مخلوطة ، واستظهر حقائق مطوية ، واستثمر وثائق كثيرة ، ودعمها بكثافة الآراء ، وظل لسنوات عديدة يناقش المؤرخين الأوربيين الذين كتبوا تاريخ مصر والسودان مزورا أو ناقصا متدابرا ، بطريقة تدنيهم من أغراضهم ، فدافع عن وطنه دفاع

المثقف المتمكن من حجته فى موضوعه · فصار بذلك عالما فى التاريخ يؤخذ عنه ·

وكان الى جانب ذلك مفكرا اجتماعيا ، وصاحب فكر متحضر ، ورأى قويم متفهم لأوضاع زمنه على أدق ماتكون الأمور ، فجاءت خطواته فى الاجتماع دافعة الى النهوض ، حاثة على الاصلاح ، مناسبة لمقتضيات الظروف · ذلك أنه من هؤلاء البصراء بحقائق الأشياء ·

فلقب الأديب الحاذق علم عليه

ولقب المؤرخ المحقق مكفول له

ولقب المفكر الاجتماعى جدير به ·

فعن علمه التاريخى والاجتماعى عديد من الصفحات ، وعن حسه الأدبى والفنى مساق الحديث ·

***

تختلف الطرق والمناهج التى يتناول بها الكتاب تراجم الأبطال والعبقريين ·

فهناك من يكتب سيرة

وهناك من يرسم صورة

وفى السـيرة يتتبع المـؤلف التسلسل الزمنى ، والتلاحق التاريخى ، ويراعى التطور الداخلى للشخصية من خلال الأحداث التى يعرضها متعاقبة ·

وفى رسم الصورة يعكف كاتب الترجمة على رسم صورة عامة للشـخصية من جميع جـوانبها مع عـدم الاكتراث بالتعـاقب الزمنى ، وتـرتيب الوقـائع والأحداث · ولانستطيع أن نفاضل بين الطريقتين لأن لكل شخصية طـريقة تناسـبها ، ولأن الدكتور صبرى لايتمتع بشهرة ذائعة واسـعة ، لذلك رأينـا أنه من الأفضل اتباع منهج السيرة الذى يقدم الشخصية شيئا فشيئا ، ومن ثم يسهل على القارىء الاحـاطة بمعالم حياته . وأطوار فكره وقد استندت دراستنا على العرض والوصف ، كما اعتمدت على التحليل والتفسير ·

وقد صحبت الدكتور صـبرى سنوات طـويلة ، مكنتنى من معرفة الكثير من معالمه الشخصية والفكرية ، ولا أنكر أننى استفدت منها فى دراستى هذه · ولولا معـاصرته ومعاشرته ، ما استطعت ايضـاح جـوانبه المتعددة وهذا يبين لنا كيف تجدى معايشة المترجم له فى فهم روحـه ، والوقوف على خصـاله وخصـائصه النفسية ، وكم سـاعدت التراجم التى كتبها ميخائيل

نعيمه ويوسف الحويك وبرباره بنغ لجبران فى الكشف عن أبعاد شخصيته وذلك لمخالطتهم له واقترابهم منه ، وأننى آهيب بالدارسين أن يسجلوا لنا حيوات مفكرينا قبل أن يمضى الوقت ، وتأتى بعدنا أجيال تبحث عن معالمهم وتختلط عليهم الأمور ويحدثون الناس بالظنون • وقد اعتمدت أيضا فى هذه الدراسة على أوراقه الخاصة التى قدمتها الى أسرته مشكورة على هذا الصنيع •

والتعاطف مع الشخصية التى يترجم لها الكاتب ، يجب أن يكون قبل الاعتراض عليه أو البحث عن عثراته ، فان من يبحث عن الخطأ يجده ، لأن تعاطف الباحث مع من يترجم له يقوده الى ادراك مايخفى على الدارس العادى ، ويدنيه من الصواب ، ويقرب اليه الأمور ، ولايعنى التعاطف اغفال المثالب والأخطاء وتزييف الوقائع والاحداث ، واهمال الجوانب المعتمة ، ولا أنكر أننى كنت متعاطفا مع صاحب الترجمة • ولكن ذلك لم يمنعنى من تسجيل آرائى الخاصة فى الموضوعات التى اختلفت معه فيها ، وكان ديدنى التجرد من الهوى ، وتطهير النفس من آثار الصحبة والمخالطة •

وكاتب التراجم قد يستعين بعلم النفس. وبدراسة أحوال العصر ليوصلاه الى الحقائق .

أما علم النفس فان الاستعانة به فى كشف الأمراض والظواهر النفسية ، أمر لامحيد عنه لأنه بمجرد معرفتنا لنفسية الشخص نهتدى الى سمات فكره ، والدوافع النفسية الى كتاباته ، ولكن ليس معنى هذا أن نقحم علم النفس اقحاما فى فن الترجمة بداع أو بغير داع ، وأما العصر ، فيجب الاستفادة بروحه وأحداثه وأحواله المختلفة ، لأن نفس المفكر تتشرب من روح عصره ، وتتسرب أحداثه في فكره وفنه ، وعلى الكاتب أن يكشف عن مدى تأثر صاحب الترجمة بعصره ، ويكشف عن الأحداث التى تركت أثرا ملحوظا فى نفسه وبالتالى فى فكره ، ولايعنى هذا أن يشغل الدارس باله بالكتابة عن العصر كله فى نواحيه المتعددة ، ويسرد الوقائع التى لا علاقة لها بموضوع بحثه . وغاية مانود أن نقوله أن يقبل الكاتب على دراسة العصر دراسة تامة ، ويفهمه فهما عميقا فى سائر جوانبه ، ثم يأخذ منه بالقدر الذى يقتضيه توضيح شخصية وفكر من يتعرض له بالترجمة . وقد استعنا بالتحليل النفسى ، وببعض أحداث العصر ، ولكن بالقدر الذى يكفى لصبرى السربونى دون غيره ،

وان هذا القدر من التحليل النفسى ، ومن أحداث العصر لايجدى اذا استخدمناه فى رسم أبعاد شخصية أخـرى معاصرة له ٠

وكان لتشجيع صديقى الاستاذ الحسانى والدكتور عبد العزيز الدسوقى ، أكبر الأثر فى نشر عدة فصول عن السربونى فى مجلة الثقـافة والأديب ، فى حيـاة الرجل وبعد موته ، وقد رجعت الى هذه الفصول وتوسعت فيها على هذا النحو الذى يراه القارىء ٠

***

والرجل الذى نترجم له طيب القلب ، ولكن خشونة فى طبعـه ، كانت تحجب عن كثيرين سـحر شـخصيته ورونقها وعطاءها ، وتخفى اشـعاع ذهنـه وتوقده وتوهجه ، فلم يكن يعرف كيف يعوم مع التيار ، ولكن يأخذ الأمور عنوة واقتدارا ، لذلك انصرف عنه الكثير من الأدباء ، وبعد موته لم تتسخ أقلام الكتاب بالكتابة عنه بالقـدر الذى يسـتحقه ، ومضت الذكرى الأولى والثانية لرحيله بلا ذكر ، فلعل هذه الدراسة تسد نقصا فى مكتبتنا العربية عن أحد مفكرينا الكبار ، وتوفى الرجل بعض حقه ٠

القاهرة فى الثانى من فبراير ١٩٨٠

احمد حسين الطماوى

نشأته الأولى

مولده :

ذكر الدكتور صبرى أنه ولد فى التاسع من يوليه عام ١٨٩٤ ، وفى بطاقته العائلية قرأت هذا التاريخ أيضا ، ولكن واقع الحال كما يبدو لنا من خلال ماكتبه، وماكتب عنه ، يدل على أنه ولد فى تاريخ سابق على ماذكر ٠

وقد أصدر محمد صبرى الجزء الأول من كتابه «شعراء العصر» عام ١٩١٠ ومعنى هذا أنه وضعه فى سن السادسة عشرة ، والكتاب عبارة عن تراجم قصيرة لعدد كبير من شعراء العرب المعاصرين ، وقد اعتمد فى الترجمة لهم على معلومات استقاها من لقاءاته معهم ، وقد اختار لكل شاعر نماذج من أعلى شعره ، مما يدل على أنه قرأ دواوين شعر كل هؤلاء ، أو تابع ماينظمونه فى الدوريات المختلفة ، وهذا يفيد أنه بذل جهدا ،

وأنفق وقتا ،واذا ما وضعنا فى الاعتبار أن الاعداد لهذا الكتاب وطبعه ، ومتابعة المصادر ومراجعة هـذه المادة ، ولقاءاته للشعراء ، وجمع صورهم ، أدركنا أن هذا العمل يستغرق أكثر من عامين ، أى أنه بدأ التأليف الجاد فى سن الرابعة عشرة ، وهذا يدعونا الى استبعاد أن يكون هذا هو تاريخ ميلاده الحقيقى .

وقد ذكر الاستاذ فتحى رضوان فى كتابه «أفكار الكبار» أن صبرى السربونى ولد عام ١٨٩٠ ، ولم يبين لنا المصدر الذى استقى منه هذه المعلومة ، ومع هـذا فقد يكون هذا التاريخ أو حوله مناسـبا لمولد «محمد صبرى» .

ومما يؤكد أن مولده كان قبل عام ١٨٩٤ ، أنه عندما أصدر الجزء الثانى من «شـعراء العصر» قرظته مجلة «الملاجىء العباسية» فى عددها الصادر فى رجب ١٣٣٠ هـ أى عام ١٩١٢ ، ومما جاء فى تقريظ محرر المجلة أبو بكر لطفى قوله : «ومن يعلم أنه (أى صبرى) لايتجاوز العشرين الا بقليل ، وانه يسترق وقته الثمين من بين براثن الدرس والتعليم ، كال له الحمد مضاعفا ، وأثنى الثناء كله على جده واجتهاده ، فجزاه الله خيرا وأكثر من أمثاله بين الطلاب» .

ويؤخذ من هذا الكلام أن محمد صبرى قد تجاوز العشرين سنة ١٩١٢ أى أنه ولد قبل عـام ١٨٩٢ ، وعلى هـذا فان مـولده قد يكون على وجـه التقريب حوالى ١٨٩٠ .

وقد عثرنا له على قصيدة بعنوان «زمن التصابى» نشرتها مجلة «الملاجىءالعباسية» فى عدد شوال ١٣٣٠هـ يستشف منها أنه نظمها فى زمن الشباب يقول :

رعى الله أياما نعمنـا بظلهـا
سـواء علينـا ليلها ونهـارها
ونضر أعـواد الشـباب فانه
نعيم الليالى لو تدوم قصـارها
وما أنسى لا أنسى المنى وغصـونها
مهـدلة أفنانهـا وثمـارها
واذ نحن فى عرض الشباب روائح
غـواد دخيـل اللهـو مغـارها
زمان التصابى أين أنت وقد جرت
صـغار العـوادى بيننا وكبارها
زمان التصابى لهفة بعـد لهفة
عليك بأنفـاس يطـير شرارها

ففى هذه الأبيات يترحم على غضارة الصبا ، وصفاء البال ، ولايترحم الانسان على شىء الا اذا بعد عنه ، أو طار من يده ، وهذا يعنى أنه تجاوز سن التصابى ، ويتحدث عن شبابه الذى نضر عوده ، ثم يذكر أنه فى عرض الشباب ، وهو مايدعونا الى الاعتقاد بأنه قد تجاوز العشرين فعلا من عمره عندما نظم هذه القصيدة عام ١٩١٢ ، ليس هذا فحسب ، ولكن من ينظر الى القصيدة وأخيلتها ، ودقة صياغتها ، ومعانيها ، ووحدة موضوعها ، يميل الى الاعتقاد أن ناظمها بلغ سن النضج الفنى وتمكن من انشاد الشعر وتجويده ٠

ولايعزب عن بالنا أنتقييد المواليد لم يكن اجباريا هذه الفترة التى ولد فيها المترجم له ٠

الطفولة والصبا :

أما المكان الذى استقبل الطفل الوليد محمد ابراهيم صبرى ، فقد كان مدينة المرج ــ جزيرة القلج ــ من أعمال القليوبية ، ولكن الموطن الأصلى للأسرة هو مدينة بلبيس ــ شرقية ــ وكان أبوه مفتشا للزراعة فى

تفاتيش الأمـراء السـابقين ، فعمل حينا فى تفتيش الأميرة «فاطمـة» وكان أمـام المنزل الذى يقطن فيه ، حديقة كبرى كما هو الحال فى كل تفتيش ، فأدى ايطانه فى ريف مصر ، زمن طفولته ، حيث الحياض المزهرة ، والرياض الموردة ، الى الاحسـاس بجمـال الطبيعة ، وساعد انتقاله مع أبيه الى الجوسق ، وايتاى البارود ، ونجع حمادى فى صباه ، وتأمله خضرة المروج ، وحمرة الشمس على سعف النخيل ، وتموج أمواه الجـداول ، وملاعبته الأزهار اليـانعة ، والاصـغاء الى الأطيـار الشادية ، ساعد كل ذلك على تحريك حس الشاعر فيه ، ذلك أن تلك المناظر كانت أكثر مشاهد الطبيعة استرعاء لنظره ، ولا أنسى ماقاله لى الدكتور صبرى مرة «أكاد أقول كالشـاعر الفـرنسى لامـرتين اننى ولدت بين الرعاة» .

وقد حفظت ذاكرته الكثير من هذه الصور ، فراح يصف مرئياته فى مقالاته وهو شيخ مسن ، وقد نالت منه الأحداث مانالت ، وكان يرى فى تذكره لأحـداث الماضى انها «تؤنس الشيخوخة فى وحدتها ، وتخفف من وحشتها» (١) .

(١) مجلة قافلة الزيت عدد نوفمبر/ديسمبر ١٩٦٢ .

كان يشحذ ذاكرته من حين الى حين ليستعيد قديم الذكرى ، فتوافيه بذكريات حيـة نشـطة ، ومن بين ماأبقت عليه الأيام من ذكريات لاينساها «عم اسماعيل الجناينى» «الذى كان حبيب طفولتى فى المرج . كان اسماعيل أبا روحيا ، صبيح الوجه أسمره ، سمح النفس ، طيب القلب ، وكان يتركنى فى غـوايتى وبطالتى ، وكنت أليف الطين والماء ، فيهما كان لهوى ولعبى ، من الطين أبنى بيوتا ، ومن الطين أتطين ، ومن الماء أتبلل ، وكنت أنبطح على ضفة القنوات الصغيرة ، وفى فمى قطعة من القصب الفارسى أجتذب فيها الماء» (١) .

ولاشك أن كل مايدب حول الطفل يؤثر فيه ، ويتفاعل معه ، ويبقى منه الكثير ، لأن الصور والمرئيات تختزنها الذاكرة ثم تنبعث هذه المشاهد عندما يمضى عن الحياة صفوها ، ويتوقف امدادها باللذة والنشوة .

أما عن تعليمه فى السنوات الأولى وحصيلته الثقافية ، فقد تعلم فى المرج القراءة والكتابة ، ثم انتقل الى القاهرة ، فتلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة النحاسين الابتدائية التى يقع أمامها مسجد قلاوون

---

(١) أدب وتاريخ واجتماع ص ٣٠٠ .

السلطان المملوكى ، وتحيط بها من كل جانب الآثار الاسلامية • وأثناء دراسته ماتت أمه «فخيمت من ذلك الوقت فى سمائى سحابة حزن لاتبددها شمس ، وصارت كل نغمة من نغمات قيثارتى شجى وأنينا» (١) • ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية وبقى فيها ثلاث سنوات •

وبمرور الوقت يتكشف الصبى الصغير ميوله الى الأدب ، ويتعرف على ملكاته الكامنة فيه ، فشغف بالقراءة الحرة ، وراح يحفظ من أشعار المعاصرين والقدامى مايرتضيه ذوقه ، ويقدر على فهمه ، وقد صرفه ذلك وألهاه عن درسه فى المدرسة ، وأدى فى النهاية الى فشله ، فترك الفرقة الثالثة وتابع دراسته بعد ذلك حتى نجح فى امتحان البكالوريا من المنزل عام ١٩١٣ (٢) •

كان الصبى مولعا بقراءة مايختاره أو مايختاره له

---

(١) وقال د • صبرى عن أمه في مستهل مقال عن محمود مختار نشرته مجلة المجلة عدد يوليـة ١٩٦٢ : « مازلت أذكر عقب موت أمي ، وكنت وقتئذ أؤدى امتحان الشهادة الابتدائية ، أن صندوق ملابسها فتح ونشر منه ما كان مطويا فهبت على رياح الحزن وروائحه •• »

(٢) مجلة بناء الوطن عدد نوفمبر ١٩٦٥ •

الآخرون ، وراح يثب وثبات كبيرة نحو تكوين شخصيته الثقــافية ، فاختلط بكثير من أدباء وشــعراء عصره ، ويذكر أنه فى عام ١٩٠٩ كان ينسخ قصائد البارودى من «الوسيلة الأدبيــة» بمنزل المنفلوطى ويقــول «ثم اشتريت الوسيلة بعــد ذلك فأغنتنى عن كتب البلاغة كلها» (١) ٠

ولاشك أن كتاب «الوسيلة الأدبية» كان محط أنظار الأدباء والشعراء فى ذلك الزمن ، وقد تغــذى عليه كثيرون ، وأفادوا مما اشتملت عليه من آراء نقدية جادة، ونظرات نفسية عالية ٠ أما قوله أن «الوسيلة الأدبية» قد أغنتــه عن كل كتب البــلاغة ، فأعتقد أنه بالغ فى ذلك ، لأن مكتبته كانت غاصة بكتب البلاغة الأخرى ، والتى استفاد منها ، ورجع اليها ، على نحــو مانرى فى الشوامخ وأعماله الأخرى ٠

وفى عام ١٩١١ نشر قصيدة فى الأهرام عن حرب طرابلس جعل عنوانها «يابنت روما» ، ولكن الأهرام بــدلا من أن تذكــر أن ناظمها محمد صبرى ، ذكرت اسماعيل صبرى ، وفى اليوم التالى صــوبت جــريدة الأهرام ماأخطأت فيه ، وقد ظلت هــذه الأبيات التى

---

(١) من حديث له فى مهرجان حافظ فى الاسكندرية ٠

نظمها محمد صبرى فى ديوان اسماعيل صبرى منسوبة له فى صفحة ١٨٦ تحت عنوان «الحــرب الايطالية فى طرابلس» ·

وقد كانت هذه الواقعة سببا فى تعارف محمد صبرى واسماعيل صبرى ·

يقول فى الشوقيات المجهولة : «وقد ذهبت بهذه المناسبة عقب نشر الأبيات للتعرف باسماعيل صبرى حاملا خطابا من حافظ ابراهيم يقدمنى فيه اليه ، فلما التقيت به ، وكان جالسا فى حديقة قصره رحب بى وبسط ذراعيه كما يبســط الصــقر جنــاحه قائلا · مستقبلك واسع ·· مستقبلك واسع ، ثم علمت منه أن شوقى أرسل اليه برقية من الاسكندرية يهنئه بقصيدة «يابنت روما» ·

وهكذا تعرف على أشياخ الحركة الأدبية فى ذلك الوقت ، وتوطدت الصلة بينه وبين اسماعيل صبرى ، وصار له صديقا وتلميذا وظهيرا ، وقد وصف العلاقة التى كانت بينهما بقوله «وكانت بيننا صلة الابن بالأب البار ، والتلميذ بأستاذه» · وظلت المودة بينهما حتى وفاة اسماعيل صبرى ·

ومن طوالع ألمعيته أنه أصدر في سن مبكرة من عمره الجزء الأول من كتابه «شعراء العصر» سنة ١٩١٠ وهو طالب بمدرسة الخديوية بتقديم المنفلوطي ، والجزء الثاني عام ١٩١٢ بتقديم صدقي الزهاوي .

ولايزال ماذكره الزهاوي في مقدمته وماكتبه محمد صبري عن الكاظمي مرجعا للأدباء العراقيين الى اليوم ، وعلى سبيل المثال رجع الدكتور محسن غياض الى دراسة محمد صبري عن الكاظمي في كتابه «شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي ـ حياته وشعره» واستشهد ببعض أقواله وعارضه في البعض الآخر (١) .

وكتب الأديب العراقي هلال ناجي صفحة ونصف عن «شعراء العصر» في كتابه «الزهاوي وديوانه المفقود» وقال هلال ناجي عن مؤلف شعراء العصر : «ولعله أول من أوضح السبب الذي دفع الزهاوي الى تأليف كتابه المعنون : «الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق» » . وقال أيضا : «وميزة الكتاب (أي شعراء العصر) أنه أقدم ترجمة للزهاوي ضمها

(١) شاعر العرب ـ عبد المحسن الكاظمي للدكتور محسن غياض ص ١٩ ، ٣٣ ، ٥٥ .

كتاب فيما نعلم ، وان كانت هذه الترجمة قد اقتصرت على ترجمة حياته وطرف من نشاطه الفكرى ، ونماذج من شعره» •

وفى هذين الجزأين نجد خلاصة منتخبة ، ومنتقاة من الشعر فى مختلف الموضوعات لكل شاعر مع تراجم قصيرة لهم •

وهذه التراجم فيها احاطة بأهم معالم هؤلاء الشعراء ، وتبين ما أنتجوه من دواوين ، وما عربوه من شعر ، وتؤرخ لكثير من قصائدهم مع ذكر مناسباتها ، وشرح مستوعر ألفاظها ، ويعرف بالشخصيات الواردة فيها ، على نحو ما نرى فى تعريفه لهانوتو وريننان ، وفرر (اشتراكى أسبانى) وغيرهم ، ويستشهد بعبارات الكتاب والنقاد عن هؤلاء الشعراء من مختلف الدوريات والكتب ، ويشير الى الأماكن التى نشر فيها هؤلاء شعرهم ، والمواطن التى تحدث الأدباء فيها عنهم ، أو بما نسميه الآن مصادر الدراسة ، وأحيانا يأتى بقصائد غير منشورة فى دواوينهم مثل قصيدة «تذكرت ربعا فى العراق بعيدا ••» للزهاوى ، بل يشير الى الكتب غير المطبوعة وكأنه وقف عليها مثل كتاب «اللؤلؤ المنثور» لمحمد جواد الشبيبى ، والى جانب ذلك يذكر صدى هذا

الانتاج الأدبى فى أحيان أخرى ، مما يجعلنا نقول أن هذا الكتاب يعد تاريخا" أدبيا محـدودا لتلك الفترة ، وانه مهما يكن من أمر . فلابد للباحثين من الرجوع الى هذا الكتاب عندما يترجمون لشخصيات معينة ، وخاصة الشعراء الذين لم يذع صيتهم .

وقد تناول فى الجزء الأول البارودى ـ شوقى ـ حافظ ـ أحمد نسيم ـ بطرس كرامه ـ حفنى ناصف ـ خليل مطران ـ عائشة التيمورية ـ عبد الحليم المصرى ـ المنفلوطى وغيرهم ، واشتمل الجزء الثانى على تراجم وقصائد لأحمد الكاشف ، الزهاوى ، حسن القـاياتى ، خيرى الهنـداوى ، الكاظمى ، عثمان زناتى ، كاظم الدجيـلى ، ناصيف اليـازجى ، نقـولا رزق الله .. وغيرهم .

وقد صدرت بعد ذلك كتب أخـرى عن الشـعراء المعاصرين ، ولكن هذين الجزءين برغـم افتقارهما الى النضج ، لايـزالان وثيقتين هامتين لتفـردهما بنشر معلومات لاتوجد الا فيهما ، فدراسته عن الشيخ عثمان زناتى صاحب البيت المشهور :

لا انت واصـلة ولا أنـا سـالى
صـدق الهـوى وكذبت فى آمـالى

هى أول دراسة عنه ، كمـــا أن ترجمته للكاظمى سابقة على أى ترجمة أخرى ، وكانت أول صورة تنشر للكاظمى هى التى نجدها فى «شعراء العصر ، وقد قص على الدكتور صبرى كيف أقنع الكاظمى بضرورة اثبات صورته لتتويج كتـــابه ، فوافق وصـــحبه الى ســـتوديو «صابونجى» · وفى ترجمته للزهاوى ، يكشف لنا أن الزهاوى هو صاحب المقالات التى كانت تنشر فى المقطم بعنوان «لعالم فاضل في الاستانة» وهى المقـــالات التى أوضحت فتنة الاستانة ·

وقد راعى هـــذا الشـــاب ترتيب الشعراء حسب الحروف الأبجدية ماعدا البارودى وشـــوقى وحافظ ، ومع أنه لم يحاول تقسيم الشعراء المحـــدثين الى طبقات كما فعل مطران والرافعى والمنفلوطى ، الا أن استثناء ـ البارودى وشوقى وحافظ من دائرة الترتيب الأبجدى، يجعلنا نعتقد أنه قسم الشعراء فى عصره الى طبقتين :

- طبقة الشعراء الثلاثة
- وطبقة الآخرين على مختلف أسمائهم ·

وكان صبرى قد تعهد باصدار الجزء الثالث من هذا الكتاب كما تفيد مقدمة الجزء الثانى ، وكان موضوعه شرح منتخبات شعرية اختارها له الزهاوى من الشعر القديم ليتم بذلك «مجموعة من أفضل الشعر القـــديم

والحديث» ولكن هذا الجزء الذى وعد به ، وأعد له ، لم ير النور ٠

أما أسلوبه فى هذا الكتاب فانه يشتمل على عبارات تدل على سيولة العبارة فى يديه ، وله آراء أثبتها فى هؤلاء الشعراء مما يفيد أن شخصيته الأدبية آخذة فى التكون والنضج ، ومن هذا قوله عن عبد الحليم المصرى: «ونحن ننتظر غدا من ذلك الشاعر أن يصافح الجوزاء بشعره لما نراه من طلائعه المحمودة» أو قوله عن ابراهيم رمزى «وما يؤسف له هجره نظم الشعر اليوم (ولعله يعاوده) وعقله ذلك الخيال الذى لو أطلق له العنان ، وأسلسه لكان لنا منه آيات بينات غير تلك الآياب المبدعة» وهذه عبارات فيها آراء ولكنها تستند الى الخيال ، وتشير الى تمكنه من صياغة العبارة ، وتدل على اتساع معجمه اللغوى ، وحسن استخدامه للألفاظ ، وعلى أية حال فان هذا الكتاب الذى تزينه الصور يؤكد لنا أن صاحبه مرهف الحس ، عالى الذوق ٠

شعره وحبه :

وفى هذه الفترة الباكرة من عمره ، كان ينظم الشعر ، وينشره فى الصحف الكبرى كالاهرام والمؤيد ،

وبعض المجلات الأخرى ، وكان الشاعر عبد الحليم المصرى يصحبه الى داود بركات رئيس تحرير الأهرام ليعرفه عليه ، ويزكيه عنده ٠

أما موضوعات شعره ، فكانت تواكب الأحداث ، ومجريات الأمور . فنظم للعام الهجرى ، ولحرب طرابلس ، وغيرهما ، وله شعر اجتماعى ، وغزلى ، ووجدانى ٠

وشعر الغزل هو الشعر الملائم للشباب وتفتحه وميوله ، وكم يكون الشاب فى حاجة الى الحب والغرام ٠ وله قصيدة نشرتها مجلة «الملاجىء العباسية» عدد شوال ١٣٣٠ هـ تحت عنوان «زمن التصابى» وقد ألمحنا اليها آنفا يقول فيها :

الا مالسلمى موحشات ديارها
فيالربوع هاج مابى لادكارها
هيا عين قضى بعض دينك انه
شفاء قلوب لم ترو حرارها

لقد أبدعت فى الهجر حتى حسبنه
دلالا أرتنا كيف فيه ابتكارها

وفى هذا الشعر رنة حزن ، وثورة مهتاج ، عذبه الصمت والنجوى ، فباح بمكنون صدره ، شاعر متبرم

بالدنيا ، قليل الأمل ، يشكو عـدم الوفاء ، وضـياع الوداد ، ويتذكر الزمن الماضى ، وأيامه الفساح المفعمة بالمنى والأحلام ، ويحن الى ماكان بينه وبين سلمى من سرور اللقاء ، ويأسى لحاضره ، فقد هجرته بعد وصال ، وقاطعته بعد نوال ، وقارىء القصيدة يدرك حبوط الرجاء وتقاعده ، ونزول الخيبة فى نفسه ، ويلحظ أن فجيعة ملأت حياته ٠

وقد صدر قصيدته بذكر اسمها ، مقرونا بوحشة دارها ، مما يبين مدى لوعته وأساه ، وهى صورة تذكرنا بمطالع القصائد الجاهلية ، حيث يبكى الشاعر حبيبته ، ويقف متألما على الأطلال التى خيم عليها السكون بعـد الحركة ، ومضى عنهـا الأنس ، وتمضى فى القصـيدة فلا تعثر على وصف لسلمى ، ويكتفى الشاعر بذكر أثر هواها وجواها فى نفسه ، وجيشان حنينه اليها ، وعزيف قلبه اللهيف عليها ، أين حبيبته ليتطلع الى محيـاها ، ويفوز منها بنظرة أليفة ، ويد حانية تبرد هذه الأشواق الكاوية ٠ يقول :

أأحبـابنا ياهـل على البين من يد
تنهنه أشـجانا تأجج نارها

ومن شعره الاجتماعى أثناء الحرب العـالمية الأولى

قصيدة نشرتها جريدة «الأفكار» فى ١٥/١٠/١٩١٤ وآثبتها الاستاذ محمد سيد كيلانى فى كتــابه «حسين كامل» تحت عنوان «حول الحرب» (١) . ويصف الشاعر فيها أهوال الحرب ، وما جرته على البلاد من ويلات ، فى اطار قصصى ، فيحكى لنا فى هذه القصة أو القصيدة حياة أسرة تعيش فى سعادة وحبور ، ويصور الحالة النفسية لرب هذه الاسرة وهو يحتضن أولاده ويقبلهم قبل رحيله فى الصباح ، حتى اذا عاد اليهم بعد انتهاء عمله هللوا لمقدمه وقابلوه بالطلاقة والبشر ، وعندما قرعت الحــرت طبــولها ، ومضى رب الأسرة الى ميدان القتــال ، حيث واجــه الفناء ، غشيت زوجته وأطفاله الغاشــية ، وانقلب سرورهم الى حزن ، وســعادتهم الى جحيم .

وقد عبر فى هذه القصيدة عن المشاعر الانسانية للأسر التى فقدت رجالها فى الحرب ، وقد كان هــذا الموضوع من المآسى الكبيرة التى واجهت ضمير المجتمع فى ذلك الوقت ، وقد أجاد الشاعر فى تصوير الأحداث والأشخاص .

وتتآزر عناصر القصة فى هذه القصيدة لتكون عملا

(١) انظر القصيدة من المختارات .

فنيا واضح الدلالة ، وهو ينظم مشاهد هذه المأساة أو الدراما ، ويرتب الحوادث ترتيبا زمنيا مع استخدام عنصر الاثارة والتشويق ، ويضعك أمام مناظر بهيجة فى الأبيات الأول ، وتتابع المناظر ، وتتفاقم الأمور ، حتى تصل الى قمة المأساة بموت رب الأسرة وترمل زوجته ، ويتم أطفاله ، وفى هذا التصوير يتسع مجال الخيال والابداع .

وفى هذه القصيدة لانعدم الحكمة الدقيقة كما نتبينها فى الشطر الثانى من هذا البيت :

والناس اما غافل أو كادح
والرزق فى الدنيا لمن قهر الورى

ومن شعر صبرى الذى يعبر فيه عن خلجات نفسه واكتئابه الشديد ، وتوجعه .

قوله :

هذى الأمانى كلها خدع
العيش ولى فليس بى طمع

وقوله :

مازلت أبكى على العيش الافانين
وأندب السرح من حين الى حين

فعدت أقرع من سـني وما نظرت
عيني وفيـا من الانـداد يبكيني

ويقول نثرا فى كتابه «ذكرى المـاضى» ص ٢٤ :
«٠٠ وانما أندب عهدى الذى أبلاه مـر الغـداة وكر العشى» . ويقول عن مقالات كتابه سالف الذكر «انهـا مـرآة نفس متـألمة علم الله لولا اعتصـامها باليقين لساقتنى الى ظلمات القبور» • ونتساءل عن علة هذا الاكتئاب النفسى فى أول الشباب ، الذى شمل شعره ونثره ، فى هذه الفترة من عمره ، فلم يعـد مستجيبا للذات الحياة ، ولا قادرا على المبادأة والمبادرة لما اعتراه من حزن شديد •

ان هذا الشعر والنثر يرينـا نفسا مضـطربة ، تتوارد عليها الأفكار المظلمة ، وتتسرب اليها المشاعر المؤلمة ، حتى كاد الشاعر يرتكب جريمة الانتحار لولا اعتصامه باليقين على حد قوله •

ولا أدرى علة محددة لهذا الاكتئاب الذى ران على نفسه وشملها ، ولكن ربما كان لوفاة أمه وحرمانه من حنانها ، واحساسه بالانكسار بعدها ، آحد آسباب هذه الحالة ، أو لعل اخفاقه فى الحب أو قلقه الشـديد على مستقبله وما الى ذلك من المثيرات الخارجية والداخلية هى

الأسباب التى أدت الى نوبات اليأس التى مر بها وانعكست فى شعره ونثره ٠

وللشاعر قصائد آخرى ، ومقطوعات قصيرة نشهد فى كثير منها صفاء الديباجة ، ودقةالصياغة ، وتجاوزها عن التعبير المطرز المملول ، ولاتنقص عبارته الشعرية النغمة الغنائية ، والرنة الموسيقية ٠

ولم يداوم الشاعر على نظم الشعر ، فتوقف ارنان قصيده ، ولوى مساره الى الدراسات الأدبية والتاريخية ، وكل ماجادت به عاطفته من شعر لايدخله فى زمرة الشعراء الخالدين ، لذلك لايسلكه الدارسون فى عالم الشعراء عندما يؤرخون للأدب الحديث ٠

فى فرنسا

فى ليون وجبال الدوفين :

بعد حصول صبرى على شهادة البكالوريا عام ١٩١٣ ، سافر على نفقته الى فرنسا لتحصيل العلم ، وكانت أول مدينة فرنسية درجت عليها قدماه هى مارسيليا ، ومنها الى ليون ، وفى تلك الفترة التقى بالشيخ عزيز مرهم ، الذى عرفه على أسرة «رامل» فى «أنوازان» بضواحى ليون ، وكان لرامل وزوجته مدرسة تدرس التعليم الأولى و «كتب هذه المدرسة من الأدب البسيط السهل ، والقصص المصورة التى تلهم الأطفال حب الوطن ..» وكانت هذه الاسرة الفرنسية تعامل الكبير معاملة تختلف عن صغار المبتدئين ، فدرست له قطعا سهلة من شعر ونثر لامرتين وفكتور هوجو وكان على حد تعبيره الشفوى «آكل هذه القطع وأشربها كل يوم» مما ساعد على تقويته فى اللغة .

وقام بسياحات في جبال الدوفيني من جرينوبل مع أسرة رامل ، وقد وصف لنا صبرى فى عبـــارة أدبية رائقة ، تلك المناظر الرائعة الســـاحرة ، التى مـــلأت عينيه ، واسترعت انتباهه ·

ويبدو أن تلك الأيام كان لها من الأثر القوى على نفسه ــ كما يبدو من كتـــاباته ــ فاستـعاد ذكراها ، وتحدث عنها في سلسلة مقالات نشرتها مجلة «الرأى العام» عام ١٩٤٥ تحت عنوان «مارأته عيناى فى أوربا» وتناول فيها وصف مدينة مرسيليا وانطباعاته عنها ، وكشفت مدى تأثره بالبيئة الأوربية الحديثة ، ومن بين ماقاله : «أول أثر تركتـــه في نفسى هـــو الجـــد وحب الحركة» وأثار اعجابه اختلاط الرجال والنساء ، كما سجل خواطره عنـــدما رأى مدينـــة ليـــون فى رســـالة «الفردوس الصغير» فقال :

وعـــالم قد جـــد فى تسنمه
غـــوارب الأطمـــاع اثر مغنمـــه
يكاد أن يهلك فى تجشمه
كالطفـــل يلقى كل شيء فى فمـــه

فقد بين «مظهر النشاط والعمل ، ومظهر الطمع الذى يحفز الغرب ، ومظهر الجشع المادى والاستعمارى

الذى يحييه ويقتله ، ومظهر التطاحن والجرى وراء الحياة» .

وفى آخر الصيف ذهب الى باريس التى جذبته من بعد ، فباريس هى خضم الحياة فى فرنسا ، وعندما تقدم الى جامعة السربون للحصول على دبلوم الدراسات الجامعية ، وكان موضوع الرسالة «لامرتين شاعر الأحزان» كتب رسالته بالفرنسية من أولها لآخرها بنفسه ، ولم يفعل مافعله غيره من الطلاب فى الامتحان لأن فى الرسالة حوالى عشرة أغلاط لغوية ، وكان ذلك عام ١٩١٤ .

وفى أغسطس هذا العام (١٩١٤) عاد الى مصر بسبب الحرب . وقضى فيها عدة أشهر ، وفى أثناء اقامته نشر مقالات عديدة فى جريدة المؤيد ثم جمعها فى كتيب بعنوان «ذكرى الماضى ــ ١٩١٥» وفيه صور سياحته فى جبل الدوفيني ، واذا كان هناك أدب يطلق عليه «أدب البحر» فان ماكتبه صبرى عن هذا الجبل يجعلنا نسمى مثل هذه الكتابات «بأدب الجبل» ، ويالهذه العبارات التى عبر فيها عن هيبة الجبل وجلاله . وهذه الرسائل التى أودعها كتابه رومانسية النزعة ، وآثر مباشر من الدروس الأولى التى تلقاها عن لامرتين وهيجو وغيرهما .

ويتضح تأثره بالفكر الغربي الأوربى ، فقد أخذ عنوان منظومة ملتن «الفردوس المفقود» وغير فيه بعض الشيء، وجعله أحد عناوين كتـــابه ، ففى ص ٢٢ نجــد اسم الرسالة الخامسة «الفردوس الضائع» . وقد حوى هذا الكتاب نماذج من شعره ، وعلى غــلافه نجــد قصيدة للشاعر أحمد الكاشف ، يقرظ فيها الكتاب ، ويقدمه بها وهى :

لك يامحمد عنـــد كل مــؤدب
قــدر وانى معجب بــك راضى
أودعت قلبى بعد سلوته الهــوى
وأثرت أشواقى « بذكرى الماضى »
فرجعت ألتمس الصبا مسترجعا
وأشــيد ماغادرت من انقــاض
وكأننى بــين الذى أمليتــه
وكتبت بين جــداول وغيــاض
فانشر بيــانك فى البـــلاد فـــانه
شــافى نفوس فى البـــلاد مــراض

فى السربون :

وفى صيف سنة ١٩١٥ غادر مصر الى فرنسا مرة آخرى لدراسة ليسانس الآداب ، وهى من أشق الشهادات بالنسبة للأجانب خاصة ، وقل منهم من يقترب منها ، ومنشأ ذلك اتقان الفرنسية كتابة ، ودراسة اللاتينية ، وقد تحدث الدكتور طه حسين فى الجزء الثالث من كتاب الأيام عن مدى صعوبة دراسة اللاتينية ، وقدر المعاناة التى كان يلاقيها الدارسون المصريون ، ومما قاله طه حسين عن محمد صبرى وعقدة اللاتينية فى هذه المرحلة : «٠٠ ولكنه لم يعرف بأسا ولا قنوطا ، ولم يذعن لعقبة أو صعوبة ، وانما حاول وطاول ، وألح فى المحاولة والمطاولة حتى تقدم للامتحان ذات يوم ، وتلقى النص اللاتينى ، فلم ينظر فيه نظرة سريعة وانما أقبل عليه فترجمه وقدم الى الممتحنين صحفا أتاحت له الفوز والنجاح» ٠

وتخصص محمد صبرى فى دراسة التاريخ الحديث ، وكان لكل طالب الحرية فى اختيار مادة حسب رغبته ، فاختار صاحبنا مادة الأدب لأنه يرى «أن التاريخ الأدبى استمرار للتاريخ السياسى والاجتماعى، اذ أنه يعطى صورة للعصر» ٠ وكان من بين أساتذته

أولار ، ولانسون وفورتنات ستروسكى وهيج وويلموت، وديمانجون ، ومن ذكــريات تلك الأيام ماقاله لى : ان استاذى فورتنات ستروسكى أعطانى ١٢ على ٢٠ فى بحث عن لامرتين ، وقال لى البعض انك تستحق ١٤ على ٢٠ ، فواجهت أستاذى مطالبا برفع الدرجة · فقال لى لأن الموضوع من اختيارك فلابد أن أتشدد معك · وهذه الواقعة ترينا مدى الدقة في تقدير البحوث · وبمرور الأيام تتوطد العــلاقة بينه وبين بعض أســـاتذته فى السربون ، وقد دار حوار بينه وبين أولار على هذا النحو كما رواه لى : كنت يوما مع أستاذى أولار أستاذ الثورة الفرنسية ، وكان يعتقد أن مصر بلد متدينة أى متخلفة وقال لى :

ـ سنبنى لكم جامعا فى باريس

ـ فضحكت قائلا ولم جامع

ـ لكى تصلوا فيه

ـ ان الجوامع كثيرة ، كما أن الصلاة تجوز فى أى مكان ، والأفضل أن تبنوا لنا مدرسة مثــلا فقد تكون أنفع

ـ ألستم متعصبين فى مصر

ـ لا

ويضيف الدكتور صبرى قائلا : ومن يومها قويت الصلات بينى وبينه .

ونلمح فى هذا الحوار حبه للعلم ، وانكار التعصب الدينى عند المسلمين فى مصر ، واقناعه آولار بأن الاسلام يسر .

وكان من زملائه فى السربون جلال شعيب الذى أصابه مرض ، وسافر الى مصر حيث مات شابا ، وكانا - هو وشعيب - فرسى رهان فى الدراسة على حد قوله لى ، وأخبرنى د. صبرى أن طه حسين أشار الى شعيب فى كتابه «أديب» وقد سمعت مناقشة فى البرنامج الثانى فى شهر نوفمبر ١٩٧٩ عن كتاب «معك» لسوزان طه حسين ، اشترك فيها الدكتور حسين نصار ، وتساءل عمن تكون شخصية «أديب» التى صورها طه حسين فى كتابه ، وقد يكون جلال شعيب هو هذا الأديب .

وفى عام ١٩١٨ دخل مع طه حسين امتحان الليسانس ، ومن ذكرياته عن طه حسين فى هذه الفترة ما أنقله عنه شخصيا :

دخلت أنا والدكتور طه حسين امتحان الليسانس فى عام واحد ، وعندما أعلنت النتيجة ذهبت فلم أجد اسمى ولا اسمه ، وفى اليوم التالى وجدت اسمه محشورا

بين السطور ، فتوجهت اليه وأخبرته ، وقد أثنى على كثيرا لهذا الصنيع (١) ويمضى الدكتور صبرى قائلا : ان حشر اسم طـه حسين بين السـطور آثار الكثير من الدارسين المصريين ، وقام جلال شعيب بكشف الحقيقة ، فقال لنا ان طه حسين ذهب الى الأساتذة فى السربون واستدر عطفهم ، وذكرهم بأنه على أبـواب الزواج بفرنسية ، وأنه غريب وأعمى ، وكانت تصحبه سوزان فى هذا الموقف وساعدت فى اثارة شفقة هيئة الممتحنين عليه ، وفى حديث لى مع الأستاذ على أدهم قال لى رواية مشابهة نقلا عن الفنـان آحمد صبرى ، ومما يدعم القولين (قول جلال شعيب وأحمد صبرى) هذا النص الذى جاء فى كتاب سامى الكيالى عن طه حسين ، والذى يقول فيه طـه حسين عنـدما تقـدم لمناقشة رسـالة الدكتوراه :

---

(١) قال طه حسين فى الأيام ج ٣ ص ١٢٠ عن هذا الموقف « .. وكان الأستاذ الدكتور صبرى السربونى هو الذى أقبل ذات مساء فرحا يكاد يخرجه الفرح عن طوره . مكدودا يكاد يقطع الاعياء تنفسه لشدة ما جرى بين السربون وبين بيت الفتى ، ولشدة ما أسرع فى صعود السلم الى بيت الفتى فى الطبقة السادسة ، فلم يكد يفتح له الباب حتى أعلن لمن فتحه له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس ، ولم يدخل وانما رجع أدراجه ولم يرد أن يستريح » .

«وليسمح لى بأن أعتذر عن أسلوبى الفـرنسى ، اذا مابدا بلا ريب فى كثير من المواضع ركيكا أو خاطئا ٠٠ وكذلك عن الأغلاط المطبعية التى قد تقع فى هذه الرسالة فما كنت الا غريبا وأعمى ٠٠»

وقد واجهت الدكتور صبرى بما كتبه طه حسين عن نفسه فى هذه الفترة وأثبته الأستاذ سامى الكيالى فى كتابه «مع طه حسين» ، وأورده بنصه الاستاذ كامل زهيرى فى مقـال عن طـه حسين بعنوان «الشيخ فى السربون» (١) وهذا هو ماقاله طه :

«كانت حياتى بباريس مقسمة بين ثلاثة معاهد أو أربعة : السربون ، وفيه كنت أحضر دروس التـاريخ القديم ، تاريخ اليونان على جلونز ، وتاريخ الرومان على بلوك ، والأدب الفرنسى على لانسون ، والفلسـفة والاجتماع على دوركايم ، وديكارت على ليفى برول ، واللاتينى على مارنا ، والثورة على أولار ، والبيزنطى على شـارل ديل ، والتـاريخ الحـديث على سينوس ، والجغرافيا على ديمانجون وجالوا» ٠

فقال الدكتور صبرى وقد أمعضه هذا الكلام : ان هذا الكلام لايسكت عليه لان طه حسين لم يدرس على

---

(١) الجمهورية فى ١٩٧٤/١١/١٤ ٠

كل هؤلاء ، فان دارس التاريخ لابد أن يتخصص اما فى التاريخ القديم ،أو تاريخ العصور الوسطى، أو التاريخ الحديث ، وطه حسين كان متخصصا فى التاريخ القديم ، فكيف درس تاريخ الثورة الفرنسية على أولار وهو تاريخ حديث ، والدكتور طه كان قليل التردد على السوربون لعاهته ، ولا أذكر أبدا انى رأيته يستمع لأولار ولا لديمانجون على سبيل المثال ، وكون أنه استمع الى محاضرة أو محاضرتين لأستاذ من الأساتذة لايعنى هذا أنه درس عليه ، ومن ثم لايعقل أنه تتلمذ على كل هؤلاء الأساتذة الكبار ، والا فاننى استمعت الى عشرات الأساتذة فهل أدعى أننى درست على جميع هؤلاء ٠ ان مادرسه طه حسين هو اللغة اللاتينية لتعينه على فهم التاريخ القديم ٠ أما الذين نقلوا نقل مسطرة عن طه حسين كالكيالى وكامل زهيرى فان معلوماتهما قاصرة بالنسبة للدراسة فى السربون (١) ٠

وعلى أية حال فقد نجح طه حسين فى الليسانس ، أما صبرى فقد حقق الفوز فى السنة التالية عام ١٩١٩ ٠

---

(١) نشر هذا الكلام فى مجلة الثقافة عدد ٣١ فى حياة الدكتور صبرى ٠

فى صحبة سعد زغلول :

فى ١١ أبريل ١٩١٩ سافر أعضاء الوفد المصرى الى باريس ، ليعرضوا قضية مصر على مؤتمر الصلح فى باريس ، ودارت مفاوضات ومناقشات ، وأخيرا جاء فى معاهدة فرساى التى وقعت فى ١٩١٩/٦/٢٨ اقرار الحماية البريطانية على مصر ·

وهناك فى باريس التقى محمد صبرى بأعضاء الوفد المصرى ، وعمل سكرتيرا للوفد ، وتكشف مذكرات محمد صبرى ــ التى لم تنشر ــ عن سعد زغلول كثيرا من المناقشات التى كانت تدور بين الاثنين حول القضية المصرية ، وقد صور صبرى فى مذكراته الخلافات التى كانت بين أعضاء الوفد ، والتى كانت أكثر من خلافاتهم مع الانجليز ، وتعطينا المذكرات صورة لوطنية سعد زغلول ، وتوضح نظراته الى مختلف الأمور حتى غير السياسية · وقد اشتملت المذكرات على مايأتى :

- وضحت أسف سعد على انقسام الأمة ·
- رفض سعد لقبول التحفظات لان ذلك معناه الحماية
- أكد سعد أنه لن يعيش كثيرا ولكنه يريد أن يعطى مثل التضحية مهما كلفه ذلك من الآلام ،

ولابد من انتصار الحق واذا لم ينجح هو فسيكون خلفه.

● عارض عدلى أولا فى ارسال محمد محمود الى لندره لأنه مكروه فى انجلترا ، اذ كان يشتغل مع الانجليز أولا ثم طعن عليهم كثيرا فى أمريكا . أما عبد العزيز فهمي ولطفى السيد فالانكليز يعتبرونهما مخ الوفد .

● مما قاله زغلول للمنر اننا فى حاجة الى أجانب بصفة اختصاصيين لا بصفة أخرى ، ونعطيهم الأجر اللازم واذا كان محمد على الأمى أمكنه أن يحسن اختيار أجانب لتعليم البلد وترقيتها ، فهل مصر اليوم المتعلمة لايمكنها حتى انتقاء أكفاء .

● كان عدلى يفكر مرارا فى تأليف وزارة ، ويطلب أن تؤيد من الوفد فكان يرفض سعد تأييد وزارة تحت الحماية وكان يقول بأنه لايمكن الاتفاق مع أية هيئة كانت مالم يتم الاتفاق على تعديل المشروع والا فالوزارة تكون اما خادعة أو مخدوعة .

ولم ينس الدكتور صبرى عمله مع سعد باشـا ، وظل الى آخر حياته يحتفظ بكتاب باللغـة الفرنسية «وضعه فى مظروف» كان يقرأ منه كل ليلة لسـعد ، وكان يشير الى هذه الأوقات التى كان يقضيها فى صحبة رئيس الوفد . وجاء فى مقال للسربونى نشرته جريدة المصرى بتاريخ ١٩٤٨/٣/٢٢ :

«وأذكر أنى كنت أسير ذات يوم فى سنة ١٩١٩ مع سعد فى ميدان الكونكورد بباريس فقلت لسعد ، وكان اليوم ضاحيا ، وكان مؤتمر السلام مغلقا بابه فى وجه المصريين ، وكانت آمالنا موحشة (حسب الثورة انهـا رفعت رؤوسنا) فالتفت سعد وكان طويل القامة ، متين البنيان مهيبا ، وانتبه انتباهة الضحى ، وجلال الموقف قوة هيولية فى أسمى معانيها ، كانت تلك هزة النشوة من زعيم الثورة» .

وقد أشار الأستاذ محمد كامل سليم فى مذكراته عن سعد زغلول الى رأى سعد باشا فى الدكتور السربونى حيث قال :

«٢١ نوفمبر سـنة ١٩٢١ حضر لزيارة سـعد ، مصطفى النحاس ، وويصا واصف ، وحافظ عفيفى ، وأبلغوه أنهم عائدون الى مصر بعد أسبوع فأجاب سعد :

(لقــد راجعتكم فى ذلك ، ولكن علوبه أخبرنى أنــكم اشتريتم التذاكر فشعرت بأن هذا التصرف غير لائق) • وبعد خروجهم أخبرنى الرئيس أنه يتوقع أن كثيرين من الأعضاء سيعودون الى مصر مثلهم ، وانه قد فكر فى الأمر وقرر ألا يعارض أحدا له رغبة فى العودة ، وأما هو فسيظل يجاهد فى أوربا بكل مالديه من وسائل حتى تنال مصر استقلالها التام ويكفيه فى هذه الحالة أن يكون معه ويصا واصف كاتب هذه السطور كمساعدين له وأما باقى الأعضاء فمن الخير أن يعودوا توفيرا للمال وحسما للخلاف وانجازا للأعمال «سمعت هذا الكلام من سعد ، وآثرت السكوت ، فقال سعد هل تستطيع البقاء معى أم تؤثر العودة الى مصر ؟ فقلت انى معك ، هنا وأشـعر أننا فى حاجة الى آخرين مثل الدكتور صبرى السربونى أمين المحفوظات فهو شاب مثقف مهذب وخبير فى الحياة الفرنسية وله علاقات بالصحافة الفرنسية فقال سعد : أجل هذا شاب مهذب أحب الاحتفاظ به هو والدكتور حـامد محمـود وبهــذه المجمـوعة أنا فى غنى عن الآخرين» (١) •

---

(١) الأخبار فى ١٩٦٩/٤/٢١ •

التاريخ للثورة المصرية :

ومما كان يردده المترجم له عن سعد باشا قوله : «لقد قلت لسعد زغلول سنة ١٩١٩ وأنا سكرتير صغير له : اذا كنت تريد الثورة أن تستمر فلابد قبل السلاح أو الحماسة أن تكتب تاريخ مصر · وفهمها سعد ولم يسخر ولكنه قال لى : ماتكتبه يافالح حاكتبه آنا» (١) ·

وكانت هذه الكلمات من زعيم الأمة له حافزا ودافعا على كتابة تاريخ بلاده ، فأصدر فى باريس باللغة الفرنسية الجزء الأول من كتاب «الثورة المصرية» الذى قدم له أولار أستاذ الثورة الفرنسية فى السربون ·

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه قبل صدوره كانت جميع البرقيات التى تنشر فى أوربا عن الثورة المصرية لاتذكر اسم الثورة ، وانما تتكلم عن اضطرابات وقلاقل فى شوارع القاهرة ، فتولى اخبار أوربا عن حقيقة الوضع ، واذاعة تفاصيل الأحداث ·

وفى مصر كانت صحيفة المقطم (٢) المناصرة للانجليز تصف أحداث الثورة بأنها مظاهرات بسيطة

---

(١) الجمهورية ١٩٦٤/٩/٢٠ ·

(٢) انظر صحيفة المقطم فى الفترة من ١١ مارس ١٩١٩ حتى ٢٠ مارس ١٩١٩ ·

يقوم بها الطلبة وبعض الغوغاء ، وأشارت الى المسيرات التى اشترك فيها عـدد من كرائم العقـائل ، وطالبات المـدارس ، وان كانت المقطم قـد اعترفت في بعض أعدادها بعنف المظاهرات الا أنها لم تتحدث عما جرى عام ١٩١٩ باعتباره ثورة كبرى تهز عروش الاحتلال البريطاني ·

واذا كانت المقطم تصف الثورة بهـذه الكلمات الهينة وهى تصدر فى مصر بلد الثوار ، فما بالنا بمـا يقوله الانجليز فى أوربا التى لم تشهد الثورة ·

ثم ان هناك شيئا آخـر يضـفى أهمية على كتاب «الثورة المصرية» وهو أن المؤلف نشر لأول مرة صـور الفظائع التى ارتكبها الانجليز فى الوطنيين المصريين ، وكان الوفد يتردد فى نشرها واذاعتهـا ، ومن يقلب الكتاب يجد فيه صورا عديدة لمظاهر الكفاح والوحدة الوطنيـة لمختلف الطـوائف فى مصر ، فأثبت صـورة لمظاهرات النساء ،ولرجال الدين ،وجنازات المستشهدين فى سبيل مصر ، وغير ذلك ·· وهـذه الصـور تؤكد أقواله ، وتفضح مزاعم الانجليز ·

واظهـار دور المرأة ، ورجـال الدين والموظفين والعمال فى الثورة المصرية يبين أن هذا البحث التاريخى

M. SABRY

LA RÉVOLUTION ÉGYPTIENNE

D'APRÈS DES DOCUMENTS AUTHENTIQUES
ET DES PHOTOGRAPHIES PRISES AU COURS
DE LA RÉVOLUTION.

(21 photographies hors texte)

LETTRE-PRÉFACE
de M. A. AULARD.
Professeur d'histoire de la Révolution française
à l'Université de Paris



PARIS - Vᵉ
LIBRAIRIE J. VRIN, 6, place de la Sorbonne

1919

غلاف كتاب الثورة المصرية (جزء أول) الصادر عام ١٩١٩
بتقديم اولار استاذ الثورة الفرنسية بالسربون

انصب على ابراز دور المجتمع أو الشعب فى تحقيق الثورة ، وهكذا صار التاريخ يتناول كفاح الشعوب بعد أن كان يكتب ليظهر مناقب الملوك والزعماء ٠

وقد ترك الكتاب صدى هائلا فى أوربا ، فعندما حدث اضراب كبير فى عام ١٩١٩ للصحف عامة فى فرنسا ، وظهرت صحف اليمين فى جريدة ، وصحف اليسار فى جريدة أخرى ، كتب الجنرال فيرو افتتاحية صحف اليسار عن كتاب الثورة المصرية لمحمد صبرى ، وحسبه هذا وحسبنا ٠

أما على صعيد مصر ، فقد صودر هذا الكتاب ثلاث مرات لأنه قال فيه عن الملك فؤاد انه ملك لا شعبية له ، ولم يتوقف عند هذا الكتاب للتعريف بالقضية المصرية ، فأصدر بالفرنسية كتاب «المسألة المصرية» عام ١٩٢٠ وتناول فيه القضية المصرية منذ بونابرت الى ثورة ١٩١٩ ، وقد قال أولار فى وصف هذا الكتاب ان المؤلف اتبع فيه طرائق البحث العلمى التاريخى التى تعلمها فى السربون ، وقال أيضا بأنه عمل وطنى ، وآن صبرى كرس حياته لخدمة قضية بلاده ، ويقول الدكتور صبرى اننى آتى فى المرتبة الثانية بعد جوزيف فولك الكاتب الأمريكى الذى كتب بحثا جيدا عن المسألة المصرية ٠

وتتابعت أعماله الوطنية باللغة الفرنسية فأصدر في عام ١٩٢١ الجزء الثانى من كتاب «الثورة المصرية» وتناول فيه مقاطعة لجنة ملنر (١) ·

ولاشك أن مؤلف هـذه الكتب قد أفاد من وثائق الوفد ، ولايعزب عنـا أنه كان أمين المحفوظات وتحت سمعه وبصره ماكان يدور من حـوار ، ومايرسـل من برقيات الى رئيس الوفد حول القضية المصرية ·

وهكذا جاهد الدكتور صبرى بالكلمة ، ودافع عن مصر ابان فترة الثورات ، وشرح قضية بلاده فى فرنسا، وعبر عن أسمى المطامح التى كان يتشوف اليها الشعب المصرى ، فقـرب وجهـة النظر المصرية للرأى العـام الأوربى ·

وقد عقب الشاعر خليل مطران على كتاب الثورة

---

(١) وفى مذكراته عن سعد زغلول ما يتصل بلجنة ملنر قال « ترجمت مع كامل سليم نصف تقرير ملنر ، وبعد الترجمة اعتقد سعد أن التقرير استقلال فقلت له انه حماية بالثلث فلم يسلم بذلك وتضايق ، وقال انه درسه مع كامل ، وأمام عناده بادرت بالخروج ثم عدت اليه فى المساء فرحب بى ، فلما سألت عن السبب فى هذا التغيير قيل لى انه كان أرسل فى الصباح برقية الى الأخبار يمتدح فيها التقرير ، وبعد زيارتى له أرسل برقيـة أخرى بأن المشروع حماية بالثلث » ·

المصرية فقال : «٠٠٠ هذا السفر قد اتيحت لى مطالعته فوجدت فيه مصداق الأماديح المتنوعة التى تلقته بهـا جرائد فرنسوية متعددة ، وآدباء فرنساويون من علية القوم ، وجلة ذوى المكانة فى عالم البيان والفكر ، على أن فيه داعيين آخرين للثناء على المؤلف ذلك أن الاستاذ بتنبيهه للأجانب حقائق ماجرى فى تلك الأيام العظيمة بمصر قد خدم أمته ٠ فى وقت من أحرج أوقاتها خدمة لاتقوم بثمن وانه بقوة وطنيته المتدفقة فى كل نقطة وفى كل جملة من سفره تدفق السيل بباعث لايوافقه شىء يعترض طـريقه هو الاخـلاص ٠٠٠ كان قدوة ونعمت القدوة لمن فهم من فتيان قومه بكل جوارحه وأن لا أمة عزيزة بلا وطن عزيز» (١) ٠

---

(١) مقدمة تاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليا ٠ أدب وتاريخ واجتماع ٠

نشاط أدبى وتاريخى

عودته الى مصر :

وفى أواخر عام ١٩٢١ عاد الى مصر لخلاف نشــأ مع الوفد ، ذلك أنه خــلال هــذا العام وفد الى باريس عبد اللطيف المكباتى واسماعيل صدقى ، وكانت تربطه بالمكباتى صلة وطيدة ، وقد طلب منه ذات يوم أن يطبع له على الآلة الكاتبة الموجودة فى مقر الوفد ـ حيث كان يقيم وحده منذ سفر الوفد ـ نشرة دعائية كتبها اسماعيل صدقى ضد الوفد ، ورغم صلة الصداقة التى بينه وبين المكباتى فانه رفض رفضا باتا قائلا : لايجوز أن ينجز مثل هذا العمل فى دار الوفد نفسها ، والذى حدث أن مبعوثا للوفد كان يقيم فى باريس فكتب الى الوفد يقول انه كل يوم يلتقى مع المكباتى وهو عدو الوفد فهناك شبه تآمر بينهما ولاشك أن مثل هذا المبعوث الأحمق كان لايميز بين الصداقة والحفاظ على المبدأ • وليس أدل على

وفائه لزعيم الأمة ورئيس الوفد من أنه نشر بعد ذلك بوقت طويل مقالا أثنى فيه على سعد نشرته جريدة المصرى بتاريخ ١٩٤٨/٤/٢٢ ، ومقالا آخر عن ذكرى الثورة المصرية نجده على صفحات جريدة المصرى بتاريخ ١٩٥٠/٣/٢١ ردد فيهما ماقالته جريدة التيمس عن سعد : انه كان «من أكبر رجال الثورة فى التاريخ» ٠

مؤرخ الثورات :

وفى مصر عمل فى صحيفة «السياسة» وكان ينشر فيها مقالات أدبية وتاريخية والى جانب هذه المقالات كان يعد لكتابه «تاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليا» ٠

والدكتور السربونى مؤرخ الثورات ولاجدال ، فقد أرخ للثورة المصرية (١٩١٩) كما مر بنا وأرخ للثورة الايطالية (١٩٢٢) وللثورة العرابية (١٩٢٤) وللثورة الفرنسية ونابليون (١٩٢٧) وكتب فصلا عن الثورة الأمريكية (١٩٢٧) وفى تأريخه للثورة الايطالية (١) من أجل الاستقلال والوحدة بين مراحل

---

(١) كتاب « الحركة الاستقلالية فى ايطاليا ، كان فى الأصل محاضرة طويلة القاها فى الجامعة المصرية على قسمين سنة ١٩٢٢ ، وقامت بنشرها جريدة الاستقلال ٠

الثورة والارهاصات التى مرت بها ، ولكن يخيل لنا أن السربونى كان يتغيا شيئا آخر من تأريخه للثورات غير سرد الأحداث التاريخية ، ذلك هو بعث الشعور القومى وتهيئة النفوس لمزيد من الثورات ضد المستعمر ، الذى يمنحنا استقلالا مقيدا بتحفظات ، ويلقن الشعب المصرى درسا فى التضحية والحماسة والثبات أمام المحتل ، حتى لاتصاب الثورة باللامبالاة ، ويخلد الثوار الى الاستمتاع بالحياة ، فترديده لكلمات ماتزينى «ان الطريق الوحيد الى الانتصار هو طريق التضحية والثبات فى التضحية» وقوله ان الاعتماد على النفس هو الجوهر الأساسى للحركة الاستقلالية ، والدعوة الى حرب دموية لا رحمة فيها ، لايعنى من هذا أنه يزيدنا اعجابا بأحد زعماء ايطاليا ، وانما لنتمثل كلماته فى مقاومتنا للانجليز ، وقد أورد قول أحد قياصرة الدولة الرومانية «لنعمل» وراح السربونى يرد فى عنف على دعاة الانهزامية الذين يقولون ان مصر ليس عندها جيش ولا أسطول ترغم المحتل على التسليم بحقوقنا صاغرا ، فيرد عليهم مفندا مقولاتهم بقوله ان الخصم يعلم ذلك «ولكنه لايمكنه أن يتجاهل أبد الآبدين ارادة أمة» ويقول «وقد مضى الزمن الذى يعيش فيه المحتل قرير العين منعم البال وسط شعب يريد أن يعيش حرا» .

وانتقاداته على ثورة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ فى ايطاليا توضح فكرته عن الثورات وعوامل فشلها ونجاحها فقوله ان دخول ايطاليا الحرب «قبل أن تتم الاصلاحات وقبل أن يتيسر للبرلمانات الجديدة أن تصلح الحكومة ، وتخرج منها جميع الموظفين الرجعيين الذين كانوا ألد أعداء الثورة والاصلاح» يعنى أن الثورة ليست هى الاندفاع والتهور ، والحماسة الزائفة ، وانما يجب أن يقوم الثوار الحقيقيون بعمل برامج اصلاح واضحة ومحددة فى المجالات المختلفة كالاقتصاد والتعليم .. لتهيىء وتعبىء للثورة الصحيحة المنظمة لان الاصلاحات تعمل على نهضة الأمة وترقيتها وتمكين الثوار ، ويلتفت الى قوة البرلمانات وعملها على اصلاح الجهاز الحكومى ،ويرى أيضا أن وجود العناصر الرجعية فى الوظائف الحكومية يعمل على اضعاف روح الثورة والنيل منها ، والميل بها الى طريق غير طريقها .

وهو لايقف من أحداث الثورات موقف المشاهد المسجل للوقائع ، ولكنه يقوم ويعقب ، ويكشف المبادىء الجديدة التى تطرأ على المواقف ، ويحدد الطاقات الانسانية للثوار ، ويعين الخطوط السارية فى الأحداث، وبهذا يكسب المراحل التى تمر بها الثورات وحدة .

ويمضى السربونى فى ايضاح أفكاره التى تبين مفهومه للثورة الناجحة ، فيتحدث عن مانان (١) الذى كان شعاره أن تلتقى جميع الأحزاب فى حزب واحد ، ولعل قول مانان هذا ورؤيته التاريخية للأحداث الجارية فى مصر فى أعقاب الثورة من بين البواعث على كتابة مقال فى الأهرام بتاريخ ١٩٢٢/٤/١٤ يرى فيه ضرورة التمسك بالحكمة والثبات ، والعمل على ايجاد حزب كبير ينظم الثورة السلمية ويمسك بزمامها ويدفعها فى طريق نظامى غايته الاصلاح ويقول «لقد تطورت الحركة واتسعت الهوة بين الأحزاب مع أن المبدأ واحد والبرنامج واحد وأصبحت السياسة الحزبية متغلبة على الفريقين وأصبحنا لانسمع الا جلبة وضوضاء فصارت الحركة بفضلهما كطاحونة الهواء تجعجع ولاتجد ماتطحنه» .

«نحن بحاجة الى حزب يوفق بين السعديين والعدليين أو يضم ذوى العقل الراجح والرزانة فهما ، نابذا العناصر التى لا وزن لها فى الجانبين والتى كانت حركة الانقسام سببا فى ظهورها وتعليها ، متجنبا السياسة الحزبية التى كادت تقتل الحركة فى العهد

---

(١) تاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليا .

الأخير ، نحن بحاجة الى حـــزب يعمل على ايجـاد مبدأ التعاون بين الأمة والحكومة ، حــزب يصلح الحـــكومة ويستخدمها كآلة لتحقيق الاصلاحات وادخال الثورة فى سياسة عملية سياسة تعمير وبناء» .

وهكذا يرى أن توحيد كلمة الأمة ، وتآزر قواها ، وجمع شتاتها من عوامل نجاح الثورة .

ويعنى الدكتور صبرى بالرأى العام كأحد عناصر الثورة ، ذلك أن اعداد الثورة والجيش المنظم لابد أن يحوطها «بقوة أدبية» لتحقيق الغاية ، ويوضح أن كسب الرأى العـــام «يحتـــاج الى قوة منظمة روحها العقيدة والالهام» (١) ولعله يقصد بالعقيدة هنـــا عقيدة حب الوطن ، والهام المبادىء السامية التى تعتنقها النفوس المتطلعة الى الحرية والاستعلاء .

وفى هذا السياق ونحن نحدد مفهوم السربونى عن الثورة لابد أن نقف عند حديثه عن عنصر هام من عناصر الثورة ، وهو قائدها . فقائد الثورة هو الثـــورة فى حقيقة الأمر ، لأن الثورات أو الهزات الوطنية لايقـــوم بها أفراد الشعب الا اذا قام بينهم زعيم له تأثير فعال فيهم ، يثيرهم ويبصرهم ويفجر الطـــاقات الكامنة فى

---

(١) أدب وتاريخ واجتماع .

نفوسهم ، ويلهب مشاعرهم ، ويوقظ القوى الخفية فيهم ، ويستغل الوقت الحاسم فينبههم الى ساعة البدء • ويرى السربونى أن هذا القائد يجب ان يكون مثلا أعلى للاخلاص والتضحية متسامحا مع خصومه ، ومما يعيبه على الزعيم أن يكون خياليا ، لذلك لابد أن تكون سياسته «عملية تتنوع بحسب الظروف» (١) ومما قاله عن سر نجاح سعد زغلول «بلوغ الحماسة آوجها • خطيب مقتدر وزعيم جماهير » (٢) وهذا يضاف الى آرائه عن الصفات الواجب توافرها فى قائد المسيرة ، وزعيم الثورة ومما يلزم العمل الثورى لاتمام نجاحه عدم التشابه والتشاكل فى كل المراحل ، أى يجب أن يكون لكل طور فيه مهمة وغاية • ويقارن بين الثورة الايطالية والثورة الفرنسية ، ويرد نجاح الثورة الايطالية الى أن فى طورها الأول غلب عليها الحماسة والعنف ، وفى طورها الثانى تحقق الاصلاح ، وسادت فيه الحكمة والاعتدال أما الثورة الفرنسية فانها بسبب تسلط الزعماء فى كل أمورها وأطوارها انتهت الى الفوضى والاستبداد زمنا طويلا • ولذلك يدعو زعماء ثورة ١٩١٩ الى التطور

---

(١) المرجع السابق •

(٢) المرجع السابق •

واتخاذ سياسة تلائم كل فترة ، وبذلك تتجدد الثورة وتحيا وتثمر • وهكذا فان قراءة هذه الصفحات التى خطها فى تأريخه للثورات المختلفة ، والمقارنة بينها ، وشرح عناصرها ، وسرد مراحلها ، وايضاح الأطوار التى يجب أن تمر بها ، يعطينا فكرا خصبا لا تجود به الا قرائح المؤرخين أصحاب الحس التاريخى الدقيق •

دراسات ادبية :

فى هذه الفترة التى نعرض لها من حياة صاحب الترجمة الواقعة بين عامى (١٩٢١ ـ ١٩٢٧) نقف على انتاجه الأدبى فى هذا الطور من عمره ، واهم ما قدمه لنا فى الصحف التى كان ينشر فيها ، والكتب التى كان يصدرها تباعا •

والذى لاشك فيه أن صبرى من دعاة التجديد ، ولم تصرفه معارفه التى تلقاها من جامعات أوربا ومن ثقافة كتابها عن جوهر لغتنا ، وأصالة تراثنا العربى ، وكان يرى أن التجديد يأتي من خلال تراث السلف ، واذا كانت قد استهوته الأراء الأدبية الأوربية والتى كانت تدعو الى تحليل النصوص والوثائق ، والايجاز فى التعبير ، ودقة التصوير ، فانه لم يتلق هذه الأفكار باعتبارها منهجا نادرا وافدا لا علم لنا به ، فبعد امعانه

المنظر فى تراثنا وجد أن هذه الآراء والطرائق موجودة عندنا ، وماعلينا الا أن نرجع باللغـة «الى ذلك النبع الأول ، ولن يمنعنا ذلك من انتقاء اللفظ الذى يلائم العصر ، ويجرى فى سلك الكلام لا نافرا ولا حوشيا» • ولن نتكلف شيئا اذا نظرنا فى أدبه لنجد أنه تخلص من السجع البارد ، ونبذ البديع المتكلف ، وماشابه ذلك من ألوان البلاغة المصطنعة ، والتى جرى بها اسلوب بعض الكتاب قبيل عصره وأثناءه •

ولأنه من أنصـار التجديد على أساس العـودة الى «النبع الصافى الأول» فقـد خطأ من قال «ان الذكاء البشرى لاينفذ وان تباينت أشكاله بتباين الأزمنـة ، والأفراد والجمـاعات» الى أن يقـول «فلنجدد فان فى التجديد مظهرا من مظاهر الشخصية القوية ، ومعنى من معانى الحياة» •

وفى هـذه الفترة قدم دراسـتين عن البـارودى واسماعيل صبرى •

أما دراسـته عن البارودى فقد اتبع فيهـا مسارا مختلفا عن الدراسات المعتـادة التى تترجم للشـعراء وتناول قصائدهم بالتعليق والتحليل ، وقد كان الشائع أن ترتب دواوين الشعراء حسب أغراضها ، من مديح

وفخر وهجاء .. الى آخره ، ويقــدم الدارس مادته ، وحكمه على ماجاء به الشاعر فى هذه الأغراض ، أمــا الطريقة التى سار عليها وارتضاها ، وعدها أجدى فى دراسة الشاعر هى ترتيب قصائده ترتيبا تاريخيا لأنه يرى أن «هذا هو المقياس الصحيح الذى يدلنا على مبلغ ارتباط الشعر بحياة الرجل وعصره» .

وعلى هذا راح يتدرج مع البــارودى فى مراحل عمره ، وأطوار فنه ، ليكشف خصائصه الذاتية والفنية جميعا ، وهى لفتة تدل على أن الباحث يريد أن يصــل الى مايريد من أصح السبل ، وقصائد البارودى ليست كلها مؤرخة ، فكان ينظر فى القصــيدة ويتعرف من أبياتها على زمن قولها ، أو يراجع الأحداث التاريخية لبعض هذه القصائد فى أزمنتها الخاصة بها ، وحسبنا هذا الجهد فى دراسته . ولاأشك فى أن الذين تناولوا البارودى فيما بعد بالدراسة قد انتفعوا بهذه الطريقة، وأفــادوا من تــأريخ السربونى لكثير من قصـــائد البارودى .

وفى هذه الفترة ظهرت دعوات التجديد فى الشعر وفى دراسة الشعراء ، وكان من مبادىء التجديد أن يعكس الشعر صورة صادقة لأحاسيس الشاعر ، آى أن

يكون للشاعر طابعه الخاص فيما ينظمه ، وقد سار الدكتور صبرى في هذا الاتجاه ، ورأى أن أحسن الشعر أصدقه وليس أكذبه كما قيل .

وقد أثار محمد صبرى قضايا كثيرة في هذه الدراسة ، ونبه على أشياء مفيدة ، نذكر منها أن شارح ديوان البارودى لم يعتن بنشر شعره في صورته الأصلية فمسخ بعض القصائد ، لذلك راح يوازن بين أبيات وردت في الديوان المشروح ، وبين نفس هذه الأبيات في رواية المرصفى في الوسيلة الأدبية ، وبين الفارق بين الصياغتين ، وكان يفاضل بينهما ـ على أساس فنى ـ رواية الديوان تارة ، ورواية المرصفى تارة أخرى ، وهى نظرة عميقة من الدارس ، تشير الى مدى صبره ، وعدم الاعتماد على رواية واحدة للشعر في تذوقه والحكم عليه .

وقد أهدى نسخة من هذه الدراسة الى الشاعر أحمد شوقى ، فأرسل اليه خطابا يقول فيه : « احبب بك مهديا ، وأكرم بكتابك هدية ، ولا برحت تواليتا بالطرف من أدبك ، وتوافينا بالتحف من كتبك ، وجعل الله هذه الآثار وأمثالها من نتائج القرائح في مصر نماء وبركة ، في رأس مال الأمة ، من حضارة مستقبلة ،

ودولة مؤملة ، ومكان بين الممالك ومنزلة ...» . ثم يقول شوقي «سألتني عن رأيي في رسالتك الجليلة فان كان من القيمة مازعمت فهو رأى الغواص في الجمانة ، والبستانى فى الريحانة ، والتجر فى معتقة الحانة ، ترجمة كلها حسن ، وأحسن مافيها المترجم ، وتحلية كلها روعة ، وأروع مافيها المحلى ..»

هكذا وصف شوقي كتابه عن البارودى .

أما دراسته الثانية فكانت عن اسماعيل صبرى شيخ الشعراء ، وصبرى يأتى عنده فى منزلة ثانية بعد شوقى ومطران لقلة انتاجه الشعرى ، وقد كشف فى هذه الدراسة الأبيات التى جارى فيها اسماعيل صبرى البحترى واقتباسه من الشاعر مونتين ، ووقف بعض الشيء عند شعر الحكمة ، ولم يطل الوقوف رغم أن لاسماعيل صبرى تأملات عميقة فى الموت والحياة والناس ، على أن أهم ماأوضحه فى هذه الدراسة تحليله لقصيدة اسماعيل صبرى «لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى ..» فقد بين أن العمال المصريين الذين شادوا الأهرام كانوا يطلبون الاتفاق الفنى «اكراما للفن» ولم يجار صبرى فى قصيدته ماكان يقال فى شأن بناء الأهرام من سخرة وظلم ، ترتب عليه السخط والتذمر

في نفــوس المصريين وعلق محمد صبرى بقــوله «ان صبرى راعى فى نظريته مايسمونه بالوجهة التاريخية الوطنية» وقارن فى هذا الفصل بين قصيدتين آخريين احداهما لمطران وأخرى لشوقى · وقد يقدم الشاعر أو الناقد تفسيرا أو تعليلا لعمل تاريخى ـ كبناء الأهرام ـ يعجز عن تقديمه كتاب التاريخ بمدطول بحث واستقصاء وتنقيب ·

وليس الكتاب عملا نقديا بكل ماتحمل الكلمة ، ولكنه عمل قدم فيه المعانى الرائعة ، والصور الشعرية الشفافة التى راقته ، وحركت حسه فى شعر اسماعيل صبرى ، فراح يعبر عنها بكلمات مختــارة ، وعبــارة بلاغية تحثك دون أن تدرى على قراءة شــعر الشاعر مشوقا الى البحث عنه وانشاده ، وتذوق ثمراته ، وتأمل خطراته ، من هذا ماعلق به على هذا البيت لاســماعيل صبرى :

سمــح تــراه اذا حللت بحيــه
أبدا يحن الى خصــال الجــود

يقول السربونى : «يبدو صبرى الكبير من هــذا البيت كما يبدو قرن الشــمس من خلل الغمــام ، وقد بدأت تتفتق له المعانى الغريبة فيجتنبها ، وتتهادىأمامه

صورة لرسالة من شارل رو

توضح رايه فى كتاب السربونى « نشأة الروح القومية فى مصر » .

البعثة الفرنسية فى براج
براج فى ٣١ ديسمبر ١٩٣١

سيدى العزيز

لقد تلقيت مع خطـــابكم الرقيق المؤرخ فى ٣ نوفمبر كتابكم الممتع عن (نشأة الروح القومية فى مصر » وقد انتهيت من قراءته منذ قليل بحماسة كبيرة ، وأستطيع اليوم أن اهنئك على هذا الكتاب مع شكرى لكم فى نفس الوقت ، لقد كان موضوعا جميلا جديدا تمام الجدة على الأقل بالنسبة لكتاب كتب بالفرنسية وعالجته انت بوصفك الوحيد القادر على تاليفه مستخدما الوثائق باللغة العربية ، ولقد كنت شديد الاهتمام بهذا الكتاب حقيقة لأنه يضيف كثيرا الى معلوماتى عن تاريخ بلادكم التى اشعر نحوها كما تعلمون بعاطفة خاصة جدا ، وأعد نفسى بمجرد توفر الوقت لى باعداد كتاب عن نفس هذا الموضوع يستند الى كتابكم هذا .

شارل رو

Légation de France
A Prague

Prague le 31 Déc. 1939

cher Monsieur

J'ai reçu, après votre aimable lettre du 3 novembre, votre intéressant livre sur la Genèse du sentiment national égyptien. Je viens de le lire avec le plus vif intérêt et je peux aujourd'hui vous en féliciter, en même temps que vous en remercier. C'était un beau sujet, entièrement nouveau, au moins pour un ouvrage écrit en français, et vous l'avez traité comme seul le pouvait un auteur capable d'utiliser les documents en langue arabe. J'ai été vraiment très intéressé par ce livre, qui ajoute beaucoup à mes connaissances sur l'histoire de votre pays, pour lequel vous savez que j'ai une prédilection très particulière.

Je me propose, dès que j'en aurai le temps, d'écrire sur le même sujet une étude dont votre livre sera la base.

F. Charles Roux

الألفاظ العذبة فيقتنصها ، وهذه لفظة «حى» ستنتقل في شعره من بيت الى بيت تنقل الأقمار فى منازلها» •

على هذا النحو راح يعرض شعر اسماعيل صبرى ويهتدى الى معانيه وصوره ، ويعلق عليها بمثل هذه الكلمات التى يأخذك جمال صياغتها ، فتقف مأخوذا ببراعة كاتبها •

لقـد وضع محمد صبرى دراسته هـذه وليس لاسماعيل صبرى ديوان مطبوع يسـتند اليه ، وينظر فيه ، ولكنه اعتمد على ما نشر للرجل فى الصحف والمجلات وخاصة «روضة المدارس» فكان جهدا له قيمته وآثره •

واذا عرفنا أن ديوان اسماعيل صبرى جمع ونشر عام ١٩٣٨ (١) أحسسنا بأهمية هذه الدراسة ، التى صدرت قبل ظهور الديوان بأكثر من عشرة أعوام فسدت فراغا أدبيا كبيرا ، ومازال هذا الكتاب هو الوحيد فى المكتبة العربية ــ فيما أعتقد ــ عن اسماعيل صبرى •

---

(١) جمعه الأستاذ أحمد الزين وقدم له طه حسين وأحمـد أمين •

رسالة الدكتوراه :

والى جانب هـذه الدراسات والمقـالات التى كان ينشرها فى الجرائد والمجلات ، كان يعد رسالة الدكتوراه فى الآداب وموضوعها «نشأة الروح القومية فى مصر» باللغة الفرنسية ، وسافر الى باريس فى صيف ١٩٢٣ ، وقدم رسالة النشأة القـومية كرسـالة أولى (١) وهى الرئيسية ، كما قدم تقرير عرابى الى المحامين باعتباره رسالة تكميلية تتضمن وثيقة هامة لم يسبق نشرها •

وهذا الكتاب عمل من أعمال الوطنية اذ أنه يؤرخ لنشأة الروح القومية مبينا أرضيتها الصلبة ، وفى هذا يقول «لاتوجد أمة ولا حركة قومية دون أن يكون لهـا اساس من التاريخ الصحيح » (٢) وقد أثبت فى هذه الرسالة ما استصح من وثائق جديدة لم ينوه عنها من قبل مثل مذكرات محمد عبده التى استطاع أن يحصل على نسخة كاملة منها من صديق له كان يعمل سكرتيرا لمجلس الوزراء والكثير من هذه المذكرات لم ينشر كما

---

(١) ذكر الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف فى جريدة الأخبار بتاريخ ١٩٧٨/١/٢٥ أن الدكتور صبرى نال الدكتوراه على رسالته « الامبراطورية المصرية » وهو خطأ ، والصواب ما ذكرناه •

(٢) مجلة الكاتب ديسمبر ١٩٦١ •

استعان بمذكرات لأحمد عرابى لم يسبق اذاعتها ، وأجرى أحاديث مع كل زعماء الثورة العرابية الأحياء ، كحسن موسى العقاد ، وابراهيم الهلباوى المحامى الذى وصفه بأنه ذكى ، دقيق الوصف ، الى جانب قراءة الصحف العربية والأفرنجية فى هذه الاثناء ، فقد استعار الكثير من مجلدات الصحف فى عصر اسماعيل من طلعت حرب ، ويوسف المويلحى ، كما أفادته فترة دراسته فى باريس فى قراءة مذكرات نوبار باشا وهى لم تنشر الى الآن ٠

والمعروف أن الأدباء والمؤرخين يرجعون أسباب النهضة ، ونشأة القومية فى مصر الى عهد الحملة الفرنسية وما أحدثته من تطور وتنوير ٠ ولكن الدكتور صبرى يرى أن نشأة الروح القومية فى مصر لم تبدأ منذ الحملة الفرنسية وانما فى أيام على بك الكبير ، حيث طرد الوالى العثمانى ، وفصل مصر عن الدولة العثمانية ، واجتهد فى اصلاح القضاء والمالية ، وفتح اليمن والحجاز والشام ، ودخل فى مفاوضات ومحالفات مع البندقية وروسيا ، فاستقلال مصر ، وتوسعها ، وتعاملها مع الدول الأخرى دون وسيط ، يعنى أن هناك قومية مصرية ٠ وقد انهارت هذه الدولة التى كونها على بك

الكبير بمجرد خيانة آبى الذهب له ،ولكن شعور المصريين بقوميتهم لم يتبدد ؛ وفى فصول الكتاب الأخرى يوضح الدكتور صبرى الأحداث والعوامل التى ساعدت على نشوء القومية المصرية فى عصر الحملة الفرنسية ثم فى عهد محمد على ... ويوضح بالوثائق النهضة العمرانية ونشوء الرأى العام والمواقف التى كان يتطلع فيها المصريون الى التطور والتحرر والترقى .

ويقول صاحب الترجمة « ومن الجدير بالذكر أن لا نجير المؤرخ الأمريكى قد فضلها على كتاب بلانت « تاريخ الاحتلال الانجليزى » كما فضلها أيضا على كتات برودلى « كيف دافعنا عن عرابى واصحابه » (١)

ونال شهاده دكتوراه الدولة فى الآداب مع الشرف من السربون عام ١٩٢٤ على هذه الدراسة . وهى غير دكتوراه الجامعة كالتى حصل عليها الدكتور طه حسين . وكان بذلك أول مصرى حاز هذه الشهادة ، وأول من فتح الباب للمصريين لنيلها وهذه الشهادة لابد لنيلها من تأدية امتحان الليسانس في الآدب الفرنسى ولا تعتبر أى شهادة مصرية معادلة لليسانس ، والشهادة المعادلة لها فى انجلترا هى البكالريوس فى الآداب مع مرتبة الشرف

(١) مجلة بناء الوطن نوفمبر ١٩٦٥ .

الممتــازة ، وعلى ذلك فحين الحصــول على هذه المعــادلة الأخيرة مثلا ينص فى شهادة دكتوراه الدولة فى الآداب على أن الطالب حصل على الدكتوراه بالمعادلة ٠

وفى حــديث لى معه قال مســتعيدا ذكــرياته : أن الدكتور الديوانى عمل المستحيل لكى يعتبر شهادة دار العلوم معادلة لشهادة الليسانس وبذلك أعفى خريجى دار العلوم من تأدية امتحان الليسانس والحصول على الدكتوراه ، ولكن هــذه الدكتوراه من غير عنــاء كبير ليست هى الدكتوراه الفعلية ٠

***

ثم عــاد الى مصر عام ١٩٢٤ حيث عمل مدرســا للتاريخ فى مدرســة المعلمين العليــا ، ثم فى الجامعــة المصرية حين افتتاحها ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ ٠ ثم نقل الى دار العلوم عامى ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ ، وفى عام ١٩٢٦ أصدر كتاب « تاريخ مصر الحــديث من محمد على الى اليوم » وهذا الكتاب موجز لرسالة الدكتوراه ، وقد قرر على المدارس الثانوية آنذاك ، وهو أول كتاب وضح وجهة النظر فيما يتعلق بالثورة العرابية وما اليها ، وكان آخر كتاب مقرر قبل كتابه هو الذى وضعه سليم حسن ومستر سفيدج ٠ وكان يتضمن طعنا فى الثور العرابية ٠

الممتـــازة ، وعلى ذلك فحين الحصـــول على هذه المعـــادلة الأخيرة مثلا ينص فى شهادة دكتوراه الدولة فى الآداب على أن الطالب حصل على الدكتوراه بالمعادلة ٠

وفى حـــديث لى معه قال مســتعيدا ذكـــرياته : أن الدكتور الديوانى عمل المستحيل لكى يعتبر شهادة دار العلوم معادلة لشهادة الليسانس وبذلك أعفى خريجى دار العلوم من تأدية امتحان الليسانس والحصول على الدكتوراه ، ولكن هـــذه الدكتوراه من غير عنـــاء كبير ليست هى الدكتوراه الفعلية ٠

***

ثم عـــاد الى مصر عام ١٩٢٤ حيث عمل مدرســـا للتاريخ فى مدرســـة المعلمين العليـــا ، ثم فى الجامعـــة المصرية حين افتتاحها ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ ٠ ثم نقل الى دار العلوم عامى ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ ، وفى عام ١٩٢٦ أصدر كتاب « تاريخ مصر الحـــديث من محمد على الى اليوم » وهذا الكتاب موجز لرسالة الدكتوراه ، وقد قرر على المدارس الثانوية آنذاك ، وهو أول كتاب وضح وجهة النظر فيما يتعلق بالثورة العرابية وما اليها ، وكان آخر كتاب مقرر قبل كتابه هو الذى وضعه سليم حسن ومستر سفيدج ٠ وكان يتضمن طعنا فى الثور العرابية ٠

ومما هو قمين بالذكر ونحن نتحدث عن هذا الكتاب الذى ساهم فى تصحيح المفهوم الذى كان سائدا عن الثورة العرابية ، أن عرابيا كان متهما بالخيانة ، ومن يقلب فى الجرائد القديمة يجد أن زعيم الثورة العرابية قد هوجم من مصطفى كامل وأحمد شوقى وخليل مطران وغيرهم .

وفى عام ١٩٢٧ أعاد طبع كتابه « تاريخ مصر الحديث من محمد على الى اليوم » بعنوان جديد هو « تاريخ العصر الحديث . مصر ـ الولايات المتحدة ـ الاستعمار الأوربى » وفى هذا الكتاب الأخير أضاف فصلين كبيرين أحدهما عن الولايات المتحدة ، وتناول فيه تاريخها منذ الاستعمار الانجليزى حتى أصبحت دولة كبرى تتدخل فى « مسائل الشرق البعيد والصين وتبسط نفوذها السياسى فى العالم » وثانيهما عن الاستعمار الأوربى لأفريقيا وآسيا ، وتحدث عن الاستعمار الانجليزى والفرنسى والروسى والألمانى ، وقد عرض كل هذه الأحداث بعقل مطبوع على التفكير التاريخي يحلل ويفلسف ويربط بين الأسباب والنتائج .

وفى نفس هذا العام أصدر كتابه «أدب وتاريخ»

ومما هو قمين بالذكر ونحن نتحدث عن هذا الكتاب الذى ساهم فى تصحيح المفهوم الذى كان سائدا عن الثورة العرابية ، أن عرابيا كان متهما بالخيانة ، ومن يقلب فى الجرائد القديمة يجد أن زعيم الثورة العرابية قد هوجم من مصطفى كامل وأحمد شوقى وخليل مطران وغيرهم .

وفى عام ١٩٢٧ أعاد طبع كتابه « تاريخ مصر الحديث من محمد على الى اليوم » بعنوان جديد هو « تاريخ العصر الحديث . مصر ــ الولايات المتحدة ــ الاستعمار الأوربى » وفى هذا الكتاب الأخير أضاف فصلين كبيرين أحدهما عن الولايات المتحدة ، وتناول فيه تاريخها منذ الاستعمار الانجليزى حتى أصبحت دولة كبرى تتدخل فى « مسائل الشرق البعيد والصين وتبسط نفوذها السياسى فى العالم » وثانيهما عن الاستعمار الأوربى لأفريقيا وآسيا ، وتحدث عن الاستعمار الانجليزى والفرنسى والروسى والألمانى ، وقد عرض كل هذه الأحداث بعقل مطبوع على التفكير التاريخي يحلل ويفلسف ويربط بين الأسباب والنتائج .

وفى نفس هذا العام أصدر كتابه «أدب وتاريخ»

وضم فيه كتابه عن البارودى واسماعيل صبرى ، والحركة الاستقلالية فى ايطاليا التى أشرنا اليها ، وألحق بها عدة فصول ومقالات فى النقد والأدب سبق نشرها فى الجرائد ٠

وقبل أن ينتهى هذا العام (١٩٢٧) كان كتابه «الثورة الفرنسية ونابليون» فى يد القراء ، وعرض فيه المراحل المختلفة التى مرت بها الثورة كما وضح سياسة فرنسا فى عهد الامبراطور نابليون ، وأطلع القراء على دور كبير فى حياة الأمة الفرنسية وهو خلاصة قراءاته لمجلدات كثيرة كتبت عن هذه الفترة ، وهذا الكتاب كما رمى اليه هو «تلخيص حوادث الثورة والامبراطورية تلخيصا شاملا تزيده الصور الفنية أو التاريخية العديدة وضوحا وحياة» وعلى كل خال فطريقة العرض رأى ٠

وقد صدرت هذه الكتب تحمل اسمه مقرونا بهذه الكلمات :

«الحائز لدكتوراه الدولة فى الآداب مع الشرف من جامعة السربون» ٠

وضم فيه كتابه عن البارودى واسماعيل صبرى ، والحركة الاستقلالية فى ايطاليا التى أشرنا اليها ، وألحق بها عدة فصول ومقالات فى النقد والأدب سبق نشرها فى الجرائد •

وقبل أن ينتهى هذا العام (١٩٢٧) كان كتابه «الثورة الفرنسية ونابليون» فى يد القراء ، وعرض فيه المراحل المختلفة التى مرت بها الثورة كما وضح سياسة فرنسا فى عهد الامبراطور نابليون ، وأطلع القراء على دور كبير فى حياة الأمة الفرنسية وهو خلاصة قراءاته لمجلدات كثيرة كتبت عن هذه الفترة ، وهذا الكتاب كما رمى اليه هو «تلخيص حوادث الثورة والامبراطورية تلخيصا شاملا تزيده الصور الفنية أو التاريخية العديدة وضوحا وحياة» وعلى كل حال فطريقة العرض رأى •

وقد صدرت هذه الكتب تحمل اسمه مقرونا بهذه الكلمات :

«الحائز لدكتوراه الدولة فى الآداب مع الشرف من جامعة السربون» •

السربونى

وفى هــذه الفترة عــرف باسم «السوربونى» فى الأوساط الثقافية نسبة الى جامعة السربون «ولقد أطلق عليه بعض اصدقائه لقب «السوربونى» من باب الدعابة والســخرية وقد غلب عليه هــذا اللقب فكان النــاس يعرفونه بالسربونى . وفى أوائل الحرب العالمية الثانية صدر قرار بتعيينه مديرا للمطبوعات وجاء اسمه فى القرار مقرونا بلقب السوربونى وتنبه الموظف المختص الى أن هذا اللقب مستعار فأعاد كتابة القــرار وذكر الاسم هكذا «الدكتور محمد صبرى» (١) .

---

(١) كامل الشناوى . الجمهورية فى ١٩٦١/١١/٩ .

السربونى

وفى هــذه الفترة عــرف باسم «السوربونى» فى الأوساط الثقافية نسبة الى جامعة السربون «ولقد أطلق عليه بعض اصدقائه لقب «السوربونى» من باب الدعابة والســخرية وقد غلب عليه هــذا اللقب فكان النــاس يعرفونه بالسربونى . وفى أوائل الحرب العالمية الثانية صدر قرار بتعيينه مديرا للمطبوعات وجاء اسمه فى القرار مقرونا بلقب السوربونى وتنبه الموظف المختص الى أن هذا اللقب مستعار فأعاد كتابة القــرار وذكر الاسم هكذا «الدكتور محمد صبرى» (١) .

---

(١) كامل الشناوى . الجمهورية فى ١٩٦١/١١/٩ .

تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر

كان الملك فؤاد قد كلف المؤرخ الفـرنسى هانوتو وبعض الأوربيين الآخـرين من أمثـال شـارل رو ، وكرابيتس ، ودوان ، بكتابة تاريخ مصر فى القـرن التاسع عشر ، وأدرك صاحبنا أن هؤلاء الأجانب لن يكونوا مخلصين فى كتاباتهم التاريخية . وجبرائيل هانوتو هذا له عدة مقالات طعن فيها الاسلام مما دفع الشيخ محمد عبده الى الرد عليه بمقالات نشرتها المؤيد فى ابريل ١٩٠٠ . فليس من المعقول لرجل كهذا أنه سيكتب تاريخ مصر الوطنى بأمانة ووفاء .

لذلك اختمرت فى ذهنه فكرة كتابة تاريخ مصر الحديث فى القرن التاسع عشر فى عدة مجلدات ، ولكن كيف السبيل والطريق شاق وطويل ؟.

أخذ يعد مكتبة ضخمة يحشد فيهـا المراجع التى تناولت تاريخ مصر فى العصر الحديث وهكذا بدأ .

درس هذه الكتب التى جمعها ، والتفت ذهنه الى شىء هام يعتبر عنصرا آساسيا فى الدراسات التاريخية، ذلك هو رجـوعه الى الوثائق الموجـودة فى دار الكتب بالقلعة ومحفوظات سراى عابدين التى كانت مكتوبة باللغـة التركية ، وكان يعينه فى الترجمة صـديقه الاستاذ سـامى السراج . ثم رحل الى أوربا على نفقته الخاصة ، وتنقل بين لندره وفينا وباريس ، حيث تردد على سـجلات وزارات الخـارجية ، يفتش عن الوثائق المفيدة التى لم يسبق نشرها ، وكم كان الجهد الذى بذل فى هذا العمل وخاصة اذا عرفنا أن هذه الوثائق أكوام هائلة مكتوبة بخط اليد ، وبعد أن استجمع المواد اللازمة لعمله ، أخذ يعد الكتاب الأول «الامبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية» الذى ظهر فى أوربا باللغة الفرنسية عام ١٩٣٠ فى مجلد ضخم يضم ٦٠٠ صفحة من الحجم الكبير مدعم بالوثائق الجديدة التى نشرت لأول مرة مثل الرسـائل المتبادلة بين محمد على وابنه ابراهيم ، وهذه الرسائل كانت من بين محفوظات عابدين ولم تجمع وتنشر الى اليوم ، ومازالت باللغة التركية .

والمسألة الشرقية التى تناولها الدكتور صبرى هى ـ فى عرف كتاب التاريخ والسياسة ـ مسألة النزاع

الذى قام بين الدول الأوربية (انجلترا والنمسا وروسيا على وجه الخصوص) من جهة ، وبين الدولة العثمانية من جهة أخرى على ممتلكات الدولة العلية فى أوربا والشرق ، وهى مسألة معقدة مركبة يدخل فيها الدين والأطماع الاستعمارية جنبا الى جنب ، وقد عملت الدول الأوربية على احباط نفوذ العثمانيين بأثارة الفتن ضدهم ، وتدبير خطط مطاردتهم من أوربا ، وقد دخلت المسألة الشرقية فى أطوار كثيرة · حتى أن بعض الذين تناولوا هذه القضية عرفوها على هذا النحو «انها مسألة النزاع القائم بين انجلترا وبين بقية دول أوربا بما فيها الدولة العلية» (١) ومن محاور هذه المسألة فى القرن التاسع عشر الذى يعنينا ، حرب اليونان ، ومسألة الشام بين مصر والباب العالى ، وحرب القرم ، وماجرى حول هذه المسائل المتشابكة من مؤامرات ومؤتمرات ، ومعاهدات ومراسلات الى آخر هذه الموضوعات الشائكة · هذا تلميح شديد الاختصار الى المسألة الشرقية التى شغلت عديدا من رجال التاريخ والسياسة ·

وقد وضح السربونى دور مصر ومحمد على فى

---

(١) المسألة الشرقية تاليف مصطفى كامل الطبعة الثانية ١٩٠٩ ص ٢٩ ·

هذه المسألة . وفضح السياسة الانجليزية ، سياسة الاضعاف والتحطيم المنظم نحو مصر منذ ولاية محمد على لغاية معاهدة لندن فى سنة ١٨٤٠ م ٠

وفى عام ١٨٣٣ أصدر الجزء الثانى من كتابه التاريخى «الامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل والتدخل الانجليزى الفرنسى» فى ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير مثل سالفه ، واعتمد فيه على وثائق مستقاة من سجلات القاهرة ولندن وباريس وفيينا ، وتناول فيه مصر ـ السودان ـ الصومال ـ هرر ـ مديرية خط الاستواء ـ الابنورو وأوغنده ٠

وبالرغم مما فى هذين الكتابين من قسوة على السياسة الاستعمارية الانجليزية والفرنسية ـ حيث قذفهما وأصاب مرماهما ـ فقد كان العلماء الانجليز والفرنسيون وغيرهم من أكثر الناس تقديرا له ، حيث أهدوا اليه مديحا وافرا ، وأجزلوا من العناية قسمه ، فعن كتاب عصر محمد على كتبت مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن المجلد السادس بقلم هنرى دوديل «لاشك أن المؤلف قد اضطر الى عمل مجهود ضخم لتأليف هذا الكتاب الكبير ، وقد انتفع بعدد لايحصى من الوثائق والمستندات المستخرجة من مصادر متنوعة جدا وقد يكثر

من ذكرها باسهاب ولكن بفن» كما قال عنه جورج دوان في كتابه حرب الشام الذى ظهر عام ١٩٣١ : «على أن التاريخ العام لذلك العصر قد كتبه الدكتور صبرى ٠٠ بأسلوب يدل على نبوغ يطيب لنا أن ننحنى له اجلالا» ودوان هذا من كبار المؤرخين عن عصر محمد على وله فى هذا الموضوع عدة كتب ٠ كما أشادت مجلة الأدب المستشرقة التى تصدر فى ليبزج عام ١٩٣١ بقلم هازانكليفر الاستاذ بجامعة جيتجن ومجلة ريفى بليه فى باريس فى أغسطس ١٩٣١ بقلم بول فابل ، ومجلة الجمعية الآسيوية فى لندن فى ينساير ١٩٣٢ بقلم الكولونيل «الجود» ٠

أما كتابه عن عصر اسماعيل فقد أثار ضجة فى الأوساط العلمية الأوربية فقالت مجلة الدراسات التاريخية بباريس عدد يولية ١٩٣٤ : «هذا كتاب رائع جدا مدعم بمستندات رصينة معظمها لم يسبق نشره ، وهو يبحث فى عصر هام من تاريخ مصر والتوغل الأوربى فى أفريقيا ، وهو ليس تاريخا سياسيا كما يصفه المؤلف فحسب بل تاريخا اقتصاديا واستعماريا يجدد فى نواح كثيرة موضوعا كنا لانعرفه حق المعرفة ٠٠٠ وقد بانت مسألة قناة السويس فى جميع بواطنها الخافية ٠ وقالت

من ذكرها باسهاب ولكن بفن» كما قال عنه جورج دوان في كتابه حرب الشام الذى ظهر عام ۱۹۳۱ : «على أن التاريخ العام لذلك العصر قد كتبه الدكتور صبرى ٠٠ بأسلوب يدل على نبوغ يطيب لنا أن ننحنى له اجلالا» ودوان هذا من كبار المؤرخين عن عصر محمد على وله فى هذا الموضوع عدة كتب ٠ كما أشادت مجلة الأدب المستشرقة التى تصدر فى ليبزج عام ۱۹۳۱ بقلم هازانكليفر الاستاذ بجامعة جيتجن ومجلة ريفى بليه فى باريس فى أغسطس ۱۹۳۱ بقلم بول فابل ، ومجلة الجمعية الآسيوية فى لندن فى يناير ۱۹۳۲ بقلم الكولونيل «الجود» ٠

أما كتابه عن عصر اسماعيل فقد أثار ضجة فى الأوساط العلمية الأوربية فقالت مجلة الدراسات التاريخية بباريس عدد يولية ١٩٣٤ : «هذا كتاب رائع جدا مدعم بمستندات رصينة معظمها لم يسبق نشره ، وهو يبحث فى عصر هام من تاريخ مصر والتوغل الأوربى فى أفريقيا ، وهو ليس تاريخا سياسيا كما يصفه المؤلف فحسب بل تاريخا اقتصاديا واستعماريا يجدد فى نواح كثيرة موضوعا كنا لانعرفه حق المعرفة ٠٠٠ وقد بانت مسألة قناة السويس فى جميع بواطنها الخافية ٠ وقالت

مجلة بوليبليون الفرنسية عام ١٩٣٢ «ان هذا الكتاب ليس أقل من سابقه ، وهــو يضفى على صــاحبه أكبر الفخــر» (١) وقد تابعت الأوســاط العلمية الاشادة والتعليق على هذاالكتاب فكتبت عنه مجلةالعالم الاسلامى الانجليزية ومجلة مدرسة العلوم الشرقية بجامعة لندن ومجلة العلوم الدينية فى جامعة استراسبورج ومجلة الاللستراسيون الفرنسية والمجلة التاريخية الأمريكية بقلم هوسكنز الاستاذ بجامعة نفتس (٢) •

وعن أسلوب الدكتور صبرى باللغة الفرنسية تقول مجــلة ريفى بليــه فى باريس فى أغســطس ١٩٣١ «••• وما أعظــم آمانة المؤلف العلميــة فى التعليق والشرح ، وما أجمــل رصــانة أسلوبه وهو ماسيتبينه القارىء نفسه حين يطالع ذلك الكتاب العظيم» •

وقد تعرضت هذه المجلات لهذين الكتابين بالنقد بين الحين والآخر الى جانب الثناء وقد أخبرنى الدكتور صبرى بأنه استفاد كثيرا من كل مانشر من نقد لهــذين العملين ، وعلى كل حال فقــد أعلنت هــذه الدراسات نجحه ، وبعد صيته ، فاستطار ذكره ، وعــلا قدره ،

---

(١) أدب وتاريخ واجتماع •

(٢) المصدر السابق •

واحتل المكانة التى يستحقها عندما آفاضت عليه مجدا سما به الى محل لايطاول ٠

التأليف باللغات الأجنبية :

ومن المتعارف عليه في أوربا أن كل من يكتب بحثا يجب أن يكتبه باحدى اللغات الثلاثة الانجليزية والفرنسية والألمانية ، باعتبارها اللغات العلمية الوحيدة ، فالسويد والنرويج يكتبان غالبا أبحاثهم بالانجليزية ، ورومانيا وبولندا بالفرنسية ، والاتحاد السوفيتى ينشر مؤلفات كبار أدبائه وعلمائه باللغات الثلاث العالمية ، وهناك سبب آخر فيما يختص بالدكتور صبرى للكتابة بلغة أجنبية ، وهو آن غالبية مصادر تاريخنا من كتب ووثائق مكتوبة أو مخطوطة بلغات أجنبية ، فاذا تعرضنا لتحليل هذه المصادر ونقدها لاظهار الحقيقة ، فيجب أن يكون ذلك فى متناول المؤرخين الأجانب أولا ٠ وبذلك تؤدى الكتب التى يكتبها الشرقيون باللغات الأجنبية رسالتها من الناحية العلمية، وتخدم فى النهاية القضية الوطنية ، عندما تكشف للآخرين وجهة النظر القومية ، ومما لاشك فيه آن هذه الكتب تصحح المعلومات الخاطئة التى يروجها الكتاب

الأجانب فى كتبهم عنا ، هذا بعض فوائد هذه الكتب ، فكأن هذه المؤلفات سفارات لنا فى الخارج ، ويمكن بعد أن تستقر كتبنا وتحتل مكانتها العلمية أن تترجم بعد ذلك الى العربية ·

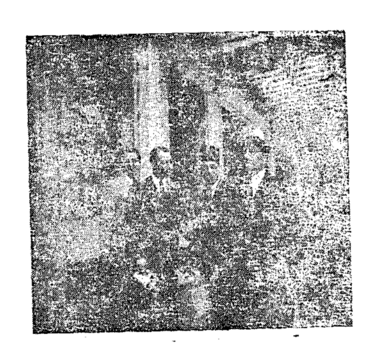
ولم ينفرد الدكتور صبرى وحده بنشر مؤلفـــاته بلغات أجنبية ، فقد أرخ كل من شفيق غربال ، ومحمد رفعت لمصر بالانجليزية ·

***

وقد كلفته تنقلاته بين العواصم الأوربية واقامته فيها فى الفترة من ١٩٢٨ ــ ١٩٣٢ التى أتم فيها هذين العملين مايقدر بأربعة آلاف جنيه ، وعندماتقدم بعريضة استئناف لتعويضه عن فترة اقامته فى أوربا لم يرد له فى عام ١٩٤٧ الا مبلغ ألف جنيه فى الوقت الذى كلفت فيه بحوث هانوتو وجماعته خزينة الدولة مبالغ طائلة رغم ماجاء فيها من تشــويه ومغالطات ، وقد اعترفت وزارة المعارف فى كتاب لها بتاريخ ١٩ يوليه ١٩٤٥ بأن هذه الكتب «رفعت من شأن مصر فى الخارج» ·

فى جنيف :

عاد بعد نشر الجـزء الأول والثـانى من تاريخ الامبراطورية المصرية الى أرض الوطن وبدأ يفكر فى اعداد الجزء الثالث من موسـوعته التـاريخية ، وكان موضوعه تقسيم الامبراطـورية المصرية وهو الذى لم يصـدر ، وان كان كتـابه «الامبراطورية السودانية» يعتبر جزءا من هذا الكتاب · وبعد عناء كبير حصل على وظيفة مدير البعثة التعليمية المصرية فى جنيف ، وهو منصب أقل من قيمته العلمية ، وتسلم عمله فى ديسمبر ١٩٣٤ وظل حتى يوليه ١٩٣٧ ، وفى هذه الفترة أخذ يدرس الفنـون الجميلة والتردد على المتاحف ، وشراء الصور بعد التحقق منها ، وكان مغرما بالمدرسة الفرنسية والهولندية فى القرن الثامن عشر ، واقتنى دوائر معارف بكاملها فى الفنون ، اذ كان عنده ميل طبيعى الى الفن جمعه ودراسته ، ومصدر ذلك ناشىء من قراءته للأدب العربى والشعر على وجه الخصوص ، وقد كان شاعرا ، فساعده ذلك على صقل ذوقه الفنى ، وان جميع الآداب المختلفة والفنون واحدة فى جوهرها ، وحسن الذوق أو التذوق هو الذى يسوقنا الى التعريف بذلك الجوهر ، وقد عاش بعد ذلك يبتاع التماثيل ، ويجمع القطع الفنية



الدكتور محمد صبرى

مع عبد الفتاح عسل بك قنصل مصر فى جنيف عام ١٩٣٤



الدكتور صبرى فى مؤتمر التعليم الدولى فى جنيف عام ١٩٣٥

النادرة فى رحلة مستديمة ، وفى هذا يجد أكبر عزاء له ، وخير مهرب من البؤس الذى يعانيه الكاتب فى مجتمعه ، ومما هو جدير بالذكر أن هذه الدراسة أكسبته خبرة فنية كبيرة ظهرت آثارها فى كتب «الشوامخ» كما سنرى ٠

وفى أثناء هذه الفترة الهادئة من حياته لم ينشر الا دراسة عن نوبار باشا فى دائرة المعارف الاسلامية التى تصدر فى هولندا باللغة الفرنسية ، وأعد بحثا آخر عن الحركة الوطنية الا أن المشرف الانجليزى فنسنك اعترض على البحث ٠

مصر فى أفريقيا الشرقية :

لم تمض شهور على مجيئه من آوربا حتى أصدر كتابه «مصر فى أفريقيا الشرقية هرر ـ زيلع وبربره» باللغة العربية ، وهذا البحث مأخوذ من كتاب تاريخ الامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل ٠

والكتاب رغم صغر حجمه ، جليل الفائدة ، لأنه

وضح دور مصر في نشر الحضارة ومحاربة الفوضى والبدع في هذه البلاد ، فقد حارب رؤوف باشا فاتح هرر الأمية في قبائل عيسى الصومالية ببث تعاليم الاسلام الصحيحة ، وبين ماقام به المصريون من تعبيد الطرق وانشاء محطات مزودة بالماء ، واقامة الصناعات الخفيفة ، وكان الحاكم المصرى وكبار الموظفين المصريين يرتدون ملابس مصنوعة ويسيرون فى المدينة ليقتدى بها السكان فيلبسون الملابس المفصلة بدلا من الأثواب أو الشقق التى كانوا يتلفعون بها ، وحارب المصريون تعاطى البوظة وغيرها من المخدرات التى كانت تفتك بالجهاز العصبى ، وأوجد الحاكم المصرى نظام القضاء ، وطاردوا المتطببين والمشعوذين ، «وقد وجد لأول مرة فى هرر ادارة منظمة وبونيس وجيش وجمرك وقوانين ولوائح . فحتم المصريون اعلان الزواج وتسجيل عقود البيع الخاصة بالعقار والبيوت والبساتين ، وأنشئت مصلحة للصحة ، ومستشفى كبير . وصدرت أوامر تنص على عدم خروج أى جثة من أبواب المدينة دون اعلان السلطات المختصة» وبين على وجه الدقة والتفصيل كيف عمل المصريون على تحضير البدو الرحل ، وتعليمهم الزراعة والاستقرار ، كما تم اكتشاف المناطق بين زيلع وهرر ، وبين تاجورا وبحيرة أوسا ، ومناطق نهر الجب

وتسمايو ، وقد وضعت الخرائط الدقيقة لتلك الأماكن ·

وزود المؤلف كتابه بعديد من الصور التى تبين العمران الذى شيده المصريون ، ووقف على نتيجة هامة تلك هى أن العمران المصرى فى هرر وزيلع وبربره تفوق على العمران المصرى الأوربى فى السودان رغم قصر مدة حكم المصريين لأفريقيا الشرقية ، وطول أمد الحكم المصرى الاوربى للسودان ، ذلك أن مافعلته مصر فى هذه الأقطار ، لم يبق على السطح بل ذهب الى الأعماق ، وتغلغل الدكتور صبرى فى دراسة تلك البيئات بين ماكان عليه السكان قبل الفتح المصرى ، وما صاروا اليه أثناءه ·

ودعم المترجم له دور مصر الحضارى فى شرق أفريقيا باعتراف الأوربيين مثل بوليشكا ، وانطوان سيكى ، وبريكيتى ، وهلد برانت ، وأثبت نصوص وثائق رسمية لممثلى أوربا فى الشرق سجلوا فيها ماأحدثه الحكم المصرى مثل حمس بلير ممثل انجلترا فى عدن ، وشيران قنصل فرنسا وغيرهما ·

وقد اعتمد مؤرخنا فى هذه الدراسة على مستندات سراى عابدين المحفوظة ، ووثائق وزارة الخارجية

الانجليزية المكتوبة والمخطوطة ، وعلى كتب أوربية كثيرة مثل كتاب ريتشارد بوتون «الخطوات الأولى فى أفريقيا الشرقية» وكتاب رالف «الصومال الانجليزى» وكتاب ف٠ل٠ جيمس «غير المعلوم فى القرن الأفريقى» وغيرها ٠

وفى حديث لى مع الدكتور صبرى قال : انه من المعروف أن الحزب الوطنى كان دائما يطالب بهرر وزيلع وبربره ، ولكنه كان يجهل كل شىء عن هذه البلاد ، والدليل على ذلك أنه لم يكن موجودا فى ذلك الوقت أية كتابة تاريخية لهاتيك البلاد مجتمعة في المصادر العربية جميعا والمصادر الافرنجية باستثناء هرر التى كتب عنها الألمان والطليان فى بعض أبحاثهم ويستطرد قائلا : ولكنى على آية حال لم أتمكن من استكمال دراستى الا بعد استقراء السجلات الفرنسية والانجليزية القديمة، ورغم أن الدكتور صبرى نفى أن هناك كتبا تاريخية عربية عن هذه البلاد الا أننى قرأت فصلا فى كتاب «الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث» لميخائيل شاروبيم المطبوع عام ١٨٩٨ جاء فيه ذكر تعدى العساكر الايطالية على مصوع واحتلالها عنوة فى الجزء الرابع ص ٣٧٠ ، وهناك كتابات متناثرة فى كتاب «حقائق

الأخبار عن دول البحار» لاسماعيل باشا سرهنك ٠ الا أنها نتف قليلة لاتشبع نهم الباحث ، ولاتقدم مادة مدروسة ، وقد ظهرت بعد كتاب د٠ صبرى هذا كتب كثيرة فى مصر حول هذا الموضوع ، وكان كتابه هو المرشد القوى لهؤلاء المؤلفين ، حتى الأجانب تأثروا بكتابه ٠

زواجـه

كثر تنقل الدكتور صبرى بين مصر وأوربا ، جيئة وذهوبا ، ماينتهى من دراسة أدبية حتى يبدأ فى بحث تاريخى ، ومضى الكثير من العمر فى هـذه الأسـفار ، وتلقى المعارف ، وتقديم الدراسات ، تجـاوز الرجـل الأربعين بكثير ومازال عزبا ، اجهـاد عقلى ، واجهاد جسمانى ، لقد انتهى الصـبا ونضـارته ، والشـباب وبضاضته ٠

ربما كان يتساءل ٠٠ هل ستمضى الحياة على هـذه الوتيرة ؟ مصر ٠٠ باريس ٠٠ جنيف ٠ قراءات ٠٠ لوحات ٠٠ مقالات ٠٠ مؤلفات !! ماذا يانفسى ألا تجدين رفيقا لك ؟ ماذا ياقلبى أليست هناك من تحنو عليك ، وتسرى عنك عذاب الوحدة والوحشة ؟ ماذا ياعقلى ألا يشغلك أى شىء آخر غير الفكر الجاد فى الأدب والتاريخ ؟ ماذا

يانفسى ألا تسمعين الا صوت الشعر موسيقى تصعد الى الاذن ، ألا تبصرين الا الاضواء والظلال فى اللوحات ألوانا تتراقص أمام العين ، أهـذا وذاك وماكان على شاكلتيهما هى كل لذات الحياة ؟ كم مضى من العمر .. وكم بقى منه ؟.. وماذا حققت فى كل هـذه السنين الماضية ، مجموعة من المقالات ، وحفنة من المؤلفات لم يقدرها الناس فى وطنى حق قدرها ..

ربما كان هذا أو مثله مادار بينه وبين نفسه فى نجوى صامتة ذات يوم من أيام عـام ١٩٣٦ وهـو فى جنيف .

***

فى يوم من أيام عام ١٩١٤ ، وعندما كان صبرى يعد كتابه «ذكرى الماضى» ومازال يذكر سلمى ــ أو من أطلق عليها سلمى ــ التى هجرته وتركته يلعق جـراح قلبه ، ولدت طفلة فى مدينة نوشاتل بالقرب من جنيف سميت سوزان ، نوشاتل هذه هى البلدة التى التقى فيها القاص الفرنسى بلزاك مع حبيبته هاتسكا عام ١٨٣٣ والتى صارت زوجة له بعد ذلك ، فى نوشـاتل تلقت سوزان قدرا من التعليم العام لمدة ثمانى سـنوات ، ثم انتقلت الى مدرسة تجارية لمدة عامين ، وفى عام ١٩٣٢

غادرت نوشاتل هى وأسرتها الى جنيف ، وفى جنيف تجمع الحياة بين الشتيتين عن طريق اناس يعرفون صبرى ويعرفونها (١) ، ونظر كل منهما للآخر ، وأطال النظر، وتنشأ مع الوقت قصة حب بين الاثنين ٠٠ الحب حركة فى القلب ، وحركة فى الذهن تنمو تدريجيا ٠ هاهو الحب يشغل عقل هذا المفكر ٠٠ انه الآن لايفكر فى الاستعمار الانجلوفرنسى لأفريقيا ٠٠ انه يدبر لشىء آخر ٠٠ ومضى عام ١٩٣٦ ـ الذى تعارفا فيه ـ وأيضا عام ١٩٣٧ وأخذ كل منهما يذلل الصعاب التى تقف فى طريق زواجهما ، عارضت الاسرة السويسرية فى هذا الزواج ولكن سوزان تطمئنه بأن الاتفاق قريب ٠

وفى ربيع ١٩٣٨ طلبت الحكومة المصرية من صبرى أن يعود الى مصر ، فترك منصبه وذهب الى نيس فى جنوب فرنسا بعد حصوله على اجازة طويلة ، وتخلفت سوزان فى سويسرا بعد أن تم الاتفاق على كل شىء بينهما ، وفى أول أبريل ١٩٣٨ لحقت به فى نيس ، وفى الثالث من أبريل ١٩٣٨ تم زواجهما على الطريقة الاسلامية أمام شاهدين ، وفى ٣٠ يونيه ١٩٣٨ تم

---

(١) وافتنا السيدة سوزان من جنيف ببعض المعلومات عن زواجها من الدكتور صبرى عن طريق كريمتها ٠

توثيق الزواج فى قنصلية مصر الملكية فى مرسيليا ، ولما لم يصله راتبه الحكومى فقد بادر بالعودة الى مصر عام ١٩٣٩ ، وبقى فترة بلا وظيفة ، وأخيرا عين مديرا للمطبوعات المصرية ، واتخذ من فيلا فى حدائق القبة سكنا له ، زاره فيها الاستاذ محمد سيد كيلانى ووصفها لى بأنها كانت جميلة .

وأقامت معه سوزان فى هذا المسكن الأنيق ، وأنجب منها هدى التى كان يحبها كثيرا وماتت فى طفولتها ، وقد ظل يذكرها ويحتفظ بقفازها الأبيض فى درج مكتبه حتى موته ، ورزق أيضا اسماعيل وعلى ومنى .

وراح ينظم عشه ، ويدبر شئون مملكته الصغيرة ، ويزينها بألطف التحف ، واللوحات ، ويستشف من عبارات كتبها فى هذه الفترة أن السعادة كانت تظله وتشمله وترعاه ، وأن سوزان هى بهجته وسر هناءته يقول : «المرأة زينة الحياةوأنها مصدر وحى والهام» (١) وفى هذه الفترة التى قال فيها هذه العبارة أصدر فيها أجمل مؤلفاته «الشوامخ» مما يؤكد آنه كان يعيش عيشة راضية ، ويكتب فى المصرى بتاريخ

---

(١) الرأى العام فى ٤٥/٩/٢٧ و ص ٢٨٠ أدب وتاريخ واجتماع .

٢٤/٢/١٩٥٠ : «٠٠ وأعود الى المشى بين الأشجار التى تحيط بى وتحنو على كأسرتى» فالطبيعة الجميلة تحنو عليه فى الشتاء كأسرته ، ان هذه العبارات الرقيقة الحانية توضح الى أى مدى أشرقت آنوار الحب فى نفسه، وتغيرت طبيعة الزمن فى عينيه ٠ ولكن دوام الحال من المحال كما يقال ، فقد تبدلت طبائع النفوس ، ولاحت فى سماء حياته سحابة داكنة ، واكفهرت الأجواء من حوله ، وران على نفسه ألم فنجده بعد ذلك يقول : «اليوم لايدخل الربيع على نفسى كما كان يدخل عليها فى شبابى (١)» لم يعد يشعر بجمال الطبيعة وحنوها كما كان يشعر من قبل ٠

ان العلاقة بينه وبين سوزان داخلها اضطراب ، وأصابها وهن . وتباعدت وجهات نظرهما الى الأمور ، ولم تملأ الفجوة التى اتسعت بينهما ، فتم الانفصال فى نهاية الأمر عام ١٩٥١ ٠ وغادرت السيدة سوزان مصر الى جنيف بعد مايقرب من خمسة عشر عاما قضتها فى القاهرة ٠ وعاش الدكتور صبرى بعد ذلك فى جو يخلو من دفء المحبة ، وامتاع الزوجية ، ومؤانسة القرينة ، حياة صامتة ، وبرودة قاسية ، وفراغ نفسى تصعب

---

(١) المصرى ١٣/٤/١٩٥٠ و ص ٢٩٨ أدب وتاريخ واجتماع٠

مجاهدته ، ينظر حوله فلايجد الا الأولاد الصغار ، والكتب الجامدة المتراصة ، وتهتف فى نفسه الهواتف ، وتهجس فى قلبه الهواجس ، وتتمثل آمامه الأطياف وينادى .. سلمى .. سوزان ، فلايسمع صدى ، انه فى حدود الستين تزيد أو تقل قليلا ، ماذا يفعل ؟ لم يعد أمامه الا أن يقطع البقية الباقية من الطريق وحيدا .

الشوامخ

من هم الشوامخ :

يبدو من استعراض حياة المترجم له أن الكتابة التاريخية هى الغالبة على انتاجه حتى هذا التاريخ رغم أنه بدأ حياته الفكرية أديبا عنده الاستعداد المدخور للدراسة الأدبية ، وشاعرا استقام له النظم الصحيح ، والمعنى البليغ ، وقد قدمنا لمعا من غرر أبياته ، ونتفا من لطائف معانيه التى لاتنبو عن قبولها الأفهام ·

ولكننا نلحظ بعد هذا الطور من حياته ، أنه لوى مساره الى دراسة الشعراء القدامى ، والواقع أن هناك اتصالا وثيقا بين الأدب والتاريخ والفن ·

وتبدأ هذه الفترة منذ عام ١٩٤٤ حين راح يصدر سلسلة «الشوامخ» ·

ومما هو خليق بالذكر أن الأديب اللبنانى «فؤاد أفرام البستانى» سبق الدكتور صبرى فى كتابة سلسلة «الروائع» عن الأدباء القدامى والفرق بين السلسلتين ، أن سلسلة «الروائع» تناولت أكثر من ثلاثين شاعرا فى أكثر من عشرين جزءا صغيرا لايعدو الجزء أن يكون فى حجم كراسة ، أما مجموعة الشوامخ فانها أقل عددا فى دراسة الشعراء ، وأقل فى عدد الأجزاء ، الا أنها أغزر مادة . وأبين منهجا . وأكثر استيفاء ، وأعمق تحليلا ، وان كان لنا ملاحظة عليها فهى كثرة الاستطرادات فى شرح معانى الكلمات .

وفى محاولته هذه لدراسة البدايات الناضجة فى الشعر العربى التى قدمها وقربها وسهل ألفاظها ، طبع موهوب لتذوق الشعر ، وارتفاع نفسه الى نفس الشاعر، وادراك ما استغلق على الأذهان فهمه ،وربما يكون الدافع الى دراسة شعر الجاهليين ليس هو بعثه أو محاولة فهمه وانما «كما يدرس الأجانب اليونانية واللاتينية ، كذلك يجب أن ندرس الأدب الجاهلى ، أى أنه لابد من الرجوع الى النبع الصافى لأنه المصدر الوحيد لكل جديد» (١) .

استهل هذه السلسلة بكتابه عن امرىء القيس عام

---

(١) مجلة الكاتب عدد ديسمبر ١٩٦١ .

١٩٤٤ ، وكشف عن قدرة الشاعر على تصوير الحيوان ، وحياته وطباعه ، وقليل جدا من الشعراء والأدباء الذين تعرضوا لدراسة الحيوان فى الشعر الجاهلى · لاحظ الدارس أن كل جماعة من الحيوان تختار قائدا لها يقودها الى الماء وغيره يحميها من الصائد ، وهذه العادة توجد فى الدراسات الخاصة بالحيوان ، واعتمد فى هذا البحث على طريقة النقد البنائية التى تستند الى التحليل والتأمل والتعمق فى النص ، وتبين تراكيب البيت مثلا ومكوناته النفسية واللغوية ، ولعل د· صبرى سبق كثيرين فى ذكر اسم «البنائية» وتطبيق هذا المنهج ، وصرف نظره عن المحسنات البديعية ، والمصطلحات البلاغية واظهارها فى النص ، ولم يعد فى دراسته هذا أشعر بيت ، وهذا أمدح بيت ···

واعتنى صاحبنا بالأدب الجغرافى أو بهذا الأدب الذى يحدد معالم البيئة التى يعيش فيها الشاعر ، أو يحكى فيها جزءا من حياته ، وذكرياته عن نفسه أو عن حبيبته وصار هذا الشعر الذى اشتمل على تعيين بعض البلدان ، مرجعا لكتابة جغرافية بلاد العرب ، بل ان ذكر هذه الأماكن والمساكن من شأنه أن «يساعد على تصحيح أسماء بلدان كانت معروفة فى العصر العباسى ،

ولكنهـــا وردت مغـلوطة فى تـواريخ الطبرى وابن الأثير» (١) .

وفى نفس العام (١٩٤٤) أصدر الجزء الثانى من الشوامخ «الشعر الجاهلى أعـلامه وخصائصه» وهو من حيث الدراسة والمنهج مكمل للجزء الأول خصوصا وأن معظم الشعراء ترسموا أثر امرىء القيس ، ونحوا منحاه فى معظم شعرهم . ولايتفق د. صبرى مع د. طه حسين فى أن معظم الشعر الجاهلى منحول ، ولو سلمنا بهـذه النظرية لكانت معظم صور المتـاحف فى العـالم أجمع زائفة ، مع العلم أن الكثير من هذه الصور لاتحمل امضاء صاحبها ، وحتى مع وجود الامضـاءات يحـدث تشكك كثير فى صحتها ، والشـعر الجـاهلى رغم تسلل بعض الأبيات المنحولة فيه ، لايزال يحمل طابع الشخصية ، وقد بين صاحب الشوامخ أن الشعر العربى فيه للعاطفة الانسانية مجال ، وأثبت ذلك فى الجزءين الأولين من شوامخه ، وبين عطف امرىء القيس والهذليين وغيرهم على بؤس الحيوان . والشعر الجاهلى يمتاز بالغنائية ، وتحليقه ، وروعة تعبيره ، والذى لايقربه كثيرا الى قراء العصور المتأخرة هو خشونة اللغة فى بعض الأحايين ،

(١) امرؤ القيس ص ٣٨ .

فى عصر كان عصر بداوة ، ووصفه لبيئة تغيرت كالطلول ، وبعر الآرام ، وتصوير الوحوش والطيور الجارحة ، والابل مما لايوجد فى بيئتنا ، واحتلت المرأة فى العصر الجاهلى مكانة كبيرة فى الشعر ، وتمتعت بالحرية ، مما مكن الشعراء لكثرة معرفتهم بها ، والاختلاط معها ، من تحليل الحب فى جميع أشكاله ومظاهره تحليلا لم يترك شيئا للآخرين ، وتبعهم فى التحليل الشعراء الأول فى صدر الاسلام مثل عمر بن أبى ربيعة ، وقد بسط صفحات كثيرة فى توصيف وتوضيح هذه الأشياء كما استشفها من شعر الجاهليين .

ويمضى قدما فى هذه المجموعة فيصدر عام ١٩٤٦ الجزء الثالث من الشوامخ عن ذى الرمة ، وفى نفس العام ألحق به الجزء الرابع عن البحترى .

ومايلفت نظرنا فى دراسته عن ذى الرمة استفادته من اطلاعه الضخم على الأدب الفرنسى ، وهذا مكنه من اثبات موافقة آراء ذى الرمة الشاعر البدوى قبل ألف سنة لنظريات كثيرة لعلماء وفنانين فى العصر الحديث ومن هذا قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعتها
اذا جللته المظلمات الحنادس

فقد خص العذارى بالذكر لأن أجسامهن غضة بضة، وأعضاءهن ملتفة ، وثديهن فوالك ، وهذا يطابق ماقاله المثال رودان عن شباب المرأة الحقيقى ، وهو شباب البلوغ فى العذرة (١) .

ومن هذا ماقاله العلماء المحدثون من أن عينى الحرباء متحركتان مستقلة كلتاهما عن الأخرى والى ذلك يشير ذو الرمة .

وآض حرباء الفلاة الاصعر
كأنه ذو صيد أو أعور
من الحرور واحزال الحزور
فى الآل يخفى مرة ويظهر

آض : رجع ، الأصعر : ذو الصعر ، والصعر ميل فى الوجه أو فى أحد الشقين أو داء فى البعير . الآل السراب . الحزور . الربى ، واحزال : ارتفع .

ودفاعه عن ذى الرمة لما عابه الشعراء القدامى كالفرزدق كثرة وصفه لأبوال الابل وأبعارها ، يكشف عن مدى معرفته بالفن التشكيلى واحاطته به ، فيرى أن ذا الرمة يصف الأشياء ويصورها على حقيقتها وطبيعتها

---

(١) ذو الرمة .

كما تظهر ، والشيء الحقير قد يكون جليلا فى عين المصور ، ويضرب مثلا : «هذا يذكرنا بما حدث للمصور الهولندى الحيوانى بول بوتير • فقد رسم صورة بديعة تمثل أبقارا فى الخلاء ، وفيها بقرة تبول فكل من رأى الصورة شاهد البقرة وماء البول يتساقط منها ، فعرفت الصورة بالبقرة التى تبول ، وكانت هذه الصورة قد عملت خصيصا للأميرة صولميز فأفهمتها بطانتها أنها لاتليق بها فما كان منها الا أن ردتها الى صاحبها ، وكان من حسن حظ الفنان أن بادر أخد الهواة المشهورين الى اقتنائها ، وهى اليوم فى أكبر متحف فى العاصمة الروسية» (١) •

وتظهر آثار الثقافة الأوربية فى هذا الكتاب من النماذج التى يعرضها ويوازن بينها ، وبين نماذج مشابهة لها فى الأدب العربى ، فمن المعروف ـ مثلا ـ أن ذا الرمة تغنى طيلة عمره بصقع من أصقاع الطبيعة، أرض الدهناء ، وقفافها ، وحيوانها ، وهو يشبه فى هذه الناحية بول جيجو الذى صور أرض منطقة فوكليز بصخورها ووهادها وجبالها ، وكان هيامه بصخورها ورمالها أكثر من هيامه بشجرها ونباتها ويقارن صبرى

---

(١) المصدر السابق •

بين بول جيجو وذى الرمة ، وبين صحراء الدهناء ومنطقة فوكليز و «وقد أولع المصورون الهولنديون فى القرن السابع عشر بتصوير الكثبان والهضاب الرملية المنتشرة بالقرب من السواحل . ولكن آين هذه الكثبان من كثبان الدهناء وجبالها وجمال آفاقها» (١) وهــذه المشابهات ليست مقصورة على ذى الرمة مع فنانى الغرب ، ولكن كل الدراســات التى قدمهــا د. صبرى ، وضــح فيها الموضوعات ذات الطابع المشترك ، والخصــائص الفنية المتشابهة ، وبين سبق الشعراء العرب فى تفهم حقائق الأشياء وتصوير ذلك فى شعرهم .

أما كتــابه عن «البحترى» فأهم مايقــال فيه أنه اكتشف أربعــة آلاف بيت من الشــعر ظلت مجهــولة ومحجوبة عن الدارسين ، وقد درس البحترى من خلال شعره المعلوم والمجهول ، فكان بهذا أشــمل وأكمل من الذين تناولوا البحترى من خــلال ماذاع من شــعره ، وحسبه هذا جديدا ، فاذا رام رائم دراسة البحترى فلابد أن يضع هذا الشعر المجهول فى اعتباره .

---

(١) المصدر السابق .

الصورة المقروءة والصورة المنظورة ـ الجمال هو الحقيقة :

وهذه المؤلفات ليست كتب تراجم تتغيا التعريف بهؤلاء الشعراء ، والكشف عن نقائصهم ومناقبهم ، بقدر ماهى دراسات تهدف الى ابراز قيمهم الفنية ، ومدى قدرتهم على التصوير الفنى للطبيعة التى عايشوها بكل شياتها ودقائقها ، لذلك فان هذه الأعمال تزخر بالأفكار الجمالية ، وتستند الى مبادىء الفن ، وهذا يوضح لنا ألمعيته التى ساعدته على التخلص من الطريقة التقليدية فى ترجمة الشعراء ، حيث يسهب الكتاب فى دراسة عصر الشاعر من كل جوانبه ، وكأنهم يترجمون للعصر وليس للشعراء ، وانما الترجمة الصحيحة أن يأخذ الكاتب من العصر ماله صلة بالشاعر ، ويترك الباقى للمؤرخين ولعلماء الاجتماع • وقد ألمح الدكتور صبرى فى هذه المؤلفات الى الأحداث التى تلقى أضواء هادية لفهم حياتهم وانتاجهم الفنى ، وأطنب فى تحليل الموضوعات الفنية حيث تجد بيت الشعر الى جانب لوحة تصويرية •

وفى بحثه عن ماهية الشعر اهتم بالكتابة عن التمثيل والتصوير •

والتصوير غير الوصف على حد تعبيره ، ف «التصوير

قوة نفاذة تحيط بالموضوع ، وتحدد بدقة من خطوطه البارزة الظاهرة وتصل من هـذه الخطوط الى جوهره الروحانى معا وتتغلغل فيهما» (١) .

وفى موضع آخر (٢) يقول : «التصـوير نوع من التذكير لأن تمثيل الشىء فى صورة أخرى غير صورته أو فى صورة جديدة من التعبير يذكرنا بما قد يغيب عنا من حقـائق تشتمل عليها الصـورة الأصلية ، لأن اعتبارنا مشاهدة هذه الحقائق جعل هذه الحقائق كأنها غائبة عنا ، أو جعل الحواس أو القـوة المدركة كأنهـا تبلدت ، وفقدت وعيها ، فالتصوير يشحذ قوة الذاكرة، وقوة الملاحظة والعقل المدرك» ومن خلال هذا المفهوم كشف فى وعى فنى الموضوعات الجمالية التى استغرقته ، وتأملها فى عمق ، ولم تكن مؤونة بحثـه فى الشـعر التصويرى المشاهدة العابرة ، أو النظرة العادية ، فوجه عنايته الى الحالة والهيئة جميعا ، وقد استلزم منه هذا التأمل العميق ، والنظر الطويل .

واذا كان دور الشاعر هـو تصـوير الطبيعة فى أشكالها المختلفة ، فان دور الناقد أو الدارس هو رؤية

---

(١) أدب وتاريخ واجتماع .

(٢) الشعر الجاهلى : أعلامه وخصائصه .

الطبيعة بحس الشاعر وخياله ، واستبصار مدى تصوير الشاعر لها .

والتصوير ليس مقصورا على الأشكال الجميلة ، والمشاهد البهيجة المستحبة فى الحياة ، وانما يتجه الى الجميل وغيره ، ومن ثم عكف صاحب الشوامخ فى دراساته على قصائد الجاهليين ، التى صوروا فيها طبيعتهم ، وماتشتمل عليه من مناظر خلابة وكريهة والتى تكتمل فيها عناصر التصوير حيث تبرز حالتها وهيئتها .

يقول معلقا على هذا البيت :

وجلدها من أطوم لايؤيسه
طلح بضاحية المتنين مهزول

«فاذا نظرنا الى هذا البيت بالحاسة الفنية التى كان يملكها أهل الجاهلية ظهر لنا الشعر فى ضوء جديد منزه عن كل سأم وملل ، وأصبح القراد وجلد الأطوم وماشاكلها من الموضوعات الضئيلة التى قد لايألفها الذوق موضوعات رفيعة يزينها الفن ويستوى بها الى علياته» (١) .

---

(١) الشوامخ ـ الجزء الثانى .

وهكذا لم يعد مثلا تصوير امرىء القيس للعقاب وهو يفترس صغار الطير والحيوان ليأكل قلوبها ، أو تصوير الحمر الوحشية وهى تطارد بعضها من الصور القبيحة المستكرهة التى تتعارض مع الجمال ، كما أن الشاعر لم يصور هذه المناظر بقصد الاساءة الى مشاعرنا، أو اثارة الرعب فينا ، وانما صور هذا بقصد استهوائنا والاعجاب بفنه .

فالشعر والحالة هذه لم تعد له موضوعات محددة ، بل ان الشاعر يصور الأشياء على حقيقتها وفى طبيعتها، وحتى دور الخيال يستند الى الواقع الماثل ، والحقيقة القائمة ، ويصبح تصوير الشعر دقيقا عندما يخلو من التكلف والتعمل ، وقد عقد السربونى فى كتابه «أدب وتاريخ واجتماع» فصلا كبيرا عن امرىء القيس وجوته، بين فيه وجه الشبه بين الشاعرين فى تصوير الحقيقة ، وكان يرى أن أروع أشعار أبى تمام هى الأبيات التى ترسم فيها الحقيقة ، وقصد فيها الواقع ، وتخلص من البديع والتكلف ، ولايعنى شعر الحقيقة انعدام الخيال والجمال ، ولكنه يعنى ذكر الأشياء فى حالتها الماثلة بلا مبالغة ممقوتة أو مرفوضة ، ويرد الطابع العالى فى شعر امرىء القيس الى «اتزانه واعتداله فى الجمع

بين سحر الخيال وسحر الحقيقة» (١) وهــذا هو سبب تفوق امرىء القيس على شعراء آخرين مثل علقمة وعبيد ابن الأبرص ، وغيرهم ويعلق على بيت امرىء القيس :

بقوله :

يضيء وجههـــــا لضجيعهـــا
كمصباح زيت في قناديل ذبال

«فجاء بصورة بسيطة سهلة نحبها لأنها تمثل الحقيقة التي نراها كل يوم» •

فكأن السربوني في كل هذه الملاحظات والتعليقات يربط بين شيئين هما : الحق والجمال • فالشعر الجيـــد هـــو الذي يلمس خصـــائص الحقيقة في تعبير جميل ، والتصوير الرائع هو الذي يصور الحقائق • وهل لنا أن نقول ان الجمال هو تصوير الحقيقة ؟•

واذا كان صاحب الشوامخ قد أبرز تصوير الشعراء للأشكال غير الجميلة ، فانه كدارس وناقد كان مدفوعا الى تناول المناظر الجميلة ، والمشاهد الرائعة • ومن ثم كان اهتمامه بتعيين الأبيات والقصائد التي صور فيها الشعراء الأشكال الفنية المتسمة بالجمال والسمو ، ومن يمعن النظر في كتابه عن البحتري ينعم بآرائه الجيدة،

---

(١) أدب وتاريخ واجتماع •

واستبصاره لدقائق الأشياء ، ومــدى اهتمامه بالأداء الفنى ، أما تعليقاته على الأبيات فان أقل مايقــال فيها انها بمثابة امتداد لها ٠

***

وقد اتسمت هذه الدراسات الأدبية النقدية وخاصة الشوامخ بسمة ميزتها عن سائر الكتب الحـديثة التى تناولت شعراءنا الأقدمين ، آلا وهى وضـع الأبيــات الشعرية الى جانب اللوحات التصويرية التى تشابهها عند الفنــانين الأوربيين ، فتســمع فن التنغيم ، وترى فن الترسيم والتجسيم والتلوين فى مكان واحــد ، ونرى البيت الشعرى يصافح الألواح التصويرية ويعانقها ، ويأنس الشعر الى الفن ، وتشعر فى بعض الأحيان أن الصورة الشعرية والصــورة الزيتية كزوجى الطــائر لايصلح أحدهما بغير الآخر ، خذ مثلا هذا البيت لأحد الشعراء الهذليين :

فتنــازلا وتواقفت خيــلاهما
وكلاهما بطــل اللقــاء مخــدع

فان هذا البيت الذى يصور لحظة اللقاء والشروع فى القتال يذكره بصورة للفنان الأسبانى سكويز والتى «تمثل استسلام بريدا وتتلخص فى أن المركيزاسبينولا

القائد الايطالى الذى كان فى خدمة الاسبانيين جاء يتسلم فى حضرة الجند الأسبانى الواقف خلفه عن يمين الناظر الى الصورة والجند الهولندى الواقف عن شماله ،مفاتيح مدينة بريدا الهولندية من يد أمير ناصو حاكم المدينة ، ويرى القائد والأمير وهما مترجلان فى وسط الصورة فى فرجة تفصل بين فريقى الجنــد المحتشد وخلف كل منهما جواد عبل الشوى جميل الهيكل والصورة ، وقد تواقف الخيــلان فى ســاعة التقائهما فــزاد تواقفهما ووجودهما من رهبة الموقف وجلاله ، ومن حسن المنظر وروعته» (١) .

فهذه الصورة وغيرها من الصور يعرضها ويحاورها وكأنها نواطق بما يدور فى نفس مصورها ، ويكاد يعبر بقوة بداهته عن حركة الأشياء فيها ، وهو هنا يفحص الصورة ويترجم جزئياتها وألوانهــا الى كلمــات حية واصفة .

وليس معنى هذا أن البيت يطابق الصورة ، وأن الصورة تطابق البيت ، ولا أثر لبيئة الشاعر فى شعره، ولا تأثير لبيئة الفنان فى لوحته ، ليس هذا هو المقصود، ولكن مايعنيه ، ويذهب اليه أن التأمل الجمالى للبيت ،

---

(١) الجزء الثانى ــ الشوامخ .

والحوار الفنى مع الصــورة ، والاطــار النقدى الذى يضعهما فيه ، تقوده وتقودنا الى معــرفة مجموعة من العلاقات تربط بينهما ، وتوضح ماهيــة كل منهما ، والقاسم المشترك فيهما ، أو يريد أن يقول أن هناك علاقة قوية بين خيال الشاعر ، وتصوير الرسام ٠

ويلاحظ أن وصفه للصور الفنية يتضمن ابراز العناصر الواقعية ، وتوضيح جانب الحقيقة فى اللوحات الزيتية ٠

ولكن هل كل مهمة د ٠ صبرى هى وضع الأبيات الى جوار اشباهها من اللوحات ؟ كلا انه ينفعل ويصف أحاسيسه تجاهها ، ويوصل عواطفه لنا وكأن مايخالجه هو مايخالج الشاعر الذى نظم القصيدة أو الفنان الذى رسم اللوحة ، ومن ثم يتحقق تواصل بيننا وبينه وبين الفن سواء كان شعرا أو رسما ٠ وهذا يعنى أيضا أن الربط بين البيت والصورة على هذا النحو يعمق الادراك الحسى والذهنى معا ٠

وعلى هذا النسق شرح الكثير من أبيات الشــعراء القدامى الذين تناولهم فى « الشوامخ » فجمع بين لذات البصر ، ولذات الأذن ، وفى كل الأحوال ابراز الطابع الفنى الابداعى فى الموضوعات الجمالية ٠

ونخلص من هذه الصور الشعرية والصور الملونة بنتيجة هامة أن المتحققات الفنية فى اللوحات التشكيلية عند الأوربيين كانت موجودة وقائمة بالفعل من زمن بعيد فى الشعر العربى . وكأن هذه الصور شكلت من شعرنا أو بعبارة أخرى ان هذه اللوحات التى طالعنا بها الأوربيون كانت واقعـــا ماثـــلا متحققـــا فى دواوين شعرائنا .

واذا كان الدكتور صبرى قد أبدى اعجـــابه بفن الشعر والتصوير ورأى أن كلا من الشاعر والمصـــور يترجم بأسلوب خاص عن احساسنا أمام مظاهر الحياة والحركة فى الكون ، الا أنه لم يفرق بين طبيعة كل منهما على النحو الذى لاحظه الناقد الألمانى «جوتهولت لسنج» فى كتابه « اللاؤوكون » من أن الشعر هو فن الزمان أى الأفعال التى تتابع وتتعاقب فى الزمن ، أما التصوير فهو أجسام ثابته تحتل مكانا واحدا أو كما عبر لسنج فى التفرقة بينهما بقوله : «الموضوعات التى تتألف من أجزاء متجاورة متراصة تسمى بالأجسام ، ومن ثم فان الأجسام بخصائصها المرئية هى الموضوع الذى يختص به التصوير ، والموضوعات التى تتألف من أجزاء متتابعة

تسمى بوجه عام بالأفعال ومن ثم فان الأفعال هى الموضوع الذى يختص به الشعر » (١) ٠

الذوق والخيال :

يعتمد السربونى على الخبرة الذوقية المحضة فى تقدير أعمال الفنانين ، ونتاج الشعراء المبدعين ، فتراه يهتز طربا ، ويتمايل نشوة عند تعبير معين من شدة التأثر ، وتتراقص عباراته فى تعليقاته على لفظ وفق الشاعر اليه من مختاراته اللغوية ، فهو دائم الانشغال بجماليات التعبير وارتباطها بالحقيقة ٠

والنقد الذوقى بطبيعته ادراك لخصائص الأثر الفنى ، واحساس بقيمته ، أو بعبارة أخرى انه استجابة من جانب الناقد لهذا العمل أو انعدام لتلك الاستجابة ، ولا نقصد بالنقد الذوقى الانفعال أو الأثر النفسى بعد القراءة السريعة للعمل الفنى ولكن هذه الانفعالات أو الآثار النفسية تعيش فترة فى وجدان الناقد ، ويستشعر قيمتها أكثر فأكثر ، وهكذا ينموا الذوق فى ضوء الوعى المتيقظ ، فلا يعوزه نظام أو تدريب ٠

---

(١) تراث الانسانية المجلد الرابع ٠

والذوق هو من أفضل الأشياء تفتحا وتفهما لنصوص الأدب وتقديرا لها ، وهو الذى ينبه الناقد الى القيم الجمالية ، ويخلص الى لباب الأشياء ، ويستشف كنهها ، كما أنه يتبصر عالما عامرا بالمشاعر جياشا بها، وزاخرا بالعواطف الفعالة ، بما لصاحبه من زكانة ملهمة ، وفهم موح ، وتوسم صادق ·

يقول عن الذوق السليم في دراسته عن اسماعيل صبرى : « ولاريب أن الذوق من أكبر عوامل النهضة الأدبية واللغوية والاجتماعية لا سيما فى طور الانتقال »

ومع ذلك فان النقد الأدبى لايؤسس على الذوق وحده أو على الخبرات النقدية · المتوارثة التى تعاون الذوق ، بل يعتمد ـ فى اعتقادنا ـ اعتماد كبيرا على الخيال وللمرء أن يتساءل عن وظيفة الخيال فى عملية النقد ، والجواب على ذلك أن الخيال يلعب دورا واحدا فى عملية النقد وهو آنه يحاول أن يضع البدائل لكل المتحققات الفنية التى تتمثل فى العمل الفنى وتخلل أجزاءه ، فالخيال يضع أمام الذهن كل احتمالات تحقق الفكرة أو المعنى المراد التعبير عنه بانتاج العمل الفنى ، والخيال هو الذى يرى كل الامكانات التى لايتحتم بالضرورة أن تكون هى ما انتجه الأديب فى عمله تعبيرا

عن المعنى ، فالأديب يرى وجها واحدا لتحقيق المعنى فى التعبير الفنى هو الذى يؤديه ويبرزه • أما الناقد فيرى مئات من الأوجه الأخرى التى يمكن أن تؤدى هذا المعنى فى أعمال أدبية ،وهو يرى هذه الأوجه بخياله طبعا • وجملة القول أن الخيال يفتح ناظرى الناقد ويجعله لايفصل شيئا له صلة ما ، بالموضوع المعروض متفهم بهذا القيم الفكرية ، وتتجنب ذلات ليس لها مايبررها، بل انه يحرر العقل من الأفكار المبهمة حيث تمضى الصعوبة التى مصدرها الغموض والاغراق فى الرمز •

التحقيق :

ولم يكن دور مؤلف الشوامخ فى دراساته هو ايضاح القيم الجمالية فى النص ، وتقدير الصور الخيالية فقط، ولكن قام فيها بدور المحقق فصحح الألفاظ المغلوطة ، وصوب الشروح القديمة الخاطئة ، والتى اعتمدها الكثيرون من أشياخ النقاد ، وكبار الشراح العرب القدامى والمحدثين ولم يلتفتوا الى صحتها ، ومن هذا قول أبى تمام :

ونحن فى كنفى حال مساعدة
كل على رعيه الميثاق يمتزم

كوارد الخمس شهد القيظ جـادله
حسى ومد عليه ظله السـلم (١)

ففى البيت الثانى «شهد القيظ» لامعنى لها ، ولاتستقيم مع مضمون البيت ، والمعروف أن القيظ يحس ولكنه لايشاهد ، وقد قام السربونى بالتصحيح الواجب ، والتحقيق اللازم ، فى مثل هذه الحالات ، أما اللفظ الصحيح الذى رجح صوابه فهو « شد القيظ » وليس « شهد » « جاء فى اللسان شد النهار أى ارتفع ، وشد النهار ارتفاعه ، وكذلك شد الضحى « وهذا هو المعنى الصحيح الذى يتحصل معه المعنى المراد ، وكان لا بد من هذا التحقيق ، لأن التحقيق المسدد مقوم لوجود النص ، وسبيل الى فهمه واستيعابه ، وعلى هذا النحو صوب كثيرا من الألفاظ المحرقة والتى لحقت بشعر البحترى وغيره ، منذ القرن الرابع ، وظهرت على علاتهـا فى النسـخ المخطوطة والمطبـوعات جميعـا وحتى فى مختـارات البارودى دون أن يعمل النقاد والشراح على تصحيحها •

وهذا البيت

وجـلدها من أطـوم مايؤيسـه
طلح بضـاحية المتنين مهـزول

(١) الشوامخ ـ البحترى •

شرح لبيت ابن منظور فى لسان العرب ، وتبعه الشراح . قال : وصف جلدها بأنه قوى شديد الملاسة ، وضخامتها ، فالقراد المهزول من الجوع لايثبت عليها ، ولايلتزق بها .

والواقع أنه لا أثر للملاسة هنا فقد شبه جلدها بجلد الأطوم وهى السلحفاة البحرية الغليظة الجلد ، والطلح القراد ، ويؤيسه يؤثر فيه ، وضاحية المتنين مابرز منها للشمس ، يريد أن جلدها ـ وجلد البعير يتخذ منه الخفاف للجمالين ـ غليظ كجلد السلحفاة فلايؤثر فيه القراد ، وقد توهم الشراح أن ذكر الملاسة فى البيت السابق لم يكن على سبيل المبالغة ، فأقحموا الملاسة أيضا فى شرح البيتين الأخيرين (١) .

وبيت امرىء القيس

اجارتنا انا غريبان ههنا
وكل غريب للغريب نسيب

فقد ظن بعض مؤرخى الأدب وشراح شعر امرىء القيس أن الشاعر كان فى سفح جبل يقال له عسيب بالقرب من أنقره ، ويقول السربونى «والمعروف

(١) الشوامخ ج ٢ .

أن عسيب جبل بعالية نجد ، يقال لا أفعل ذلك ما أقام عسيب ، وهو الذى ذكره امرؤ القيس» (١) ٠

وهذه الأمثلة وغيرها كثير نجدها فى الشوامخ ، وهى توضح لنا أشياء متعددة منها قراءة النص بدقة ، ومقابلة النسخ بعضها على البعض الآخر ، حتى يصل الى المعانى الحقيقية التى أرادها الشعراء ٠

الطبيعة الصفراء والطبيعة الخضراء :

على أننا نلحظ شيئا هاما فى هذه الدراسات ، هو ميل مؤلفها الى حياة البداوة والخشونة ، وهو الرجل الذى عاش فى أوربا كل هذه السنين الطوال فى ظل الحضارة الحديثة ، ونعجب كثيرا ففى مستهل حياته يكتب كتابا يصف فيه جبال الدوفينى ويصور هيبتها وجلالها، ولايصور فى هذا الكتاب الطبيعة الخضراء ٠ ومما لاشك فيه أن عناصر الجمال فى الطبيعة الصفراء الصحراوية الجبلية تختلف عن عناصر الجمال فى الطبيعة الخضراء طبيعة ألفاف الغاب والمغانى ٠ ويبدو أنه كان مأخوذا بأوصاف الحياة فى الصحراء كما صورها الشعراء ، أو

---

(١) الشوامخ جـ ١ ٠

مسحورا بهذا الشعر الحركى المرتبط بالحقيقة والذى يصور الصحراء وحيوانها ، والأعرابى الذى يصادق الحيوان المتوحش (١) ٠

ولم يخل أدبه من تصوير الطبيعة الخضراء ، وأمواه البحار ، ولكننا ندرك أن أدب الصحراء والجبال أكثر تجاوبا مع نفسه ، ربما لانه يجد فى حياة البداوة وطبيعة الصحراء الحرية والسعة والانطلاق والفطرة ، والبساطة، وهى الأشياء التى لاتوجد فى حياة الحضر ٠

وهو يتعامل مع الشعر الذى يجعل البادية مادته أكثر من الشعر الذى يتناول الغزل والمديح والفخر مثلا، وحتى عندما يتناول صراع الشعراء مع الحيوان الصحراوى أو صراع الحيوانات بعضها مع بعض ، فانه يفيض فى حديثه عن الحيوان الوحشى كالذئب والحمر وغيرهما وقلما يتطرق الى الشعر الذى يصف حياة الأيائل والظباء ٠ مما يجعل لأدبه لونا مميزا ، وطابعا خاصا ٠

وعلى كل حال فهذه الدراسات التى قدمها للمكتبة

---

(١) يقول السربونى فى مقال نشرته قافلة الزيت ١٩٥٩ : « او الطبيعة هى الحب ٠٠ هى الوجدان هى البادية ٠ هى البداوة ٠ حسن غير مجلوب ٠ وجمال موهوب نظر اليه الأعرابى فتوله وافتتن وغنى فى كل قاع وفنن » ٠

العربية تعتبر مشاركة جديدة وجـــدية تضـــاف الى الدراسات العميقة فى الأدب والفن ، وكان لمزجه بين الفن الذى تتداخل فيه الخطـــوط والألوان ، والعمل الشعرى الذى تتابع فيه الأنغام والايقاعات ، السبب فى اعلاء هذه البحوث • ونظرا لقلة نقاد الفن التشكيلى عندنا فان هذه الصفحات التى كتبها السربونى ستظل لها مكانتها •

ولم يكن خافيـــا على أثنـــاء عشرتى له أنه كان يتماجد بهذه الأعمال القيمة ويكابر الآخرين بها •

قضية السودان

عرض قضية السودان على مجلس الأمن :

وبعد تقديم وجبة أدبية دسمة عـاد الى دراسـة التاريخ مرة أخرى ، فكتب باللغة الفرنسية «السودان المصرى ١٨٢١ ـ ١٨٩٨» عام ١٩٤٧ ٠

وكان قد طلب من الدكتور صبرى أن يشترك مع شفيق غربال ، وكيل وزارة المعارف فى ذلك الوقت ، فى وضع بحث عن القضية السـودانية تحقيقا لرغبـة رئيس الحكومة محمود فهمى النقراشى ، فاعتذر صاحب الترجمة لانه اعتـاد العمل مسـتقلا ، وأعـرب عن استعداده للقيام بالعمل منفردا ٠

وكانت أزمة السودان على أشدها آنذاك ، وصحف المعارضة تحمل على النقراشى لتراخيه فى السفر لعرض قضية السودان على مجلس الأمن ، وكان رئيس الحكومة فى أشد الحاجة الى من يسـعفه بمذكرة سـياسية فى

موضوع القضية ، وانتهى المطاف بتكليف السربونى باعداد هذه المذكرة ، التى تطورت حتى صارت كتابا يقع فى نحو ٢١٥ صفحة من القطع الكبير ، وتم طبعه وارساله الى أمريكا وأوربا بواسطة وزارة الخارجية المصرية . ومما ساعده على سرعة تأليف الكتاب ، أنه كان قد درس الموضوع ، وتمرس به ، واستغل الوثائق التى كان يعدها للجزء الثالث من تاريخ الامبراطورية المصرية . ثم ترجم السربونى كتابه الى العربية وأضاف اليه الفصل الخاص بحدود الامبراطورية الجغرافية ، وأطلق عليه «الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر» .

ومن ناحية أخرى ، أعد الدكتور السنهورى وزير المعارف . ورئيس هيئة المستشارين فى مجلس الوزراء — فى تلك الفترة — كتابه « قضية وادى النيل » بالانجليزية لينافس به كتاب الدكتور صبرى ، ولكن رئيس الحكومة رفض أن يأخذ معه نسخة واحدة منه الى مجلس الأمن .

وقد بسط السربونى رأيه فى هذا الكتاب فى عريضة استئناف تقدم بها الى احدى المحاكم ذات يوم ، وموجز رأى صاحب الترجمة أن السنهورى جمع مادة

كتـــابه بلا روية أو تدقيق ، وكان يستشهد بنصوص ، ولكنه لايثبتها ، ويترك مكانها بياضا ، وهى علة خطيرة فى الكتاب ، وقال ان الاجانب لو اطلعوا على هذا الكتاب لكان ذلك فضيحة كبرى ، وتفصيل ذلك أن السنهورى وضع كتابه بالعربية أولا ثم سعى الىترجمته للانجليزية ، فطلب المترجم النص الانجـليزى للاســتشهادات التى ترجمت الى العربية ، ولكن السنهورى لم يقدمها أو لم يتمكن من تحديد مصادرها حتى يمكن نقلها بنصها فطلب أن يترك مكانها بياضا ٠

واننا لانشير الى كتاب السنهورى هنــا للطعن فيه وتفضيل كتاب السربونى عليه ، ولكن لأن هذا الحادث كان له رد فعل فيما بعد كما سنفصل بعد حين ٠

مضمون الكتاب :

بين السربونى فى هــذا العمل التــاريخى الضخم الصلات القديمة بين مصر والســودان ، وأثبت بالأدلة الجغرافية أن السودان امبراطورية كبرى وذلك عنــدما امتدت حدوده شرقا الى البحر الأحمر والمحيط الهندى بضم الصومال وهرر اليه ، ثم اتسعت حدوده الجنــوبية لتشمل منابع النيل عند خط الاستواء ، وأوضح كيف

تآمرت الدول الاجنبية مثل ايطاليا وفرنسا وانجلترا وبلجيكا على تقسيم هذه الامبراطورية المترامية الأطراف والأصقاع .

ويجب أن نقف قليلا عند تسمية السودان بامبراطورية ، ذلك أن الامبراطورية لاتقوم فقط على عامل اتساع الرقعة ، وترامى الحدود ، ولكن على عناصر أخرى منها مدى قوة الامبراطورية أو الدولة واكتمال نضجها ، واستمرار مجدها فترة طويلة من الزمن تعد بالقرون أحيانا ، وقدرتها على الثبات أمام الشدائد والغزوات الخارجية ردحا من الزمن ، وتفوقها الاقتصادى، وضخامة تبادلها التجارى ، وتميزها بطابع حضارى يفرق بينها وبين الامبراطوريات الأخرى .

ولو طبقنا مقومات الامبراطورية على السودان لما وجدنا شيئا من ذلك سوى اتساع رقعة الأرض ، فلم يكن السودان قوة كبيرة فى ذاته ، وانما كان جزءا من المملكة المصرية ، ولم يختص بحضارة زاهرة باهرة لها الطابع الذى يميزها عن غيرها ، وانما مانعرفه عن السودان فى ذلك الوقت ، أنه بلد متخلف ساعد المصريون على نشر الحضارة والمدنية فيه ، هذا الى جانب أن حكامه كان بعضهم من الأجانب الأوربيين مثل غردون وبيكر وغيرهما .

لذلك أسجل اختلافى مع الدكتور صبرى فى اطلاق تسمية السودان بامبراطورية استنادا الى عنصر واحد دون استكمال باقى العناصر والمقومات ، وأرى أن تسمية الكتاب «بالسودان المصرى» كما أطلق عليه فى النسخة الفرنسية أقرب الى الصواب والحقيقة التاريخية ٠

أما عن مادة الكتاب الأخرى فتشير الى أنه مؤرخ من الطراز الذى يستطيع تقحم أعتى قضايا التاريخ ، ويقلبها على وجوهها المختلفة ، طبقا لمناهج وأصول علمية وفنية ٠ ومن أهم مانلحظه أنه ابان نقطتين هامتين هما :

● حقوق مصر والسودان التى يجب أن تسلم بها انجلترا ٠

● وأن مصر أقدر من الانجليز والأوربيين على نشر الحضارة والتمدن فى السودان والملحقات ، وأساس هذه المدنية هى اللغة والدين والعروبة ، وفى هذا يرد على تنديد الانجليز بالحكم المصرى للسودان ، فأشاد بالحضارة المصرية فى هذه الأقطار وذكر الاصلاحات الكثيرة فى العمران والتجارة والزراعة والصناعة ، بل جلا دور العرب الذين كانوا يفدون من زنجبار

ومونبسه الى وسط أفريقيا للتجارة ونشر الحضارة ، وكيف كان يقاومهم الانجليز ، ويتهمونهم زورا بالنخاسة ·

ومن أهم ماجاء في الكتاب هو تعرية شخصية غردون الذى كان يتخفى تحت ستار عدو الرقيق ، وبين أن أوربا كانت ترفع شعار محاربة تجارة الرقيق لتبسط نفوذها ، وتشتت النفوذ العربى ويقرر «أن الأوربيين هم أول من اتجر بالرقيق في أفريقيا ، وأن هذه التجارة فى عهدهم كانت صحيفة سوداء فى تاريخ البشر» ودلل على ذلك بنصوص أوردها من الكتب التى وضعها الانجليز والفرنسيون ·

ودافع عن الحكم المصرى للسودان ووضح مدى الفساد السياسى فى ظل الحكم المشترك ، وكيف كان يعمل الانجليز والأوربيون على فصل السودان عن مصر، بل فصل جنوب السودان عن شماله من أمثال بيكر وغوردون وجيسى وكازاتى ·

على أن الدكتور صبرى كعادته يصحح المعلومات التاريخية الخاطئة فى الكتب الأخرى ، وهى من أهم الأشياء التي يجب أن يفطن اليها المؤرخ ، وعلى سبيل المثال ماأخطأ فيه نعوم شقير فى كتابه «تاريخ

السودان» وبين النقص الكبير فى الخرائط التى وضعها أركان حرب الجيش المصرى فى عام ١٨٧٨ ، والخريطة التى نشرها الدكتــور أبت Abbate عن الاستكشافات الجغرافية فى عصر اسماعيل ، وجاء فى كتاب اسماعيل سرهنك «حقائق الأخبار فى تاريخ دول البحار» مديحا لشخصية بيكر ، ولكن السربونى كشف عن غوامض هذه الشخصية الخــداعة ، ووضح كيف مهــدت للســياسة الانجليزية الاستعمارية فى أفريقيا ٠

أحداث حول الكتاب

اعترف النقراشي بجهد السربونى الضخم فى كتاب وجهه الى وزير المعارف الســنهورى جــاء فيه «لعلك تشترك معى فى الاعراب عن تقديرنا لمجهود الدكتور صبرى فى ابراز قضية السودان بانصافه واعطائه حقه فى الوظيفة التى يشغلها (١) الآن ويسرنى آن أعلم منك قبل سفرنا ماتكون حققته من انصافه» وكانت مكافأة السنهورى للدكتور صبرى أن عين شخصا آخر لدار الكتب وجعل من هذا المدير الجديد الذى يقل عنه

(١) كان الدكتور صبرى يشغل فى ذلك الوقت وظيفة مدير دار الكتب بالنيابة ٠

فى الدرجة والكفاية العلمية رئيسا له مما دفع السربونى الى تقديم استقالته للسنهورى فرفضها ، أما المكافأة المالية فقد عرض عليه مبلغ يصرف له من المصروفات السرية فرد على مدير مكتب رئيس الحكومة بقوله «ان هذا المبلغ قد أتقاضاه فى مقالة لا فى كتاب، ولو عرضتم على مليون جنيه من المصروفات السرية لما قبلت . وانى لا أقبل الا مايأتى من طريق مجلس الوزراء» ولم يمنح أى شىء .

وبتاريخ ٥ مارس ١٩٥١ تقدم السربونى بكتاب الى النحاس رئيس الحكومة لانصافه ومكافأته عن هذا العمل الذى ساهم به فى سياسة الدولة العليا وتزويدها بالوسائل التاريخية العلمية الصحيحة للدفاع عن قضية الوطن أمام مجلس الأمن ومما قاله للنحاس باشا : « ... ولو كنت ادخرت هذا المال (أى المال الذى انفقه أثناء سفره للحصول على الوثائق التى استند اليها فى تأليف كتبه) لكانت لى الآن ثروة ، ولكنى مازلت يارفعة الرئيس لا أملك شروى نقير ، بل لا أملك الا مكتبتى» الى أن قال «فأقل الجزاء أن تأخذ الحكومة بنصيبها من نفقات تأليفه وأكبر الجزاء أن لاتضطرنى الحكومة مرة أخرى الى الالتجاء الى القضاء فقد تعبت وكبرت» ورفع دعوى ضد الحكومة وطلب أن تدفع له

الحكومة خمسة آلاف جنيه على سبيل التعويض ، فدفعت الحكومة الدعوى بأن هذا عمل وطنى لا جزاء له ، وزادت الحكومة أن هذا العمل تبرع لا تكليف ، رغم أنه مر بنا أنه وضع هذا الكتاب بناء على تكليف من رئيس الحكومة النقراشى .

وقد رفع الدكتور صبرى قضية أخرى ضد السيد رئيس مجلس الوزراء بصفته عام ١٩٥٣ بخصوص منحه تعويضا أو مكافأة على كتابه هذا ، ولكنه صدر الحكم برفض الدعوى فى ١٩٥٢/٦/٢٤ وتعرف هذه القضية «بقضية كتاب النقراشى» .

وفى عام ١٩٤٨ ترجم كتابه كما سبق ووضع «أطلس» للسودان ، وتقدم بهذين العملين لنيل جائزة فاروق فى التاريخ والجغرافيا عام ١٩٤٩ . وكان قد صدر مرسوم فى ١٩٤٦/٩/١١ بانشاء جوائز فاروق الأول وصدر فى الوقت نفسه ملحق بالمرسوم الملكى يتضمن شروط منح الجوائز . ومما جاء فيه : « يشترط فى الانتاج الذى يقدم فى المسابقة أنيكون له قيمة علمية أو فنية ممتازة تظهر فيه دقة البحث والابتكار ويهدف خاصة الى ما يفيد مصر والانتاج القومى .

وكان يعلن سنويا عن مسابقة فى العلوم

الاجتماعية مثل علم الاجتماع والتربية والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والآثار ، وخصص لكل منه جائزة قدرها ألف جنيه .

وعند اعلان نتيجة المسابقة فى فبراير ١٩٥٠ حرم صبرى من الجائزتين ، وكانت اللجنة المختصة بالنظر فى تلك الجوائز قد أعدت تقريرين عن الكتابين تضمنا عدم استحقاق المؤلف للجائزة عنهما .

ويكفى للتدليل على ظلم السربونى أن لجنة فحص أطلس الامبراطورية السودانية كانت مؤلفة من عضوين هما مصطفى عامر ود. محمد عوض محمد ، وعندما تنحى مصطفى عامر انفرد الأخير بكتابة التقرير الخاص بالأطلس ، وكان الدكتور محمد عوض سكرتيرا للجنة الجوائز وهو الذى نال الجائزة عن كتابه « السودان الشمالى وقبائله » وهكذا يتبين لنا أن الدكتور عوض كان الخصم والحكم فى وقت واحد .

واننا الآن لسنا مطالبين بانصاف الدكتور صبرى ولكن نضرب أمثلة من تقرير اللجنة التى رفضت العملين والرد عليه كما جاء فى مذكرة بدفاع الدكتور صبرى ضد وزير التربية والتعليم بصفته فى القضية التى تعرف بقضية جائزة فاروق .

جاء فى تقريراللجنة التى طعنت فى الكتاب « ومن أمثلة عدم تحرى الدقة التامة فى النقل الوثيقة ص١٤٩ اذ ذكر نهر الواش بدلا من الأواش ، ومنطقة الأروس بدلا من اقليم العروس » قال السربونى فى الرد على ذلك : « وكلمة الواش أو الأواش ، وكلمة أو الأروس أو الأروسى ليستا عربيتين ولكنهما من أصل أمهرى (حبشى) والأروس أو الأروسى من نسل أرس ولعل هذه الحقيقة خفيت عن المقررين ، وحتى لو جاز ابدال الهمزة عينا فى كلمة فصارت العروسى فقد لايستاغ ذلك فى كلمة أرس أو الأروسى سيما وأن العين لاوجود لها فى لغة الأصل» ٠

وقد اتهم المقررون أن كتابه ينعدم فيه المنهج وقالوا «وذكر عنوان الكتاب الرابع ممالك السودان المتطرفة وحددها فى الفصول التالية بمديريات ، وماوقع لها ابان قيام الثورة المهدية» ويرد السربونى قائلا « أى علاقة بين انعدام المنهج وتحديد العنوان ؟ وعلى أية حال الممالك هى البلاد الواسعة ، وكانت الممالك المتطرفة التى تؤلف الكتاب الرابع ثلاثا : ساحل الصومال وهرر ، وساحل البحر الأحمر ، والمديرية الاستوائية ٠ فلم تحدد الا واحدة منها

بمديرية ـ لا كلها كمـا ذكر المقـررون ـ فكان من الطبيعى وضع كلمة ممالك لا مديريات فى عنـوان الكتاب الرابع لأنها أعم وأدق» ·

ويلاحظ أن المقررين يدققون فى مسائل ثانوية القيمة ، فينشغلون بالعنوان عن جوهر الفصول نفسها وأهميتها من الناحية العلمية · فاذاكانت هذه النقاط وأمثالها هى عيوب الكتاب أو هذا هو النقد الذى وجه اليه ، فان ذلك يؤكد قيمة الكتاب العلمية من ناحية ، ويبين لنا مدى الظلم الذى تعرض له السربونى على يد هؤلاء المقررين من ناحية أخرى ·

وقد أوردنا مثل هذه الانتقادات لما فيها من فوائد تاريخية ولغوية ، وهذا التقرير عن الكتاب جزء من دراستنا عنه ·

فيلم الخرطوم :

ونذكر هنا حادثا يتعلق بالسودان ، فقد عرض فى القاهرة فيلم «الخرطوم» عام ١٩٦٥ وقد اشـترك فى اعداده كل من انجلترا وأمـريكا لتمثيل دور البطولة الذى لعبه الانجليز فى السودان · فهـو فيـلم دعاية سياسية ، وقام الممثلون بتشويه الحقائق ، وقلب الأمور ،

وعلى الأثر نشر مقال بجريدة الجمهورية فى ١٩٦٥/٩/٢٣ ليكشف الزيف ، ويبطل الباطل ومما جاء فيه «فالشخصيات الثلاثة» الأساسية هى اللورد كرومر وغردون باشا وتاجر الرقيق زبير ومن المؤسف أن يقوم ممثل مصرى بتمثيل الزبير باشا فى صورة تاجر رقيق حقير يلبس العمامة والكولا ، ويمثله قصير القامة ذليلا مع أن جميع صور الزبير التى نشرت له وأخص بالذكر منها الصورة التى نشرها سلاطين باشا فى كتابه «النار والحديد فى السودان» تنم فيها ملامحه وهيئته عن الذكاء والارادة والابهة والسلطان» ثم يورد بعد ذلك حقائق تاريخية غاية فى الدقة والعمق عن دور العرب الحضارى فى السودان وتنجانيقا وزنزبار والكونغو ، ووضح شخصية الزبير الذى كان تاجرا للعاج ، وأن غردون كان فى الواقع هو الذى شجع تجارة الرقيق وليس الزبير ، وأخيرا يختم مقاله قائلا : «ان غردون قد تسبب الانجليز فى قتله ولم ينجدوه سنة ١٨٨٥ لأنه كان يتردد فى تنفيذ السياسة الانجليزية ، وترك السودان للفوضى ، وقد استغل الانجليز موته للانتقام له وتأكيد حقوقهم فى السودان . فهل يريد الانجليز اليوم اعادة تمثيل الرواية والاشادة ببطولة غردون عدو

الرقيق ؟ وهى رواية مخزية يمثلها من جديد القاتل على حساب القتيل والحقيقة التاريخية» ٠

وقد وفت هذه المقالة وكفت ، وتوقف عرض الفيلم فى مصر والسودان وأقطار عربية أخرى ٠ وهكذا جعل كشف حقيقة المستعمرين دأبه ٠

معالم منهجه التاريخى

العالميـــة :

كان ومازال بعض المؤرخين يفضلون ــ وهم يدونون تاريخ فترة أو دولة ــ أن يحصروا دراستهم فيهـا ، ويقصرون حديثهم عليها ، فى حين يرى البعض الآخر أن على المؤرخ أن يكون عالميا فى تاريخه ، أى أن يرتفع فوق الأحداث الخاصة ، ليحلق فى جو الوقائع العامة ، وبعبارة أخرى يكتب تاريخ الدولة أو الفترة التى يسجل وقائعها فى اطار الأحداث العالمية ، والتيارات السياسية السائدة ، وقد قلنـا فى مقـال نشرته مجلة الثقـافة المصرية (١) «والمقصـود من عالمية التـاريخ أن يتنبه المؤرخ أو دارس التاريخ الى الروح العـام للانسـان ، ووحدة الحياة ، وترابط أحداثها ، وعلائق وقائعها ، وتأثير الحضارات السابقة فى اللاحقة لها ، لأن الممالك

(١) مجلة الثقافة عدد يونيه ١٩٧٧ .

القديمة ــ حتى والحديثة ــ كانت بينهـا روابط واتصالات ، ومبادلات فى المعارف والخبرات ، عن طريق التجارة والهجرة والغزوات ، ومن ثم تكونت أسس عامة فيما بينها ، وتحقق التأثير والتأثر بين حضاراتها ، فالحركة التاريخية كل لايتجزأ ، حتى مع الأخذ فى الاعتبار مبدأ « الاقليمة » لأنه لن يتأتى لنا معرفة المغزى الحقيقى للأحداث القومية الا من خلال الحركة التاريخية العالمية ، ويبقى التاريخ العام قوامه الخاص والخاص تمامه بالعام »

ونلخص من ذلك أن الدولة التى نؤرخ لها ليست مقطوعة الصلات بالدول المحيطة بها أو حتى الدول التى وراء محيطها ، ولأن الحقبة التى ندون تاريخها ليست منفصلة عن أحداث الفترة الماضية والآتية ، فاننا ندرك الوحدة السارية فى الأحداث ، والنغمة السائدة فى الماجريات ، لذلك فان التقسيمات السياسية والجغرافية لاتحول دون تأثر دولة من الدول بما يحدث فى غيرها .

وبعد ذلك ، أية طريقة اختارها مؤرخنا ؟ يخيل الينا أنه كتب مؤلفاته التاريخية فى اطار « عالمية التاريخ » وهذا يتبدى لنا من ربط الأحداث القديمة بالحديثة ، وتمهيده لواقعة بواقعة ، فتشابكت الأحداث

والوقائع فى وحدة زمنية ، ورغم أنه يؤرخ لدولة معينة فى فترة محددة ، فانه يهتم بكل الأحداث العالمية التى تخص المكان الذى يؤرخ له ، والزمان الذى يدون تاريخه ، ونظرة واحدة لكتبه التاريخية نجد مصداق ذلك . ففى كتابه «تاريخ مصر الحديث من محمد على الى اليوم» يربط السياسة الانجليزية والتركية والمصرية ، وبقية الدول الأوربية فيما يعرف بالمسألة الشرقية ، وتلاحظ كيف تداخلت كل هذه التيارات السياسية المختلفة لتصنع فى النهاية شيئا واحدا هو اضعاف تركيا ، والعمل على فصل اليونان واستقلالها ، وتحطيم الدول العربية الدائرة فى فلك الدولة العلية ثم استعمارها فى النهاية ، ونظرة واحدة ليتاب السربونى عن السودان ، ترى فيه كيف تشابكت الخيوط والخطوط فى أحداث السودان وينتهى المطاف بتقطيعه وتقسيمه بين الدول التى اشتركت فى ادارة هذه السياسة وتوجيهها .

التوثيق

ومن أهم مايسترعى النظر فى الكتابة التاريخية عند السربونى هو استناد كتبه التاريخية الى الوثائق الجديدة التى لم يسبق نشرها ، والرجوع اليها ،

والافادة منها ، وعلى سبيل المثال قراءته لمذكرات نوبار باشا ، ومذكرات محمد عبده قبل نشرها ، وغيرهما كثير، وقد فطن الاجانب الى ذلك . ومما جاء فى تعليقاتهم على كتابه عن عصر محمد على . قال هنرى دودويل «... فقد انتفع بعدد لايحصى من الوثائق والمستندات المستخرجة من مصادر متنوعة جدا» . وقال شارل رو «.. هذه المستندات التى لم يسبق نشر معظمها» وقال بوفايل وو .. ما آجفل هذا الكتاب بالوقائع المستقاة من مصادر المفوظات الخطية» (١) .

ولكن كيف يستفاد من هذه الوثائق ؟ يرى الدكتور صبرى أن الجرى وراء الوثائق الجديدة لامعنى له ، مالم يسبق ذلك قراءة المراجع المتعلقة بالموضوع الذى يدرسه المؤرخ ، لانه يكون قد سبر غور قضيته وعرف نقاط الغموض فيها (٢) .

وهذا فى اعتقادنا من أهم واجبات المؤرخ ، لان الاحاطة بالموضوع تجعله يعرف مانشر من الوثائق ومالم ينشر ، ويدرك المهم من الوثائق ، والأهم ، وعديم الأهمية ، فانه لافائدة من المستندات اذا لم تأت بمضمون

---

(١) أدب وتاريخ واجتماع .
(٢) مجلة بناء الوطن .

مفيد جديد • وليس هذا فحسب ، فان تدوين الوثائق لابد وأن يصحبه التحليل العلمى ، ولايكفى انزال الوثيقة منزلها ، ووضعها فى اطارها التاريخى • وقد عرف صاحب الترجمة كيف يستغل الوثائق التى تبين اتجاه الأمور ، وتلقى ضوءا ساطعا يوضح الغوامض •

وكان لاثبات الوثائق باعتبارها أدلة على مايذهب اليه ، وبراهين على مايتحدث فيه أكبر الأثر فى شيئين :

أولا : التقليل من الافتراضات والتصورات التى لاتستند الى واقع ، ولاتنهض على حقيقة مدونة •

والافتراض يكون جائزا اذا أمسكت المصادر عن البوح ، وتوقفت المراجع عن عطائها التاريخى فى توصيف حدث معين أو ذكر ارهاصاته ، وملابساته • ومهما يكن من أمر فان الافتراض نوع من التخمين ، يصح أو ينهار من أساسه اذا ماظهرت وثائق جديدة تنكر هذا الافتراض، وتتعارض معه وتبطل قيمته ، بينما الوثائق هى حقائق اذا لم يثبت بطلانها ، ومن واجبات المؤرخ وهو يتناول هذه الوثائق أن يستجفى المستندات المدخولة ، وينفى الروايات المخلوطة ، ويحرر المادة التاريخية من كل مايشوبها ، فالوثائق فى أبسط تعريف

لها روايات ، والروايات يجب أن تخضع لميزان النقد العلمى ، واختبارها مع قرائنها لتلافى المزالق ، وسد الثغرات ، بعد ذلك يعتمد المؤرخ الروايات أوالمستندات التى يؤيدها العقل ، ويحكمها المنطق ، ولاتنكرها بقية الأحداث ، ويعين الدارس فى هذا حسه التاريخى ، والمامه بدرجات الثقافة ، وتطورات الحضارة للعصر الذى يتعامل معه ، أو يتطرق لشخصية فيه • وهكذا تقلل الوثائق الصحيحة من التخمينات الباطلة • وتنقل الحديث فى المادة التاريخية من الافتراضات الى التحديدات •

ثانيا : ثمة نتيجة أخرى لاعتمادالمؤرخ على الوثائق، ألا وهى عدم المبالغة فى الوصف ، والمغالاة فى الشرح، فهو عندما يلتزم بالوثيقة فانه لايترك قلمه توجهه الانفعالات الغائرة ، والأهواء الجامحة ، ذلك أن الوثيقة تجعل الباحث التاريخى أكثر انضباطا لشعوره ، وأقل انحيازا وتطرفا •

وقد دعمت هذه المستندات دراساته التاريخية ، مما يجعلنا نتقبل أحكامه فى جو من الثقة والاطمئنان ، لالتزامه بالواقع ، وعدم الاعتماد على الحكايات الخرافية، والتخلى عن التصورات الخيالية ، وخاصة اذا وجدنا

الكثير من النقاد الانجليز والفرنسيين ــ مع أنه يقدح في ساستهم ــ قد أشادوا بقدرته على استخراج الوثائق من مظانها ٠

الايجاز والسرد :

ومن النقاط الهامة والبارزة في منهج الكتابة التاريخية عند السربوني ، ايجازه للحوادث ، وتقدير آثارها ، وتقديمها في عبارة سهلة ، يقول في مقدمة كتابه عن «الثورة الفرنسية ونابليون» : «والواقع أن ايجاز الحوادث الكبرى ايجازا علميا شاملا من أدق واجبات المؤرخ لأن الايجاز يقتضي الالمام بالحوادث ، ووزن كل دقيق وجليل فيها ، ثم أداءها في أقرب لفظ الى أبعد معنى ، وما الايجاز الا قطعة من عقل المؤرخ وشخصيته ، ومقياس يبين عن ذكائه وذوقه وخبرته» ويقول في مقدمة كتابه «تاريخ العصر الحديث» : «وتظهر شخصية المؤرخ في حسن استخلاصه الوقائع من منابتها ، والجمع في كتابته بين الايجاز والوضوح اللذين هما لباب كل بلاغة وفن» ٠

وربما يعني السربوني بالايجاز هو الاقتضاب غير المخل ٠

ان الاختصار المخل للاحداث يؤدى الى الابهام ، ويثير فينا السؤال والاستفهام • ويعد عيبا فى الدراسة التاريخية . وفى اعتقادى أن التركيز أو الايجاز ، هو أن يذكر المؤرخ الأحداث ذات الدلالة الواضحة ، والنتائج الكبيرة ، لأنه من الطبيعى أن كل الأحداث ليست في مستوى واحد من الأهمية والتأثير •

ومع أنه ليس هناك مقاييس حاسمة نحدد بها الوقائع الهامة ، الا أننا نستطيع أن نحكم على المؤرخ من خلال القضايا التى يثيرها ، ومدى معالجته لها ، واختياره للأحداث التى تمثل روح العصر ، والتعرض للموضوعات الجادة ومناقشته لها • ومهما قلنا فى هذا الموضوع فان فصل الخطاب فيه لابد أن يترك لاختيار المؤرخ •

ويعد اختياره للأحداث والأفكار والقضايا التى تمثل روح العصر ، يسردها فى تتابع تاريخى ، وتلاحق زمنى ، مع ذكر الأدلة الدالة دون تدخل منه فى بعض الأحيان ، مثل الفصل الخاص بالثورة المهدية فى كتابه عن السودان حيث «يترك الوقائع تتكلم عن نفسها» (١) • وفى هذه الحالة يمكننا كقراء أن نتنبأ بالنتائج التى

(١) الامبراطورية السودانية •

يمكن لهذا العرض الدقيق أن يسفر عنها ، ومن ثم يصير في وسعنا أن نصدر بدلا عنه الأحكام التى لم يعلنها ، اذا مارزقنا حسن الوعي ، والقدرة على ادراك السير الدقيق للأحداث •

ولكنه فى أحيان أخرى يتدخل فى تقويم الأحداث والأشخاص والأفكار ، ويحكم عليها حكما آخلاقيا ، وان كان بعض فلاسفة التاريخ يرون أن على المؤرخ أن يعرض مادته دون اصدار الأحكام ، الا أن الموضوعات التى كان يدرسها الدكتور صبرى لها علاقة بشعوره القومى والوطنى ، مما يجعله لايستطيع أن يقف هادئا متماسكا أمام أحداث تدعوه لادانة مرتكبيها ، فنجده يقول كلمته ويعبر عن رأيه •

العوامل التاريخية

ان الوحدة التاريخية لاتتحقق ، والصورة العامة لفترة من الفترات لاتتضح اذا كان اهتمامنا بجانب دون آخر ، فالوقائع السياسية جانب واحد من التاريخ، لذلك يجب على المؤرخ أن يلتفت الى الجوانب الأخرى كالاقتصاد والاجتماع والعقائد والحالة العلمية ، لأن التاريخ هو تتبع أثر كل هذه الجوانب ، ولابد فى هذه

الحالة من تأنى المؤرخ فى فحص مادته واتبـاع المنهج الاسـتقرائى الذى يعينه فى توضيح هـذه الجـوانب المختلفة ٠

ولم يحتفل الدكتور صبرى بالأحـداث السياسية فقط ، ولكنه كان معنيا بمختلف الحالات ٠ وقد مر بنا كيف وضح الحالة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعلمية فى السودان ، وفى بلاد شرق أفريقيـا التى كانت تابعة للحـكم المصرى ، وبين بالوثيقة والمثـال والصورة ، الحالات المختلفة التى كانتعليها هذه الأقطار قبل حكم المصريين لها ، وكيف صارت بعد ذلك ، وهذا هو التاريخ الذى تكاملت فصوله ، وتضامت فروعه ، لتكون صورة للمنطقة التى يؤرخ لها من كل النواحى ، وقد كتبت مجلة الدراسات التاريخية بباريس عدد يوليه ١٩٣٤ عن كتابه (عصر اسماعيل) تقول : «٠٠ وهـو ليس تاريخـا سـياسيا فحسب بل تاريخا اقتصـاديا واستعماريا يجدد فى نواح كثيرة موضوعا كنا لانعرفه حق المعرفة» ٠

والمؤرخ الذى يسجل الجـانب السـياسى فقط فى كتابه فانه يقدم لقارئه عملا مشوها مبتورا ٠

ويهتم السربونى بالعـوامل المختلفة فى توضيح

الموضوعات ووزنها . وكيف يمكننا فهم حادثة من غير معرفة العوامل المتجانسة وغير المتجانسة فيها ؟ ولابد للمؤرخ أن يستعين بنتائج العلوم الاجتماعية ويوفق بينها فى الكتابة التاريخية . كما تتوافق الايقاعات فى السيمفونية الخالدة ·

الأمانة التاريخية

من واجبات المؤرخ أن يكتب بحوثه بروح علمية خالصة ، وتكون نظرته الى القضايا التى يعرضها نظرة موضوعية ·

فاذا كتب التاريخ لتمجيد أسرة أو حاكم ، أو دون مع الالتزام بعقيدة سياسية معينة ، أو سجل من خلال نظرة حزبية ، شاع فيه التزوير ، والبتر وسيطرت عليه الأغراض · ولاشك أن هذه مؤثرات تعوق الكتابة التاريخية الصحيحة ، وتتحكم فى توجيه الأحداث . ولوى مسارها الطبيعى ·

وقد تملق كثير من المؤرخين بعض حكام أسرة محمد على ، وألفوا الكتب العديدة للتغنى بأمجاد زائفة ، «وكان محمد شفيق غربال يميل الى مجاملة عائلة محمد على ليكسب عطفا فيضمن البقاء فى وظيفته ، وكان

المعروف عنه أنه ينفذ فى وزارة المعارف سياسة الملك فى شئون التعليم ، وهى تنحصر فى معارضة كل توسع فى انشاء المدارس والمعاهد ... فليس من العـدل ، ولا من الانصاف ، ولا من الأمانة التاريخية أن يؤلف فى سنة ١٩٤٤ كتابا عن محمد على يسلك فيه مسلك المنافقين لا مسلك المؤرخين تملقا للملك فاروق ، وطمعا فى الاستزادة من عطفه السامى . وكانت الكتب المؤلفة عن محمد على موجودة بكثرة ، ولم تكن المكتبة العربية فى حاجة الى مثل هذا الكتاب» (١) .

وكتب بعض المؤرخين كتبهم من وجهة نظر حزبية، والمؤرخ الذى يفعل ذلك فانه يكتب تاريخ أمته من خلال مفهوم ومبادىء الحزب الذى ينتمى اليه . ويطول ويهول فى ذكر المآثر والاصلاحات التى قام بها حزبه ، ويغفل النظر عن أخطائه . ويحكمه التزمت والمراوغة والاحتيال فتتلون أحداث التاريخ بلون خـاص ، وهـكذا يكون التزييف .

ولم يكن الدكتور صبرى من هؤلاء أو هؤلاء ، وقد مر بنا كيف نادى عام ١٩٢٢ بجمع كلمة الأمة بتكوين حزب واحـد للنهوض بالبـلاد ، ورأى أن التوفيق بين

---

(١) كتاب السلطان حسين كامل لمحمد سيد كيلانى .

السعديين والعدليين فى مصلحة الوطن · كما مر بنا كيف قال فى كتابه عن الثورة المصرية (١٩١٩) أن الملك فؤاد لا شعبية له فصودر كتابه ومنع من دخول مصر ، وفصلنا فى غير هذا الموضع كيف ألف كتابيه عن الامبراطورية المصرية غيرة على تاريخ مصر الذى كان مقدرا لجماعة هانوتو أن تكتبه حسب الوجهة التى يريدها مليك البلاد · فلا جرم بعد ذلك أنه كتب تاريخ وادى النيل بروح وطنية ، وبمعايير علمية ، فتنزهت مادته عن التعصب ، وتحررت من القيود ·.

الشخصيات التاريخية

والتاريخ السياسى أكثر تعرضا للأشخاص الذين مارسوا وظائف سياسية ، أو قادوا جيوشا عسكرية ، لذلك يجب التنويه بهذه الشخصيات التى شاركت فى صنع أحداث التاريخ ، وساهمت فى تعميق مجراها ·

والشخوص التاريخية التى عرض لها وتناولها ، وضح معالمها ، وتغلغل فى فكر أصحابها تغلغلا أتاح له كشف مخططاتها وتحديد أدوارها ، والأفكار المتسلطة عليها ، وبين فى هؤلاء الرجال خصائصهم العقلية

والخلقية ، وأمزجتهم الذاتية ، حتى كأنك تقرأ تراجم وافية لهم ، تبين ملامح شخوصهم فى مستدق الأحوال ، ويكفينا أن نقرأ ماكتبه عن محمد على واسماعيل وعرابى وغاريبلدى ومازينى وغردون وبيكر وغيرهم ٠

في دار الكتب ومعهد الوثائق

منذ انشاء دار الكتب فى أواخر القــرن الماضى ، تولى ادارتها عدد ضخم من كبار الأساتذة ، وكان أول من أشرف على الدار بعض الألمان مثل : سيتا ، ستيرون ، فولرز ، ومور يتس شاده ، ومن بين المديرين المصريين لهذه الدار لطفى السيد ، ومنصور فهمى وعبد الحميد أبو هيف وتوفيق الحكيم •

ويبدو من استعراض الأسماء أن مديرى دار الكتب كانوا من رجال الفــكر ، أو المهتمين بشـــئون الثقافة والعلم •

وقد عين الدكتور صبرى مديرا لدار الكتب بالنيابة فى الفترة التى أصدر فيها سلسلة الشوامخ وبعدها ، ويعنينا هنا أن نوضح أهم ماتم انجــازه فى الدار فى الفترة التى تولى فيها بقصد خدمة الثقافة ونشرها •

كان من أهم أعماله فى الدار نقل مكتبة طلعت من وادى حوف الى القلعة لدراستها وفهرستها بطريقة علمية ، والطريقة التى يعنيها هى عمل دراسة وافية وليست فهرسة فقط توضح اسم المخطوط وعدد صفحاته ، وقد استدعى سكرتير هذه المكتبة لاحاطته بمحتوياتها ، الا أن هذاالسكرتير لم يلق المساعدةالواجبة من موظفى الدار .

ونظرا لاحساسه بقيمة ماتشتمل عليه مكتبة القلعة ، وتيسيرا للباحثين والدارسين ، اقترح عند انشاء هذه المكتبة «أن تضع الدار عربتها كل يوم أو يومين تحت تصرف الباحثين الذين يريدون الذهاب الى القلعة خصوصا وأن العربة تذهب كل يوم الى القلعة وتعود» (١) .

وفى مقال للدكتور صبرى نشرته مجلة «عالم المكتبات» (٢) لفت الأنظار الى ضرورة ترميم الكتب البالية ، والدوريات المهلهلة ، والمخطوطات التى أخذت تتغلغل فيها العتة ، وأشار الى أوجه القصور فى المجلات والصحف العربية والافرنجية ، ذلك أن بعض هذه

---

(١) مجلة عالم المكتبات عدد يناير وفبراير ١٩٥٩ .
(٢) مجلة عالم المكتبات العدد السابق .

الدوريات غير كاملة ، ورأى أن الدار يمكن أن تستوفي مجموعاتها الناقصة بالاعلان عن الأعداد والصحف والمجلات غير الموجودة وشرائها بأى ثمن ، وأثار نقطة خطيرة أخذت بها الدار بعد ذلك وهى أن تصور هذه المخطوطات النادرة والدوريات القديمة بالميكروفيلم حفظا لها .

وفى حديث صحفى معه نشرته جريدة المساء (١) فجر قضية هامة ، وهى أن هناك أكثر من أربعين مكتبة تاريخية مهددة بالتبديد والضياع بسبب ضرائب التركات ، واقترح حلا للحفاظ على هذه الثروة الفكرية القومية هو اخراج المكتبات العلمية من ضريبة التركات، والابقاء عليها ، ومنع العبث بها . ويكشف الرجل فى حديثه كيف ضاعت مكتبات كثيرة قيمة لم يفطن رؤساء دار الكتب الى شرائها والافادة منها مثل مكتبة المستشرق جياردو الذى أصدر مجلة «مصر» باللغة الفرنسية والعربية عام ١٨٩٤ ومكتبة الدكتور ماير طبيب العيون ، ومكتبة البارودى التى فقدت وبيعت فى الخارج ، ومكتبة جعفر والى وغيرها .

وكل مايتمناه السربونى من هذا مساعدةالباحثين

(١) المساء فى ١٩ فبراير ١٩٦٤ .

على تطوير دراساتهم بتوفير المراجع والمصادر من مختلف الأماكن لهم ، والعمل بكل الطرق على صيانة هذه الثروات الوطنية .

وفي هذه الفترة التي قضاها في دار الكتب ، بدأ تنفيذ مشروع انشاء فروع للدار في أحياء العاصمة بعد ازدياد الطلب على الاستعارة الداخلية والخارجية .

وقد مثل الدكتور صبرى مصر في المؤتمر السابع عشر الذى أقامه الاتحاد الدولي للوثائق ولأسانيد في برن والذى أشرفت على تنظيمه الجمعية السويسرية للوثائق ، وذلك في أغسطس ١٩٤٧ .

وكان من المتفق عليه بين السربوني ووزارة المعارف أن يعين صاحب الترجمة في منصب مدير عام دار الكتب بمجرد احالة أحمد عاصم الى المعاش في ١٩٤٦/١٢/٣٠ ، ولكن نظرا لما كان بينه وبين السنهوري من خلافات أشرنا اليها ، فقد تم تعيين مدير جديد للدار في يناير ١٩٤٨ (١) أقل من السربوني في الدرجة والكفاءة العلمية ، ونظرا لهذا الوضع الشاذ قدم استقالته وقبلت (٢) في مارس ١٩٤٨ ، فرفع أمره الى القضاء ،

---

(١) كان الدكتور صبرى طوال عام ١٩٤٧ يقوم بوظيفة المدير العام والنائب في وقت واحد .

(٢) رفضت استقالته في بادىء الأمر ثم قبلت .

ثم أعادته الوزارة الى الخدمة فى مارس ١٩٥٠ وألحقته بجـامعة فؤاد الأول (القـاهرة الآن) ليدرس التاريخ الحديث .

***

وفى عام ١٩٥١ عين مديرا لمعهد الوثائق والمكتبات التابع للجامعة المصرية وكان وزير المعارف محمد رفعت ومدير الجامعة عبـد الوهاب مورو قد كلفا السربونى بمهمة ادارة المعهـد وتنظيمه فى مرحلته الانشائية ، فتجشم الكثير من الصـعاب فى تسـييره ، ولمـا كانت ميزانية المعهد صغيرة وعدد أساتذته وموظفيه لايكفى ، قدم استقالته مرتين ورفضت فى الحالتين .

وبعد قيام الثورة صدر مرسوم رقم ١٨١ لتطهير أجهـزة الحكومة من بعض الموظفين وقد جاء فى المـادة الأولى من هذا المرسوم :

«يكون فصل الموظفين غير الصالحين للعمل أو الذين بهم شوائب أو شبهات قـوية تمس كرامة الوظيفة أو النزاهة أو الشرف أو حسن السمعة ..»

وجاء فى المذكرة الايضاحية لهذا المرسوم بخصوص الحكمة التشريعية من صدوره : «ولما كانت الحكومة فى مقدمة الجهات التى يجب أن يشملها التطهير فتفتح بذلك

صفحة بيضاء فى حكم نظيف يقوم عليه موظفون عرفوا بالبعد عن شبهات العهد البائد ولم يعلق بهم من غباره وأدرانه مايجعلهم غير صالحين للنهوض بأعباء العهد الجديد وهم علة العلل فى المعونة على ماتم من فساد» .

وكانت الحكومة قد أصدرت هذا المرسوم وأعدت لجنة التنظيم التى كان يرأسها محمد محمد حسنين لتطهير الجهاز الحكومى من هؤلاء الموظفين المشكوك فيهم . وقد كانت هناك حزازات قديمة بين السربونى وبعض أصحاب النفوذ ، لذلك انتهزت هذه اللجنة فرصة التنظيم والتطهير الواسع للايقاع بالدكتور صبرى ، واستدعى للتحقيق معه فى شكوى طالب يدعى محمد حمدى عبد الباقى كان معهد الوثائق قد رفض قبوله فى نوفمبر ١٩٥١ ، وكان وقع التحقيق قاسيا عليه بطبيعة الحال ، واتهم المترجم له بالتزوير فى نتيجة امتحان المسابقة التى تقدم اليها الطالب المذكور ، وعلى هذا الاساس قدمت لجنة التنظيم تقريرها وأدرجت اسمه فى كشف الموظفين المطلوب فصلهم ، وبناء على ذلك صدر مرسوم ملكى بفصل الدكتور صبرى من وظيفته فى ٢٩ ديسمبر ١٩٥٢ .

فصل السربونى وبقى شفيق غربال المعروف بولائه للعهد السابق .

ونتساءل هل من أجل هذا الطالب مهما كانت صفته يفصل من الجامعة أستاذ كبير خدم مصر وتاريخها وآدابها ، وهل كانت لجنة التنظيم غيورة فعلا على هذا الطالب حتى تثأر له بهذا الشكل وتلجأ اللجنة الى مالجأت اليه ، أو أن هذا أمرا مدبرا وراءه ماوراءه من سوء النية ؟

وكيف يكون الدكتور صبرى موضع شبهة أو شك وتطلب منه وزارة الارشاد القومى (وهى احدى وزارات الثورة) بتاريخ ١٤/٩/١٩٥٣ (أى بعد الفصل) أن يكتب لها بحثا عن السودان · جاء فى خطاب الوزارة اليه «··· ووقع الاختيار على سيادتكم للمساهمة فى مشروع أعدته وزارة الارشاد القومى واختصتكم بالموضوع الموضح بعاليه ··» والموضوع هو ١ ـ العلاقات بين مصر والسودان ٢ ـ مشكلة السودان· وبتاريخ ٢٨/١/١٩٥٤ تسلم كتابا من الاذاعة المصرية «وهى جهة تتبع حكومة الثورة) جاء فيه «للتكرم بكتابة سلسلة من الموضوعات عن السودان» ·

وكيف يكون السربونى محل مؤاخذة ويصله خطاب من عبد الناصر زعيم الثورة عام ١٩٥٦ ليشكره على خدماته الوطنية ويتمنى له التوفيق فى أبحاثه بعد اصداره كتاب «قضية التدويل» ·

كل ذلك يوضح أن ماحدث له نوع من الفصل التعسفى الذى لا مبرر له غير الضغائن الشخصية التى كانت بينه وبين من فى يدهم تحريك الأمور والشخوص .

وعلى أية حال لم يعتبر الفصل «عقوبة تأديبية» وانما قصد به تطهير الادارة فلم يحرم من حقه فى المعاش الذى ظل يدير به حياته حتى لقى ربه .

وقد تألم كثيرا لما حدث له ، وكيف لايتضايق وهو يرغم على ترك عمله الذى أخلص له وألفه حتى صار جزءا منه ، وكأن حفنى ناصف ينطق بما فى نفسه عندما يقول :

ناهز الستين عمرى انما
لم أزل جم القوى جم الجداره
واذا لم يشك مثلى علة
هل من الحكمة أن يلزم داره

ولزم داره ولكنه لم يسكت ، فزاد الضيم عن شخصه بنفس أبية ، ورفع دعوى ضد الحكومة فى محكمة القاهرة الابتدائية الوطنية سنة ١٩٥٣ لتبرئته مما اتهم به ، ولتعويضه عما لحق به من ضرر أدبى ومادى .. ولكن هيهات .

قناة السويس

ويواصل الرجل الكتابة التاريخية موفور العزمات، مسدد الآراء ، فى ابراز الحقائق ، وتنـاول عظـائم الأمور ، وجلائل الأحداث •

أممت مصر قناة السويس عـام ١٩٥٦ وعلى أثر ذلك وقع العدوان الثلاثى الشهير وكان من أهم دوافعه اعادة قناة السويس مرة أخرى الى ادارة الغرب ، وتحت حماية جيوشه ، وكانت هذه الوقائع باعثا وحافزا مرة أخرى ليثب الى كتابة التاريخ فنشر مقالا فى جـريدة الأخبار بتاريخ ١٩٥٦/١٢/٣ عن دول اتفاقية ١٨٨٨ وبين أحقيتها فى استعمال القوة لطرد القوات المعتدية كما وضح فيها أن انجلترا وفرنسا هما اللتان انتهكتا هذه الاتفاقية فى أهم بنودها ، ودعا دول العالم التى تأثرت بتعطيل الملاحة فى القناة لمطالبة المعتدين بالتعويض

عما لحق مصر والدول الأخرى التى تعــرضت للخسائر وخاصة أن انجلترا تعترف بأن القناة تهم كل الدول ٠

وتطور هذا المقال حتى صار كتابا أصدره فى عام ١٩٥٧ تحت عنوان «أسرار قضية التــدويل واتفاقية ١٨٨٨» وقد آهــدى نسخة منــه الى الرئيس السابق عبد الناصر فأرسل اليه خطاب شكر وتقدير تضــمن وصفا وتقويما لكتابه قال الرئيس : «آوضحت فيه بما لايدع مجالا للشك حق مصر فى التأميم وأكدت أن هذا من صميم سيادتهاوأن بريطانيا هى التى خرقت اتفاقية ١٨٨٨ أثناء احتلالها لمصر وأن هــذه الاتفاقية تعطى الحق كاملا لمصر ٠٠» وقد أثبت خطاب عبد الناصر فى مقدمة الطبعة الثانية للكتاب ، وفى عام ١٩٥٨ نشر كتابا آخر يتعلق بالقضية المصرية هو «فضيحة السويس» وقد نشر فيــه وثائق هــامة تدين دىليسبس وتكشف خططه ، هذا فضلا عن تفسيره للسياسة الدولية القديمة والحديثة لقناة السويس وخليج العقبة وبهذا أوقع فى نفوســنا أنه مؤرخ ســياسى محنك على مســتوى الفهم والوطنية والمسئولية ٠

وقد رجع فى هذين الكتابين الى الوثائق الأمريكية

فى سجلات عابدين ، والمستندات الرسمية المطبوعة فى الكتاب الأصفر الفرنسى (١) ٠

والكتاب الأزرق الانجليزى ، ورسائل دى ليسبس ويومياته والدكتور صبرى وهو يتحدث عن القناة نجد فى ثنايا كتاباته معلومات كاثرة عن كل القنوات العالمية والممرات المائية الدولية مثل قناة بنما وقناة كيال والقناة التى كان من المزمع حفرها فى فرنسا بين بوردو ومرسيليا ، وممر باب المندب وجبل طارق والبسفور والدردنيل وغيرها مما يجعلنا نطمئن الى المادة العلمية التى قدمها لنا بدرجة كافية ٠

---

(١) جاء فى مجلة الهلال عدد مارس سنة ١٩٠٣ ٠

« المراد بالكتاب الأصفر كتاب رسمى للحكومة الفرنساوية يصدر كل عام وفيه ما أصدرته الحكومة فى ذلك العام من الأوامر والمنشورات أو التقارير أو نحو ذلك مما يتعلق بخارجيتها وعلاقتها مع الممالك الأخرى تجاريا أو ماليا وغير ذلك ، وأما سبب تسميته بالأصفر فاشارة الى لون غلافه وهو اصطلاح جرت عليه معظم دول أوربا واتخذت كل منهما مثل هذا الكتاب تصدره كل عام وتميزه عن كتب الدول الأخرى بلون خاص ٠ فالكتاب الأزرق لانكلترا والأصفر لفرنسا والأحمر لأسبانيا والأبيض لألمانيا والبرتغال والأخضر لايطاليا والولايات المتحدة الامريكية ٠

وأهم ماظفرنا به من الكتاب الثانى هو نشر النصوص الكاملة لبعض الوثائق الهامة مثل المشروع الفرنسي الذى قدمه مندوبو فرنسا فى الجلسة الافتتاحية لمؤتمر باريس بتاريخ ٣٠ مارس سنة ١٨٨٥ والمشروع الانجليزى الذى قدمه مندوبو انجلترا فى نفس الجلسة ويمكننا أن نقارن بين المشروعين لتلاحقهما ، واتفاقية الآستانة التى وضعت نظاما نهائيا يكفل حرية استعمال قناة السويس بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٨٨٨ . ونشر أيضا نصوص فرمان الامتياز الأول المؤرخ فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ ،وفرمان الامتياز الثانى المؤرخ فى ٥ ينساير ١٨٥٦ ، واتفاقية ٢٢ فبراير ١٨٦٦ . التى حددت الشروط النهائية التى صدق عليها الباب العالى وبمقارنتها ببعضها يتضح لنا المراحل التى مر بها الامتياز لحفر القناة .

والدكتور صبرى لم يكتف بايراد نصوص هذه الوثائق أو بتلخيصها ولكنه يقوم بتحليل بنودها تحليلا تاريخيا دقيقا ليصل الى أن انجلترا وفرنسا ليس لهما أو لغيرهما مايدعونه من حقوق فى قناة السويس المصرية .

وهذان الكتابان يبينان مشاركته الفعلية فى

الأحداث التى مرت بالوطن فى هذه الفترة وتكشف عن دوره القـومى الذى لم يتخل عنـــه فى كل الفترات السابقة .

وهـكذا يكون المؤرخ زخـرا للبـلاد بدفاعه عن قضاياها ، ويصير التاريخ من العوامل الباعثة للشعور الوطنى .

التحقيق والتأليف

بينه وبين مطران

ثم تطوف بالرجل ذكريات قديمة لرجلين كان بينه وبينهما مخالصة جزيلة ، ووداد أصيلة لم يعكر صفوها ملأمة ولا مألة ، هما خليل مطران وأحمد شوقى ، فراح يقلب صفحات كتبهما فلقى كثيرا من أدبهما مبعثرا فى عشرات الدوريات فعكف على جمع هـذا الشـتات فى كتابين كبيرين . فكان محققا ومؤلفا فيهما .

أما الكتاب الأول فهو «خليل مطران أروع ماكتب»

وقبل أن نتحدث عن هذا الكتاب نرى من الواجب علينا أن نلمح الى العلاقة الوطيـدة التى نشـأت بين الرجلين (مطران والسربونى) منذ بواكير هذا القرن ، فقد كتب صبرى ترجمة قصيرة لمطران ، وانتخب بعض قصائده التى تدل على سمو مكانته الشعرية وذلك فى كتابه «شعراء العصر» .

وفى عام ١٩٢٢ كتب خليل مطران مقــدمة بليغة لكتاب صبرى السربونى «تاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليا» أشار فيها الى مكانة صبرى العلمية والأدبية ، ونبه على صدق وطنيته وتضلعه فى الكتابة التاريخية بأسلوب جديد ومما ورد فى تقديمه : «٠٠ على أنه ليس هنا مكان التقريظ للاستاذ صبرى بأكثر من الالماع الى ماله من المنزلة التى كسبها بواسع عــرفانه ، وصــدق وطنيته معا ، وانما أحب قبــل الشروع فى الكلام على محاضرته التى أجده حين يحررها مؤرخا مدققا صافى الذهن ، شامل النظر للحوادث ، عجيب الفطنة للتماثلات منها جوهرا وان تخالفت عرضا أن أعيــد على ذهن من يقرأ هذه السطور شيئا من نفثات قلمه أديبــا محض أديب» ثم أورد فقرات من مقال له عن دقات الساعة ٠

وتتوطد الصــلة بين الرجلين على مــدار الأيام ، وعندما فارق خليل مطران دنيانا الى دار البقاء حزن السربونى عليه حزنا شديدا ، وظل يذكره فى مجالسه ، ويؤكد على شاعريته فى بحوثه ويدافع عنه «بحماسة قد تخرجه عن الحــلم» على حــد تعبير الاســتاذ وديع فلسطين ، وعنــدما أقيم مهــرجان حافظ ابراهيم فى يوليه ١٩٥٧ ألقى الدكتور صبرى محاضرة طويلة عن عصر حافظ أشار فيها الى مكانة مطران الراسخة لا بين

شعراء عصره فحسب بل بين شعراء العرب فى القديم والحديث ، ووضع قصيدته فى حرب طرابلس الغرب فى مكان رفيع الى جانب قصيدة أبى تمام «السيف أصدق أنباء من الكتب ..» وقال الدكتور صبرى «انه اذا كانت قصيدة أبى تمام «السيف أصدق ...» أكبر قصيدة حماسية فى العصر العباسى فان قصيدة مطران فى حرب طرابلس أكبر قصيدة حماسية فى العصر الحديث بل انه يوجد بين القصيدتين نسب يؤلف بينهما» .

ولم يكتف الدكتور صبرى بهذا وفاء لصديقه الكريم وانما قام بعمل كبير يستحق عليه التبجيل والتكريم فقد أصدر كتاب «خليل مطران أروع ماكتب» عام ١٩٦٠ وجمع فيه مقالات مطران النثرية من «المجلة المصرية» و «الجوائب المصرية» و «الأهرام» و «مجلة مصر الحديثة» و «سركيس» و «الهلال» وكلها مجلات وجرائد قديمة يرجع بعضها الى عام ١٩٠٠ مما جعل أكثر من جيلين لايعرفون شيئا عن نثر مطران ، وحتى الدراسات التى كانت تصدر عن الخليل لاتقف طويلا لتحليل كتاباته النثرية لعدم توفر ذلك لديهم ، وهذا هو الكتاب الذى يوصل الينا النثر المطرانى ويصلنا بشعره ، فهو مكمل له متآلف معه ، ويمكن القول أن كتاب «خليل مطران

روع ماكتب» هو الجزء الخامس من ديوان الخليل «فالكاتب هو الشاعر والشاعر هو الكاتب» على حد تعبير السربونى، أو كما قال العقاد «ان مطران الناثر كمطران الشاعر» وهذا الكم من المقالات المطرانية من المحال جمعه الا بعد عناء وعناية ٠

ويبرز هذا الكتاب عدة نواح فى حياة مصر ورجالها ، وماكان يجرى من أحداث فيها فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، فيتعرض الخليل للحياة الاجتماعية بالحديث عن الاصلاحية أو سجن الأحداث والمرأة الجديدة ٠ وتعطيف الحكومة الثنية على أهالى احدى المديريات التى أصابت الآفة محصولها الزراعى ، ويشتمل الكتاب أيضا على الناحية الفكرية ، ويضم بين صفحاته مادة نقدية هائلة ، يرجع اليها الباحثون فى معرفة رأى الخليل فى شعراء عصره والسابقين عليه واللاحقين له من أمثال البارودى واسماعيل صبرى وشوقى وحافظ واليازجى والبكرى والرافعى وعبد الرحمن شكرى وأبى شادى ، ويقف الكتاب أيضا فى كثير من فصوله على أحداث مصر السياسية وماقام به رجالها ٠ فيحدثنا عن عرابى والثورة العرابية ومصطفى كامل والبارودى ولايغفل الكتاب

الناحية الفنية فيسهب فى الحديث عن الموسيقى العربية ومطربيها من أمثال عبده الحامولى وابراهيم اللقانى ومحمد عثمان .

ودور الدكتور صبرى فى هذا الكتاب ليس عمل الجمع والرواية لنصوص متناثرة هنا وهناك ، ولكنه يوضح أمورا تفتقر الى الايضاح . ويناقش فى المقدمة آراء كبار الكتاب وخاصة من تأثر منهم بآراء المستشرقين فيوقعهم فى تناقض وخطأ ويأخذ عليهم عثرات ، وتكشف هذه المقدمة عن دراية كاملة بنقد الشعر ومذاهبه ، والنثر ومدارسه المختلفة ، فاذا انتقلنا الى فصول الكتاب ومادته ألفينا صبرى يناقش الخليل فى كثير مما كتب ، ويقوم بتصحيحات واجبة بعضها لغوى والآخر تاريخى .

فمن التصويب اللغوى رواية مطران فى فصل «بلاغة العرب» :

«... ويحمل ذلك قدمان كحرف اللسان» ويرى الدكتور صبرى أن هذا التعبير خطأ والصواب «ويحمل ذلك قدمان كحذو اللسان» لا كحرف اللسان كما روى مطران ، ويقول صبرى فى توضيح ذلك «الحرف هو الطرف أو الحد ، ولامعنى لتشبيه القدم بطرف اللسان،

الحذو الموازاة ، وقد استعملت الاعرابية هذه الكلمة استعمال مالكة لنواصى اللغة تريد أن القدمين صغيرتان مسحوبتان فى دقة على مثال اللسان ، وهذا أروع تصوير على لسان العذارى» وهذا التصحيح يدل على دقة النظر والتروى فى القراءة والمقدرة اللغوية العالية ، فهو لايشك فى الرواية فقط وانما يأتى باللفظ البديل الذى يستقيم معه المعنى مع التعليل والتبيين ٠

أما التصحيحات التاريخية فنضرب لها بهذا المثال يقول مطران فى فصل بعنوان «محمود سامى البارودى»: «٠٠٠ فمن استقصاء السوابق حصل لدينا أن اثارة الفتنة لم تكن من مذهب محمود سامى البارودى» ثم يقول «٠٠ ان حماقة عرابى ورعونة أعوانه الآخرين هما اللتان أضرمتا النار فى القطر وأفضيتا بالنتيجة من الاصلاح الى الافساد ، ومن الوفاق الى الذبح والجزر» وفى فصل آخر كتبه مطران عن عرابى يقول «ولئن كان عرابى قد أهدى وادى النيل جملة الى الانكليز الحاليين فيه الآن وعليه تبعة هذا الاهداء فى الحاضر والمستقبل فاننى قد سمعت بين الأصوات المرفوعة للقذف فيه أصوات كثيرين حملهم التملق وطلب المصلحة الذاتية على

اهداء البـلاد الى الانكليز قطعـة قطعـة فأى هـؤلاء عرابى» •

هذه بعض نصوص مطـران عن عـرابى وثورته الوطنية وليس خافيا فيها اتهام عرابى بالخيانة واثارة الفتنة فى البلاد واهداء مصر والسودان الى الانجليز ، وعين اليقين أن عرابى لم يقم بهذا الدور ، ولم يهمل صبرى السربونى هذه العثرة المطرانية فكان لابد من وقفة يوضح فيها الأمر ويعطى مالقيصر لقيصر ومالله لله ، فقال فى تعليقه على هذه النصوص «ان الثـورة العرابية لم تكن فتنة ، كانت ثورة وطنية قومية وليست حماقة عـرابى وأعـوانه التى أدت الى الفتنة وانمـا «دسائس الدولتين ـ يقصد انجلترا وفرنسا ـ والرجعية المصرية وعلى رأسها توفيق» •

وهكذا لم يقتصر دور السربونى فى هذا العمل على جمع المتناثرات ، وضمها فى كتاب متلاحق الصفحات ، بل قام أيضا بالشروح والتعليقات ، وتصحيح الأخطاء والعثرات ، أو كما وصفه الاستاذ العقـاد حين قال : «يعتبر من كتب الجمع والرواية ، كما يعتبر من كتب النقد والتأليف» (١) •

---

(١) قافلة الزيت عدد يونية /يولية ١٩٦١ •

وقد لفت صدور هذا الكتاب أنظار الأدباء والنقاد، فدبجت فيه المقالات فى مصر وخارجها بأقـلام العقاد، ووديـع فلسـطين، وحسن كامل الصـيرفى وجيـلى عبد الرحمن .

الا أن هؤلاء الذين تعرضوا لهذا الكتـاب بالنقد والتقريظ لفتوا نظر السربونى فى غير عنف أو تجريح الى قطع نثرية لمطران لم يجمعها فى هذا الكتاب لتلافى ذلك مستقبلا، وقد أشار العقاد الى كتاب «مرآة الأيام فى ملخص التاريخ العام» وكتاب مطران عن الدكتور شميل، كما كشف وديع فلسطين عن قطع نثرية أخرى لمطران مثل مقدمة كتـاب «ذكريات السودان» ليوسف نحاس وكتاب «الفلاح» ليوسف نحـاس أيضا، والذى ترجمه خليل مطران الى العربية عام ١٩٢٦ «وكتب له مقدمة نثرية بليغة كانت تسـتحق الاثبات فى كتـاب الدكتور صبرى» كما أشار الى محاضرة خليل مطران «عن اللغة العربية وذخائرها الأدبية قديمـا وحديثا» حيث أثبتها الدكتور صبرى ملخصة من مجلة المقتطف عام ١٩٣٠ مع أن هذه المحاضرة موجودة بنصها الكامل فى مجموعة محاضرات المجمع العلمى العربى بدمشق جـ ٣ سنة ١٩٥٤، واذا كان لنـا من تعليق على ماقاله

الاستاذان الجليلان فهو أن الدكتور صبرى كان يعرف كل هـذه الكتابات المطـرانية ، وقـد رأيتهـا فى مكتبته واستثنى من هذا نص محاضرة «اللغة العربية وذخائرها الأدبية ..» ولم يكن قصده فى كتابه جمع كل آثارخليل مطران النثرية وانما قصد الى جمع روائعه ، أو ماأعتقد هو أنه رائع ، وواضح من عنوان الكتاب «أروع ماكتب» لا كل ماكتب ، ولهذا صرف اهتمامه الى جمع مقـالات أولى بالاشارة ، وأعلى فى العبارة ، وأدخل الى النفوس، وأجمع للفائدة ، وقد تكون هذه القطع النثرية التى أشار اليها العقاد ووديع فلسـطين من روائع مطـران ونفائسـه النثرية ، الا أن لكل أديب ذوقه الخـاص به وتقديره للأشياء ، ويقينى أن صـبرى السربونى لم يعرض عنها لقلة معـرفته بها ، ولكن لأنهـا لم توافق مزاجه ، وعلى أى حال فهـذه الأشياء ليست نقيصة فى الكتاب الا اذا كان غرض المؤلف هو الحصر لا الاختيار .

رسالة من مطران الى السربونى :

بعث خليل مطران برسالة قيمة الى الدكتور صبرى عام ١٩٤٤ يوجز فيها رأيه فى كتـاب السربونى عن

امرىء القيس ، وقيمة الرسالة ترجع الى أن مطران أثبت فيها رأيا فى نظم الشعر وخاصة الجاهلى منه ، ورأى خليل مطران فى الشعر له مكانته العالية خاصة أنه من أكبر شعراء العربية فى عصورها الحديثة ، أما القيمة الأخرى للرسالة فانها تضمنت ستة أبيات فى تقريظ كتاب السربونى لا أظن أنها جمعت فى ديوان الخليل ذى الأجزاء الأربعة ٠

وقد نشرنا الرسالة فى مجلة الأديب عدد يونيه ١٩٧٨ ، وكنا نعتقد أنها لم تنشر من قبل ، الا أن الدكتور محمد رجب البيومى كتب فى أحد أعداد مجلة الثقافة المصرية يقول ان الرسالة نشرت بنشرها وشعرها فى أحد أعداد مجلة الرسالة عام ١٩٤٤ ، فنشكره على هذه الفائدة ، وقد أكد بكلامه هذا صحة الرسالة التى نثبت نصها هنا لان السربونى لم يجمعها فى كتابه السالف الذكر :

«حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد صبرى بك
بعد التحية والاكرام ٠٠

الداء الذى ساورنى فى هذه الأيام عاقنى عن أداء واجب الشكر لما أتحفتنى به من التحفة الغالية وأعنى بها النسخة من كتابك «الشوامخ» ٠

ومازلت الى هذا اليوم غير قادر على بذل أى مجهود فكرى يعتد به غير أننى بوجه اجمالى موجز أرى أن الشعر كلما اتصل بالفطرة كان من الفن الأصيل وكلما بعــد عنها أفضى الى التعمل وهو فن آخر أى فن الصناعة ، وشتان بين الأصل والنقل وبين الابداء والمحاكاة ·

ألم تر الى شعر هوميروس كيف بقى عند الفرنجة بمنزلة الينبوع الصافى الذى استقى منه جميع أدبائهم على اختلاف مواطنهم ومذاهبهم وأهوائهم ونزعاتهم ·

ولقد تكلف الفــرنجة ماتكلفوا ليفهموا هوميروس وليقتبسوا من لغته القديمة المجهولة ما اقتبسوا ونحن لم نتكلف ولا نتكلف شيئا لنفهم امرأ القيس وأضرابه من أيام الجاهلية فيغيبون عنا ونحكم عليهم لا لهم ·

ولولا أنك جئت تفهمنا معانى امرىء القيس ولولا الدكتور طه حسين بك وما جهد ليشرح به آيات الشعر الجاهلى الصادق النسب ولولا آخر كتاب للاستاذ عباس محمود العقاد فى جميل بثينة لبقيت كنوز الشعر الجاهلى بعيدة عنا نأخذ منها عن الأجانب مانأخذ ولانفقه أن لها عندنا أصلا كريما جديرا بأن نعنى به ·

(٢)

حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد صبري بك

بعد التحية والإكرام —

الداء الذي ساورني في هذه الأيام
عاقني عن أداء واجب الشكر لما أتحفتني
به من التحفة النادرة وأعني بها النسخة من
كتابك "الشوامخ".

وما زلت إلى هذا اليوم غير قادر على بذل
أي مجهود فكري يعتد به غير أنني بوجه
إجمالي موجز أرى أن الشعر كلما اتصل
بالفطرة كان من الفن الأصيل وكلما بعد عنها
أفضى إلى التعمل وهو فن آخر أي فن الصناعة
وشتان بين الأصيل والمتعمل وبين الابتداء
والمحاكاة.

ألم تر إلى شعر هوميروس كيف بقي
عند الإفرنجة بمنزلة الينبوع الصافي الذي
يستقي منه جميع أربابهم على اختلاف ألسنتهم
ومذاهبهم وأهوائهم ونزعاتهم

ولقد تكلف الإفرنجة ما تكلفوا ليفهموا
هوميروس وليقتبسوا من لغته القديمة المجهولة
ما اقتبسوا ونحن لم نتكلف ولو تكلفنا شيئاً
لنتفهم امرئ القيس وأضرابه من أيام الجاهلية
فيغيبون عنا ونحكم عليهم لا لهم

ولولا أنك جئت تفهمنا معاني امرئ
القيس ولولا الدكتور طه حسين بك وما
جهد ليشرح به آيات الشعر الجاهلي العالي النسب
ولولا آخر كتاب للأستاذ عباس محمود العقاد
في جميل بثينة لبقيت كنوز الشعر الجاهلي
بعيدة عنا تأخذ منها عند الاحتياج ما نأخذ ولو
لقلت أن لا عندنا اهتماماً جدياً إلا نشتغل به

بعد كتابة ما تقدم على عنونة أوجز

إليك ثنائي الخالص عليه بأبيات جرت

على قلمي حين فرغت من مطالعة كتابكم هذا:

بعد ألف وبعد بضع مئات أنصفت عبقرية الفحول

رفع الستر عن جلال امرئ القيس فسفرن آياته عن جليل

رد صبري الواهم فتجلت من غناء آيات فن جميل

وإذا الحسن نتدعه حديث طالب الحسن في العتيق الأصيل

آية الفن جوهر ليس والأعراض تمضي ما بين جيل فجيل

ذلك الرأي ما أبنت وهل أبلغ مما أقمت من دليل

وفي الختام أكرر للأستاذ الكريم حمدي وشكري

وأهدي إليه أزكى التحية مع الاحترام

المخلص

خليل مطران

١٨/٤/٤٤

صورة خطية من الشاعر خليل مطران

الى الدكتور صبرى عام ١٩٤٤ ٠

بعد كتابة ماتقدم على عــلاته أوجــه اليك ثنائى الخالص عليك بأبيات جــرت على قلمى حــين فرغت من مطالعة كتابك وهى :

بعــد ألف وبعــد بضــع مئسات
نصــفت عبقـــرية الضــليل
نفى الستر عن جلال امرىءالقيس
بســـفر من البيـــان جليــل
رد صـــبرى الواحـــــة فتجلت
مــن خفــاء آيــات فن جميــل
واذا السـن ند عنــه حــديث
طلب الحســن فى العتيق الأصــيل
آفــة الفن جهله كيف والأعــلام
تطــوى مابين جيــل فجيل
انمــا الرأى ما أبنت وهـــل
أبلغ ممــا أقمته من دليــل

وفى الختام أكرر للاستاذ الكريم حمدى وأهدىاليه أزكى التحية مع الاحترام

١٩٤٤/٤/١٨

المخلص : خليل مطران

الشوقيات المجهولة
مدخل لتاريخ مصر الأدبى والسياسى

«أعترف أننى شخصيا وقفت مبهورة أمام هـذه الأضواء التى ألقتها الشـوقيات المجهـولة عـلى تلك المرحلة من تاريخنا ، وكنت بين حين وآخر أشعر بمـا يشبه الأسى والخجل لجهلى بأحداث كبـار صنعت تاريخ قومى ووطنى» .

(بنت الشاطىء ـ الأهرام فى ٥ يناير ١٩٦٢)

يدل الجهد الذى بذل فى الشوقيات المجهولة على أنه مازال للأدب عشاق ، وللفكر رواد ، فقد راض الدكتور صبرى نفسه على البحث وراء المجهول ، ولم يضن بجهده ، وكأنه صالب الحديد ، ويبدو أن فى البحث وراء المجهول بهجة تستدرج الباحث ، وفى تحـرى الحقيقة أمتـاعا يستهوى الدارس ، كما أن العثور على شىء من المجهول يجعل الانسان يسـتعذب الشـقاء ، ويمضى فى البحث

ليظفر بكل شيء حتى يشبع طمحاته ، ولاشك أن حب المعرفة ، والتطلع الى الاستعلاء ، وتأكيد الذات هي وراء البحث عن كل مجهول .

ويتضح لنا من قراءة الشوقيات المجهولة أن جامعها قد استملك طرائق البحث، واستمكن من مذاهب الكتابة، فلم يصغر الخبر المستطير ، ولم يكبر الحدث الصغير ، وانما وضع كل شيء في حجمه بما يستحقه ، وانتقل بنا في سفريه الكبيرين من قديم الى مستجد ، ومن كريه الى مستحب ، داحضا في بحثه الأباطيل ، مصححا للأغاليط، فتلاقت في كل هذا فطرته وفطنته .

ولانشك في أن أكثر القصائد المجموعة منتحلة ومنقولة من مظانها ، وقد ترسخ هذا المجهود ، وأزهر هذا الأدب ، بعد أن وضع د. صبري هذه الأشعار في اطارها التاريخي والأدبي في عصر ناظمها ، ونقرر أن بعض ماوصل اليه يعتمد على الفروض في بعض الأحيان، وهذا قابل للنقد اذا قامت الحجة المعارضة .

وقد حصلت الشوقيات المجهولة على تقدير الأدباء ، وحققت مكافأتها ، بما كتب عنها ، ورفعت مقام صاحبها ، وصارت من مفاخر أعماله .

قام الدكتــور صــبرى بدورين كبيرين فى عمله الضخم هذا ، الدور الأول هو تقــديم آلاف الأبيــات لشوقى التى لم تجمع فى الشوقيات المعلومة لدى كثير من الأدباء والقراء · وهذه القصائد التى جمعها ستبقى لشوقى مهما قلنا فى آمر مكتشفها ، وحشدنا العبارات الكبيرة فى مبــاركة مســعاه ، ومهما قلنا فى تنويهه بقصائد طال خمول ذكرها بل نســيانها ، وبشــماخة الأشعار التى أوردها ، فانه لن يبقى لصبرى السربونى الا فضل السبق فى كشفها وتقديمها فى مجلدين يسهل الحصول عليهما ، ويمضى النظر متأملا فى مادتهما ·

أما الدور الثانى فهو تأريخ هذه القصائد ، وذكر مناسباتها ، وسرد مادار حولها من مناقشات وانتقادات ورده عليها ، وبيان مدى نفوذ هــذا الشعر فى عصره وتأثيره فى نفوس الشعراء والنقاد وقد اقتضاه هذا أن يقلب صفحات كثيرة فى تاريخنا الأدبى والسياسى ، حتى جــلا غامض هــذه القصائد ، وهــذا هو الجهد الباقى للدكتور صبرى على مــر الزمان ، والذى يحسب له ، ويعلى من قدره كباحث آصيل ، ومؤرخ للأدب ، ومؤدب لقصائد شوقى التاريخية ·

وهــذا الدور الذى يختص به وينسب اليــه جمله يتحدث عن صحافتنا الأدبية ، منذ أواخر القرن الماضى، ومطالع القرن الحالى ، فجرى قلمه بكتابة نبذ وشذرات عن بعض المجلات التى كانت تصدر فى هذه الفترة ، والتى لايرجع اليها الباحثون كثيرا رغم مافيها من فوائد يجدر بالقراء معرفتها ، ويجمل بالأدباء درسها ، وذلك مثل النبذ التى دونها عن مجلة «الزهور» لأنطون الجميل و «الجريدة الأسبوعية» لطاهر حقى ، و «الواعظ» لمحمود سلامه و «خيال الظل» لحافظ عوض ، وجريدة «الفلاح» لاليــاس حموى ، ومجلة «المحيط» و «مجلة المجــلات العربية» • ليس هذا فحسب بل انه يشير الى كتب هامة ما أحرانا بالرجوع اليها حين نقــرأ تاريخ أدبنا مثل «تاريخ آداب اللغة العربية» الذى ظهر عام ١٨٩٧ لمحمد بك دياب وكتاب «الآداب العربية فى القــرن التــاسع عشر» الذى صــــدر عــام ١٩١٠ للأب لويس شــيخو اليسوعى •

ومما يجدر اثبــاته ونحن نتحدث عن الشــوقيات المجهولة باعتباره كتابا يدخلنــا الى تاريخنــا الأدبى المعاصر تأريخ السربونى للملاقة بين اسماعيل صــبرى وشوقى ، ومناقشته لآراء نقاد ذلك الزمن الذين انتقدوا

«شوقى» مثل انتقاد داود عمون ، وقد كانت بينه وبين شوقي معركة أدبية انتجت هجاء شعريا مرا ، ونقدا نثريا تزيا بزى السياسة ، ومن المعارك النقدية التى تضمنتها الشوقيات المجهولة نقد اليازجى لرواية عذراء الهند فى مجلة البيان عام ١٨٩٧ ، ونقد محمد المويلحى للشوقيات فى «مصباح الشرق» عام ١٩٠٠ ، ومن خلال هذه المعارك الأدبية حول شعر شوقى نتعرف على مبادىء النقد التى كانت سائدة فى هذا الجيل ومدى تفهمهم للأدب فى عمومه ، وللشعر بصفة خاصة · كما أثبت الدكتور صبرى المعارضات الشعرية ، سواء معارضات الشعراء المحدثين بعضهم لبعض ، آو معارضتهم للشعراء القدامى ، ويتحدث عن الشعر الرمزى أيام الاحتلال ، ويفك هذه الرموز فى ابانة ووضوح ، ويشتمل الكتاب على ذكر أدباء كان لهم مكانتهم فى جيلهم ، ولم يعد لهم ذكر كبير الآن مثل صادق عنبر وغيره ، وأورد أحداثا أدبية كثيرة جرت فى وقتها ، وأوضح ملابسات حدوثها مثل عام الكف ، وعام الكفء ، وعام عمر ، وعام الخف، ومن بين هذه الأحداث حديثه عن الرقابة على الصحف فى عهد السلطان عبد الحميد وماكتب فيها · ولارتباط شعر شوقى بالموسيقى والغناء جرى قلم السربونى بالكتابة عن ذكر المطربين من أمثال زكى عكاشة ،

ومحمد عثمان ، وعبد الحى حلمى وعبده الحامولى ، وعبد الوهاب ، وحديثه عن مؤتمر الموسيقى عام ١٩٣٢ ومادار فيه وعن حفلة افتتاح معهد الموسيقى الشرقية عام ١٩٢٩ كما صحح قصائد وأغانى كانت منسوبة الى غير أصحابها مثل أغنية اسماعيل صبرى «الحلو لما انعطف» كانت منسوبة خطأ فى كتاب «تراثنا الموسيقى» للشيخ محمود درويش ، وبمناسبة المواويل التى كان ينظمها شوقى واسماعيل صبرى يتطرق الحديث الى العامية والفصحى وأقوال سلامة موسى فى هذا الشأن ، ورد مجلة «الزهراء» عليه ٠

هذه أمثلة محدودة لما ورد فى مقدمات قصائد شوقى المجهولة وهوامشها ، وهى تشتمل على معلومات أدبية ونقدية وفنية ضخمة أبانت عن أبيات شوقى ، ووضحت الجو الأدبى الذى قيلت فيه ، وهذه المعلومات الكثيرة تجعلنا ننظر الى كتاب «الشوقيات المجهولة» على أنه مدخل الى تاريخنا الأدبى والنقدى فى العصر الحديث ٠

فاذا انتقلنا من المدخل الأدبى الى المدخل السياسى والتاريخى نجد أدلة كاثرة على هذا لاتغفلها عين الباحث وهو ينظر فى هذين السفرين الكبيرين ،

فهو يتناول أحــداثا تاريخية فى مناســبات قصائد شــوقى الســـياسية ، ولانبعــد كثيرا فاننــا نجــد حــديثا عن حــادثة الحــدود عـــام ١٨٩٤ ، وحــادثة فاشودة عام ١٨٨٥ التى شغلت الصحافة والرأى العام فى مصر حينا ، ويحكى قصة الاســتعمار وتقســيمه للامبراطورية المصرية فى أفريقيا ، ويصور جو الصراع الذى كان بين الخديو عباس وكرومر ، ويسرد أخبــار المدنية العربية والاسلامية فى جنوب السودان ووسط أفريقيا ، وكيف قاومها المستعمرون ، وبين دور انجلترا فى السودان حتى اشتركت مع مصر فى احتلال السودان عــام ١٨٩٨ ، وذلك فى تمهيده وتعليقه على قصــيدة شوقى «تهنئة الجيوش المظفرة على الحدود لفتح زريبة الأمــير محمود» ويتناول الاحتفــال باقامــة تمثــال دى لسبس مؤسس القناة ، ويمتد الحــديث الى مؤتمر باريس ١٨٨٥ لعمل اتفــاقية دولية لتأمين القنــاة ، ويعرض أحداث الثــورة العــرابية فى عدة صفحات توطئة لقصائد شوقى فى هجاء عــرابى ، ويكشف عن أحداث لم يتناولها الذين أرخوا للثورة العرابية مما يدل على أن الثورة العرابية مازال يكتنفها بعض الغموض ، وفى الكتابين نطــالع احتفال المصريين بســد أسوان ومعلومات عن حادث دنشــواى وماقالته الصحف فيه ،

ونقرأ موضوعات بالغة الدقة عن عصر كرومر وحفل توديعه وما قيل فيه وفي أعوانه من شعر ونثر مع القاء الضوء الكاشف على شخصيات عديدةاحتجب ذكرها الآن، ويشير في شيء من الايضاح الى مؤتمر الأقباط الذى عقد في أسيوط عام ١٩١١ بعد مقتل بطرس غالى عام ١٩١٠ ، ويعرض لبعض التفاصيل التاريخية حول هذا الموضوع وذلك من خلال قصيدة شوقى التى تتناول هذا الموقف :

غال فى قيمة ابن بطرس غالى
علم الله ليس فى الحق غال

وكانت تقتضيه بعض القصائد أن يلقى ضوءا ساطعا على بعض الأحداث العالمية ، ولم يأل جهدا فى هذا فتحدث عن الصين وبعض أحداثها فى العصر الحديث ليمهد لقصيدة شوقى « لمن المساكن كالمقابر » كما تحدث عن ثورة «البوكسير» (الملاكمين) وهى جمعية سياسية سرية كانت تقاوم الاستعمار فى الصين وذلك فى تقديم قصيدة شوقى :

ليعنا كل معبود معين
نحن حزب البوكسير المتفقين

وكان يستطيع أن يثبت هــذه القصائد دون هــذه المقدمات الوافية التى توضحها ولكن قراءة الشــعر فى ضوء هذه المعلومات تصبح أكثر جلاء ، وأظهر معنى •

ونكتفى بايراد هذا القدر من المعارف التاريخية والتى دللنا بها على أن الشوقيات المجهولة تعتبر الى حد كبير مدخلا الى فهم تاريخنا السـياسى المعـاصر ، وقد وصف الشاعر محمود أبو الوفا الشوقيات المجهولة بقوله «هذا الكتاب موسوعة من الشعر والأدب والفن والتاريخ لايكاد الانسان يعرف فيها هل هو أمام عمل أدبى كبير أم هو أمام عمل تاريخى خطير» (١) •

قيمة الشوقيات المجهولة :

عندما طبع ديوان شوقى بأجــزائه الأربعــة ، لم يحقق تحقيقا وافيا يبين ظروف كل قصيدة ومغزاها ، مما جعل كثيرا من قصــائد الديوان يلفها الغموض ، ونضرب مثلا لذلك بقصيدة شوقى التى وردت فى الجزء الأول من الديوان تحت عنوان «الصليب الأحمر» ومن يقرأ هذه القصيدة يدرك أن شوقيا حكيم واعظ يحث

(١) قافلة الزيت عدد ابريل /مايو ١٩٦٢ •

الشـباب على الالتزام بالهـدوء والتخلى عن الأحقـاد والأضغان ، هذا فضلا عن أن القصـيدة غير مؤرخة ، ومثل هذا الشعر يمتنع على من رامه مقـاصد قائله ، وغامت على من آمه حقائقه ، وعدم فهم القصد يوجه فى النفس ملة ونبوة • أما المناسبة التى نظمت فيها القصيدة فهى ظروف الحـرب العـالمية الأولى ونشرتها صحيفة مصر فى ٤ ديسمبر ١٩١٤ تحت عنوان «شاعر الشرق يخاطب المصريين والانجليز» وهذا العنوان يفسر المعانى التى اشتملت عليها القصيدة فهو يخاطب شباب المصريين ويحثهم على الرضا عن أعمال الانجليز وعـدم الثورة في وجوههم كما يخاطب الانجليز ويذكر مناقبهم، ويصف جنودهم بأنهم :

كجنود عمرو أينما ركزوا القنـا
عفوا يدا ومهنـدا وسـنانا

وهذا أسوأ مايمكن أن يصدر عن مصرى فى زمن الاحتلال (راجع كتاب السلطان حسـين كامل للاسـتاذ محمد سيد كيلانى) ولسنا فى معرض ادانة شوقى ولكننا نقول ان هذه القصيدة على سبيل المثال لن تفهم معانيها فى غيبة تاريخها ، وفى عدم اثبات المناسبة التى قيلت فيها ، وهذا هو الدور الذى أداه الدكتـور السربونى

عندما جمع الشوقيات المجهولة فأرخها ، وأثبت لكل قصيدة مناسبتها ، وبهذا يتضح الشعر وتدرك معانيه ، وتحدد أغراضه ، وعلى هذا فالشوقيات المعروفة يجب أن يعاد طبعها وشرحها على غرار الشوقيات المجهولة ٠

وتبدو قيمة التحقيق والبحث وراء الحقائق والأحداث والقاء الضوء على الشخصيات التى كانت لها أدوار فيما جرى من وقائع جسيمة فى مصر فى مطلع هذا القرن ومثال ذلك هذا البيت :

خلفوا على باب الوكالة فارسا
فدعوا اليهم فندلى وبويلا

وقد يقول قائل ان البيت يمكن فهمه فى سياق القصيدة ، ولكنى أقول أن المشكل هنا هو الأسماء التى وردت فى البيت ، وليس المعنى المرتبط بما قبله وما بعده ، وقد قام السربونى بايضاح الأسماء التى قرأناها فى البيت ، والأدوار التى أسندت اليهم ٠ والاسم الاول «فارس» هو فارس نمر رئيس تحرير المقطم ٠ المدافع عن سياسة الانجليز فى مصر ، «وفندلى» كان سكرتيرا للوكالة البريطانية ، وكان ينوب عن كرومر أثناء غيابه ، وسبق له اتهام الصحافة الوطنية بأنها أعطيت رشوة لتكون ضد الحكومة ٠ و «بويل» «كان

المؤثر على سياسة كرومر والموصى اليه بما يفعله شأن الراهب كريسى فى تأثيره على ديشيليو» «كما أن سعة اطلاعه على اللغة العربية جعلته الواسطة الوحيدة بين المصريين والمعتمد الذى جاهر مرة أنه لايعرف من اللغة العربية الا «مفيش فلوس» » ٠

هذا هو الجانب الذى يحسب للمحقق ، فان شعر شوقى من هذا النوع بغير شرح وابانة يقرأ ولايفهم ٠

وقصيدة «صداح ياملك الكنار» تقول عنها د ٠ بنت الشاطىء (١) «وابتسم ضاحكة من سذاجة انفعالى بقصيدة «صداح ياملك الكنار» وقد كنت أنشدها فى الندوات والمحافل الأدبية ، وفى يقينى أنها دفاع فى قضية تحرير المرأة ، ومواساة شاعر لباحثة البادية ، وبنات جيلها بين قضبان السجن» ٠ وتقول «ولم أكن أدرى انها رسالة الشاعر الى الوردانى فى سجنه حتى أعاد الدكتور صبرى نشر القصيدة فى الشوقيات المجهولة ٠ وحل رموزها ، فعدت أطالعها بانفعال جديد، بعد أن انكشف السر ، وكذلك فعلت مع قصيدة «ورد الربيع» التى حسبناها زمانا من وحى الطبيعة ، وغاب عنا الرمز بالورد الى الوردانى» ٠

---

(١) الأهرام فى ١٩٦٢/١/١ ٠

وهذه القصيدة التى أشارت اليها د. بنت الشاطىء منشورة فى الشوقيات المعروفة ، وقد غمض فهمها حتى على كبار أدبائنا ، ولكن بعد ذكر ملابساتها ، ووضعها فى جوها التاريخى جعلها سهلة القراءة ميسورة الفهم .

ولاترجع قيمة الشوقيات المجهولة الى هذا فقط ، ولكن جامعها يصحح فيها بعض تواريخ قصائد الشوقيات المعروفة ، فقصيدة «ياشباب الديار» مثبتة فى الديوان الذى أشرف على طبعه شوقى بنفسه وذكر أن تاريخها ١٩٠٦ ، والصحيح أنها نشرت فى عام ١٩١٤، وقصيدة «هنيئا أمير المؤمنين» مؤرخة خطأ فى سبتمبر ١٩٠٥ بدلا من أغسطس كما صحح تاريخ قصيدة «كبير السابقين من الكرام» فقد قال ناشر الديوان أن القصيدة قيلت بعد خطبة رياض فى ٨ يونية والثابت آنها نشرت فى ٦ يونية ١٩٠٤ .

كما قام د. صبرى بتحقيق ظهور الشوقيات المعروفة والثابت على غلاف الطبعة الأولىأنه طبع بمطبعة الأداب والمؤيد بمصر سنة ١٨٩٨ ، وقد أثبت الدكتور صبرى بالأدلة القاطعة أنها ظهرت عام ١٩٠٠ ، وصحح تاريخ الفترة الدراسية التى قضاها شوقى فى فرنسا

والتى ظلت تعرف عند كل الذين درسوا شوقى مثل أحمد عبد الوهاب وأحمد زكى باشا صديقه وزميله فى الدراسة بأنها تبدأ من ١٨٨٧ وتنتهى عام ١٨٩١ ، وقد أثبت المحقق بالبينة وعلى جهة التفصيل أن هذه الفترة تبدأ فى ١٨٩١ وتنتهى فى نوفمبر ١٨٩٣ ٠

منهج السربونى فى جمع الشوقيات المجهولة :

أول مانلحظه فى الشوقيات المجهولة هو تأريخ هذه القصائد ، وذكر مناسباتها فى ممهداته ومقدماته التى تعتبر من متممات القصيدة ، وتأريخ القصائد داء قديم فى بحوث السربونى ، وسبق له تأريخ الكثير من قصائد البارودى ، وعندما سافر د٠ صبرى عام ١٩٢٣ الى فرنسا لنيل شهادة الدكتوراه ، وكان برفقته أحمد شوقى ، انتهز هذه الفرصة ، وطلب من شوقى أن يؤرخ حياته وشعره ، ولكن «شوقى» أساء الظن بالدكتور صبرى فقال له : «عايز كام» فأجابه «مش عايز حاجة» وانتهى الموقف عند هذا الحد ، ومضى على هذا الحدث زمان ، وفى عام ١٩٦١ ، ١٩٦٢ صدرت الشوقيات المجهولة محققة ٠ ومؤرخة ، ورتب فيها أدب شوقى على حسب تواريخ صدوره مع التنبيه على مواضع نشره ٠

جمع الدكتور صبرى حوالى أربعة آلاف بيت من الشعر ، وقد كان بعض هذا الشعر يحمل اسم شوقى بصريح العبارة ، بينما بعضه الآخـر نشر بتوقيعات رمزية مثل سائح . ش ، أنا . شرم برم. وهذه القصائد التى لاتحمل اسم شوقى أثارت شكوك بعض الناقدين ، ولكن جامعها كان يعرفها لأن آنفاس شوقى نمامة عليها «وهذه الأنفاس النمامة التى تؤلف بامتزاجها بالأسلوب امتزاج الروح بالجسد ، ملامح الشخصية ، وقد دلتنا فى كثير من المواطن على شـعر أحمد المنشـور بامضاء مستعار» «كما أن هذا الشعر المجهول كثيرا ماكان ينبه الأصداء البعيدة النائمة فى فؤادنا فنستدل بها عليه» ومعنى هذا أنه كانت تتسلط عليه دلائل شعر شـوقى ، ويتبدى له أنه استكشف خصائص شعره الحقيقى ، تلك الخصائص التى يدركهـا قراء الشـوقيات ويثقون فى صحتها ، وهذه الأنفاس ذكرته بشعر شوقى الذى كان يطالعه فى أوقات سابقة . ولكن هذه الطريقة ليست حاسمة فى معرفة شعر أى شاعر ، وليس ببعيد أن يخطىء الباحث ، وتختلط عليه الأنفاس ، وعلى سبيل المثـال قصيدة «ملح وآداب» ج ١ يتشكك فيها جامع الشوقيات نفسه فيقول فى هامش ص ٢٢٢ هذه القصيدة لأحـد اثنين لا ثالث لهما أحمد شوقى وتوفيق البكرى ، وأيضا

أغنية «أهون عليك» من نظم يونس القاضي ، وأغنية «أحب أشوفك كل يوم» من تأليف حسن أنور ، وان كان الدكتور صبرى أثبتهما من منظوم شوقى ، وليس معنى ذلك أن صاحب الشـوقيات المجهـولة اعتمد على ذوقه الخالص فى التعرف على أنفاس شوقى فى شعره ، ليثبت أن هذه القصائد له ، وانما كان يدله البعض على قصائد لشوقى من أمثال عبـاس حسن وعلى سرى وكان يرجع أحيانا الى أصدقاء شوقى ومعاصريه من أمثـال طاهر حقى صاحب «الجريدة الأسبوعية» •

وقد اسقط الدكتور صبرى كل ركيك غث من شعر شوقى وخاصة المديح من قصـائد كثيرة ، وعلل ذلك بشيئين • الأول كراهية شوقى للمديح المتكلف والثانى أنه ليس فى مديحه من جديد المعانى ، وحديث الأساليب الا القليل • وقبل أن نحكم للدكتور صبرى أو نحـكم عليه فى اسقاط بعض شعر شوقى نوضح أن الرجل كان يتبع منهج الانتقـاء والاختيـار فى كل شىء حتى فى حياته الخاصة ، وفى كتابه «خليل مطران أروع ماكتب» لم يجمع كل مانثر مطران وانما اختار جمع روائعه فقط كما يدل عنـوان الكتـاب على ذلك ، وعنـدما صنف «كتالوج» لمكتبته الخاصة طبعه بالفرنسية وجعل عنوانه «Catalogue partial et raisonné» لم يحشـد فيـه كل

أسماء الكتب التي تضمها مكتبته الضخمة ، وانما أثبت أسماء الكتب الكبيرة والشهيرة الأساسية فقط ليبرز قيمة مكتبته وهو بطبيعته لايقتنى الا مايرضى مزاجه ، ويوافق ذوقه · وقد تصرف في شعر شوقى بهذه الطريقة ، ولكن يجب أن نعرف أن الذوق الشخصي شيء ، والمنهج العلمي شيء آخر ، وكان من الواجب على جامع الشوقيات المجهولة أن يبسط فى كتابه كل مايقع تحت يديه من شعر الشاعر دون حذف ، وعليه أن يعقب في هوامش الصفحات عن الأبيات التى تجافى ذوقه ، ويأباها طبعه ، ويقول فيها ماشاء من انتقاد · ولكن مايهون علينا الأمر أن الباحث أثبت فى الهوامش والمقدمات مصدر كل قصيدة بديلا عن اثبات النص الكامل فى القصائد التى أسقط بعض أبياتها ·

والدكتور السربونى لايؤرخ للقصائد ويذكر ملابستها فقط ،وانما يدون فى كثير من المواضع المقالات النثرية الانتقادية التى تتعرض لقصائده ويرد عليها ، وقد توافقه على ردوده وتعجب بتعليقاته الرائعة ، ولكنك قد تختلف معه أيضا فى بعضها وعلى سبيل المثال نشرت جريدة الواعظ فى ١٩٠٤/٣/٢٥ نقدا لقصيدة شوقى ·

روعوه فتولى مغضبا
أعلمتم كيف ترتاع الظبا

وعلقت الجريدة على هذا البيت قائلة «روعوه لامعنى له ، والترويع لايناسبه الغضب وانما يناسبه الفزع والجزع والغرق وما فى معناها ، والارتياع لايعلم ولكن يرى ، فلو قال

روعوه فتولى فزعا
أرأيتم كيف ترتاع الظبا

لكان أحسن غير أنه طلب التصريع «فحكمت عليه القافية» ولو كان على شيء من اللغة لوجد فى الهرب مخرجا من حكمها ، وقد يقال ان «علم» فى البيت بمعنى رأى نقول وانها هنا من الألفاظ المشتركة فى معان مختلفة لايدرك السامع أيها أراد والاتيان بمثلها معيب» .

وقد راح الدكتور صبرى يدافع عن هذا الانتقاد فى الشوقيات المجهولة فقال «ان الغضب ان لم يكن حالة من حالات الفزع فانه صاحبه» ثم قال «جاء فى القاموس غضب غضبا ومغضبة ، أبغضه مع حبه للانتقام منه ،

وقول ثعلب تغضب أحيانا على اللجام كغضب النـــار على الضرام» كنى بغضب الخيل عن عضــها على اللجم كأنها انما تعضها لذلك وبغضب النار عن شدة التهابها» ٠

ولا أرى فى دفاع السربونى مايؤيد دعــواه ، لأن الغضب حالة من حالات الفزع ، وفى اعتقادى أن الفزع حالة نفسية تكون نتيجة المفاجأة ، والغضب حالة أخرى قد يتكون مع الوقت ، فعندما يفزع الانســان يعــدو مهرولا ، ولكن الغضب لايستوجب الارتياع والهروب ، فقد يغضب المرء ويتجلد ويكن غضبه فى نفسه ، واذا كان الفزع يؤدى الى الهرب والفرار فان الغضب يفضى الى اعتكار الصفو ، ويعد للاشتباك والاشتجار ، ومن ثم فلفظ الفزع يناسب الارتياع والفرار ، وتأسيسا على هذا يكون انتقاد الأول أقوى من دفاع الثانى ، آما قول الدكتور صبرى أن الغضب صاحب الفزع فان التعليق على هذا هو أن الصاحب لايحل محل صاحبه وهو موجود، ومادام فى الامكان استخدام لفظ الفــزع فما ضرورة استعمال كلمة الارتياع ٠ وان صح هذا فان شوقيا يكون قد غلب القافية عنوة على المعنى عندما طلب التصريع ٠

شوقيات مجهولة اخرى :

فى عدد نوفمبر ١٩٦٨ كشف لنا د٠ صبرى فى مجلة الهلال عن شوقيات مجهولة أخرى لم يتضمنها كتابه الضخم ، ولأمانة الرجل عرفنا بمن دله عليها ، فقد أرسل اليه الاستاذ شفيق أحمد خلاف عمدة (طنبدا ـ شبين الكوم) كتابا يلفت نظره الى قصيدة لشوقى قدم بها كتابا بعنوان بين قيس وليلى لصادق عنبر يقول فيها

بعثت قيسا وليلى   وطيب عهد تولى

كما لفت نظره الى بيتين صدر بهما شوقى رحلة أحمد حسنين فى صحراء ليبيا وروى له كامل الشناوى بيتين من نظم شوقى قالهما فى محمد محمود ، وكل هذه الأبيات فى المصدر الذى أشرنا اليه ٠ وتدل هذه الأبيات القليلة التى لفت الآخرون د٠ صبرى اليها على أن جامع الشوقيات قد جمع الشوارد بحيث لم يتبق من شعر شوقى المجهول الا أقل القليل ٠

شوقى كما يراه السربونى

عندما خصصت جريدة «السياسة الاسبوعية» عددها الصادر فى ١٩٢٧/٤/٣٠ بمناسبة مبايعة شوقى بامارة

الشعر ، اشترك صبرى السربونى بمقال جاء فيه «أكبر شعراء العربية على الاطلاق لايدانيه من الشعراء القدماء والمحدثين فى علو النفس ، وسمو الخيال الا البحترى والمتنبى وابن الرومى ومطران وصبرى ، ولكنه يمتاز عليهم جميعا بغزارة المادة الشعرية التى لايبلى جدتها الملوان ولاينضب معينها» وفى يقينى أن هذا الرأى فيه مبالغة كبيرة ، ويبدو أن قائله قد غير من رأيه هذا كثيرا ففى آخر بحوثه عن شوقى قال «ان شوقى من أكبر شعراء العربية» (١) ولم يعد شوقى أكبر شعراء العربية، وتفصيل رأى السربونى فى مكانة شوقى الشعرية نجده فى الشوقيات المجهولة حيث راح ينتقد المبالغة فى تقدير شوقى • قالت صحيفة الأهرام فى تقديم قصيدة لشوقى «من نظم شاعر فاق فى بلاغته بديع الزمان ، وأزرى شعره بقصائد البحترى» يقول السربونى تعقيبا على هذا الكلام «مبالغة غير مستساغة أن يقال أن شعر شوقى أزرى بقصائد البحترى» فهو فى هذا التعليق يعدل رأيه وكأنه يريد أن يقول أنه ليس فى وسع شوقى أن يتفوق على البحترى ، وتعديل رأى السربونى ناتج عن دراسة عميقة لشعر البحترى الذى أصدر عنه كتابا فى سلسلة الشوامخ ، ويعلق فى مكان آخر على قول شوقى :

---

(١) المجلة عدد ديسمبر ١٩٨٦ •

انما الأمم الأخـــلاق مابقيت
فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

بقوله : «هكذا يحلق شوقى فى سماء المتنبى» أى أن أقصى تقدير لشوقى أن يحلق فى ســماء المتنبى اذا أجاد فى بعض شعره • بل يتهمه بالسطو على المتنبى • يقول شوقى :

كأنها وبياض الصــبح نم بهــا
رســل النهار الى الدنيا تغنيها

ويقول المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشــفع لى
وانثنى وبياض الصبح يغرى بى

وفى أحيان أخرى يرى أن «شوقى» لايدانى المتنبى فى بعض مراثيه ، ومثل هذه التعليقات تجعلنا نقول ان الدكتور صبرى لم يعــد يرى فى آخــريات بحوثه أن «شوقى» هو أكبر شعراء العربية •

ومجمل رأيه فى شعر شــوقى أنه تقليدى يقــول «لشوقى عشرات القصائد التى تبتدأ بالغزل أو النسيب الصناعى ،وتنتهى بالمديحوذكر البدو والشمس والنوال والآساد والأرام جريا على عادةالشعراءالعباسيين» ويقول أيضا «له شعر قديم وشعر جديد ، وشعر رائع وشــعر

خسيس ، ولاشك أن نضوجه تم بعد المنفى ولكنه لم يتطور» وفى موضع آخر يقول «ويقيننا أن حديث شوقى عن التجديد مجرد ثورة كلامية سطحية فالمدائح تتنافى مع التجديد ظاهرا وباطنا ، وبعبارة أخرى تتنافى مع روح التجديد والشخصية فى كل عصر» • ولكن لماذا لم يتطور شوقى ، ولماذا لم يجدد ؟ يقول الدكتور صبرى فى تعليل ذلك «لو أن شوقى تشرب البيئة الأوربية وأدب الافرنج لعرف الفرق بين الجديد والقديم فى مذاهب الافرنج والعرب» ويرد الدكتور صبرى عدم تشرب شوقى لأدب الفرنج أنه درسه «دراسة عابرة لا دراسة استيعاب» ورأى الدكتور صبرى هذا يعتبر تاييدا لرأى العقاد فى شوقى الذى ضمنه فى كتاب «الديوان» و «شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى» •

فاذا انتقلنا لصياغة شعر شوقى فان الدكتور السربونى لايوافق شاعرنا على بعض صياغاته ففى هذين البيتين :

في نشوة يوردن من شئن الهوى
نظرا ولاينظرن فى الاصدار
عارضتهن وبين قلبى والهوى
أمر أحاول كتمه واداري

أخذ السربونى على شوقى تكرير كلمة الهوى فى البيتين لأنه غير مستحسن لفظا ومعنى ، واذا كان لابد من اختيار الشاعر لكلمة الهوى فى البيت الأول فان السربونى يقترح أن تحل كلمة «يوقعن» بدلا من «يوردن» ويرى أنه شتان بين ورود مناهل الحب ، والوقوع أو التورط فيها ، فالأول لايستعذب الخلاص منه بعكس الثانى • وللدكتور صبرى كثير من التعليقات والتعديلات على شعر شوقى ، ويكشف هذا عن مدى تذوقه للشعر ، ويؤكد أن صاحب الشوقيات المجهولة جامع لشعر شوقى وناقد له أيضا •

شوقيات جديدة من عالم الغيب :

فى عام ١٩٧١ أصدر الدكتور رؤوف عبيد مسرحية شعرية بعنوان «عروس فرعون» وبعض القصائد عن الأحداث الجارية وزعم أن من املاء روح شوقى من عالم الأثير أو من وراء المادة على وسيطة الالهام السيدة سلامة سعد وصدر هذه الأشعار بمقدمة طويلة عن العلوم الروحية وتطورها فى العصر الحديث ولانستطيع أن ننكر صحة هذه العلوم الروحية أو نؤيدها لقلة معرفتنا بها ، ولكن مانستطيع قوله فى هذه المادة الشعرية المنسوبة الى شوقى هو أنه لايمكننا أن نقوم «شوقى»

ونحكم له أو عليه من خلالها ولايصح أن نستشهد ببيت واحد منها فى دراساتنا عن شوقى وستظل هــذه المادة الأدبية قائمة بذاتها فى نطاق عالم الروحانيات • ولو أردنا يوما أن نجمع كل شعر شــوقى المعروف والمجهول فلايمكننا أن نضيف اليه هذه المادة التى قدمها رؤوف عبيد ولايلتزم الأديب الا بما قاله الشاعر منذ تفجرت عاطفته الشعرية الى يوم موته ، وماعدا ذلك فلايعنينا فى شىء والفارق فى الشوقيات المجهولة ، والشــوقيات التى أملاها شوقى من عالم الغيب هو أن الأولى قصائد لشوقى نظمها فى حياته وتوارت عن أعين جامعى شعره واستدركها الدكتور السربونى فجمعها ، أما الثانية فلم ينطق بها شوقى فى سنى حياته ولانأخذ بها •

هذه هى الشوقيات المجهولة التى قدمها الدكتور صبرى السربونى فبهر بشروحه البائحــة ، وتعليقاته اللائحة ، وعرضها فى أسلوب بعيــد عن الاعتياص ، والتواء التعقيد ، وغموض الفكرة فأجاد وأفاد • وغدا النظر فى شعر شوقى ودرسه لايستقيم فى غيبة هــذا العمل النفيس •

وكما اقترن اســم العكبرى بالمتنبى ، والشريشى بمقامات الحريرى ، كذلك يقترن اسم السربونى بشعر شوقى •

حضارة العرب فى الكونغو

ولكن ماذا كان يشغل خاطر هذا المفكر الكبير فى سنيه الأخيرة ، كانت همة الرجل مطلة على التاريخ ينقيه ، ويرفع الحجب عن مطاويه ، وهذا يتبدى فى العمل الذى كان يعده للنشر باللغة الفرنسية عن «حضارة العرب فى الكونغو ووسط آفريقيا فى القرن التاسع عشر» .

وقد كانت أحداث الكونغو فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات محركا لمعهد الاستشراق فى ليبزج بألمانيا الى طلب بحث من الدكتور صبرى عن «عرب الكونغو» فاستجاب لطلب المعهد وكتب بحثا عام ١٩٦٢ باللغة الفرنسية فى حوالى ٦٠ صفحة وبعد ترجمة البحث الى اللغة الألمانية أتيح لمدير المعهد أن يدلى برأيه فى قيمته فكتب الى صاحب الترجمة فى آول أبريل سنة ١٩٦٣ يقول «ان مضمون مخطوطك كان ممتعا للغاية .

وقد قمت فقط ببعض تصحيحات تافهة وفيما عدا ذلك أعتقد أن عملك سيكون له دوى فى الدوائر العلمية الدولية» •

وان هذا البحث ليس هو الكتاب ، انما هو موجز يبين بعض اتجاهات الموضوع أما الكتاب فقد كان مقدرا له أن ينشر في ثلاثة أجزاء ، وقد أنجز الجزء الأول ونصف الثانى وكان كل جزء يشتمل على ألف صفحة تقريبا •

وأهمية الأمر وموضع الدهشة فيه هو أن عرب زنزبار وأغلبهم عمانيون قد تمكنوا فى صميم القرن التاسع عشر من ايجاد حضارة حقيقية فى الكونغو وأواسط أفريقيا وكان عرب الشرق (زنزبار) يسيطرون على تنجانيقا ونياسالاند وثلاثة أرباع الكونغو بما فيها كاتنجا الشهيرة بمعادنها ، وقد تآمر البلجيكيون مع الأوربيين على سحق العرب وطردهم من الكونغو سنة ١٨٩٣ ولكن بقيت فى الكونغو سلالة عربية مسلمة وهى خليط من الزنوج والعرب والمستعربين ، وقد حاربت حكومة الكونغو أولئك المسلمين وعملت على تشريدهم وبسط نفوذ المبشرين ، فأخذ نفوذ المسلمين يتضاءل ، ولكن لايزال للعرب فى (ستانلى فيل) بلدلومبا وغيرها بعض النفوذ •

والكتاب يتناول عرب الكونغو من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٩٦٠ وفى هــذا البحث يثبت الدكتــور صبرى بطريقة علمية وثائقية أن العرب أصحاب حضارة فى هذه البلاد وليسوا مجرد نخاسين وقد استعانوا بالعبيد الذين لقنوهم أسرار الزراعــة والصــناعة فى انشاء مؤسسات واسعة زراعية وصناعية ومدن فخمة فى قلب القارة السوداء ٠

ومن الأشياء الهامة فى هذا العمل أن مؤلفه يناقش مفكرين غربيين كتبوا عن دور العرب فى أفريقيا ولم يوضحوا الحقيقة ، ومن هذا ماقالته دوائر المعارف عن رحلة العالم الاوربى يونكر من أنهــا توجت باكتشاف نهر الأوله Ouellé أحد روافد الكونغو الأعلى ، ويوضح الدكتور صبرى أن بلاد أعالى الكونغو وقت رحلة يونكر (١٨٧٥ ـ ١٨٨٦) كانت تابعة لمديرية خط الاستواء وجزءا من السودان الجنوبى ثم اســتولى عليها البلجيك كما استولوا على نصف بحيرة البرت نيــازا التى كانت تخفق عليها راية العروبة المصرية السودانية ، ويونكر لم يكتشف نهر الأوله كما زعموا وانما اكتشف أنه من روافد الكونغو حيث كان العرب أمثال على كوبو وعبدالله يعيشون على ضفاف هذا النهر وكان للضــابط المصرى «حواش منتصر» محطة هناك باسمه على نهر الأوله ،

وكان المصريون والسودانيون من كبار تجار العاج كالشيخ أحمد العقاد والزبير قد أوغلوا فى بلاد نيام نيام ومونيوتو وغيرهما من مناطق أعالى الكونغو وأنشأوا فيها محطات نظامية كانت مراكز تجارة ومدنية وبفضل أولئك التجار كانت اللغة العربية آخذة فى الانتشار فى أواسط أفريقيا وراء خط الاستواء فى اتجاه نهر الكونغو وكان الزنوج وكبار سلاطينهم أمثال زمبو وأندوروما وزاسا واتباعهم يتكلمون العربية ويلبسون اللباس العربى والطربوش ويأخذون بنصيب من الثقافة والمدنية وكان هذا أيضا شأن التجار العرب الوافدين من زنجبار في أوغندا وشرق الكونغو حيث أسسوا هناك دولة كبيرة ومدنية زاهرة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر فكانت أواسط أفريقيا كلها يعمرها عرب السودان ، ومصر من الشمال ، وعرب زنجبار من الشرق ، مما دفع بعض الدول الأوربية على الاستيلاء على مصر وزنجبار واشعال الثورة فى السودان ومحاربة عرب أوغندا والكونغو حربا ضارية ، ويكشف الدكتور صبرى أن يونكر وآمثاله عملاء للاستعمار وجواسيس لاستطلاع أحوال البلاد التى تغلغل فيها النفوذ العربى تمهيدا لتطويقها وغزوها بالسيف والمكيدة (١) .

(١) أنظر الأهرام فى ١٩٦١/٣/٣ .

وانه بهذا البحث يعرفنا على أوطان قام العرب فى حضارتها بدور كبير وأن بعض البلدان والمقاطعات فى وسط أفريقيا وغربها يمتلكها العرب ، وكان يطاردهم فيها المستعمر الأوربى ·

وقد كان المترجم له ينوى السفر الى باريس ويقضى سنة كاملة فيها ليستكمل بحثه بعد الاطلاع على سجلات وزارة الخارجية فى كل من باريس ولندن وبروكسل ، ولقراءة كتاب باللغة السويدية مؤلفه سويدى يسمى Gleerup ، وهذا المؤلف خبير بشئون الكونغو ومن أكبر أنصار العرب ومدنيتهم ، وكان الدكتور صبرى يدرس فى هذه الفترة اللغة السويدية ليتمكن من قراءة هـذا الكتاب مع الاستعانة بمترجم سويدى وسبق أن طلب من صاحب مكتبة فى بلجيكا ارسال مجموعة مجلة الكونغو وهى المجلة المهمة التى كانت تنقصه فأجابه صاحب المكتبة بأن هذه المجلة نادرة الوجود وأن ثمنها حوالى ثلاثة آلاف جنيه أو ثلاثين ألف فرنك بلجيكى ، وكان الحل البديل هو الذهاب الى هذه الأماكن ليطلع عليها فى مكتبة باريس أو بروكسل ·

وبعد هذه التتمة أو الاضافات الى ماكان قد أعده من بحث ، كان سيشرع فى طبعه فى باريس باللغة

الفرنسية ، وأهمية كتابته بالفرنسية ترجع الى آن هذه اللغة هى لغة بلجيكا وفرنسا ولغة الكونغو ، وانتشار الكتاب فى الكونغو من الأمور الهامة خصوصا وآن أهالى الكونغو كأهالى جنوب السودان لايعرفون عن العرب الا أنهم نخاسون همجيون أعملوا فى آبائهم القتل والسلب والنهب ، بسبب تعاليم الانجليز والبلجيكيين ومبشريهم • وهذا البحث ليس عملا من أعمال الدعاية بأى شكل من الأشكال ولكنه بحث علمي يعتمد على الوثائق والحقائق والوقائع •

وقد تقدم الدكتور صبرى الى السيد رئيس الجمهورية (١) بعدة خطابات يشرح له فيها موضوع البحث ، ويطلب منه المعاونة فى هذا العمل الكبير بتدبير وظيفة له فى باريس حتى تتاح له الفرصة لاستكمال كتابه ونشره ، وأرسل الى مدير هيئة اليونسكو فى مصر خطابا يطلب فيه اعانة مالية ليتمكن من قضاء سنة أو أكثر فى أوربا فأفادته بضرورة موافقة الحكومة المصرية، وأرسل خطابا لوزير العلاقات الثقافية الخارجية ليطلب منه موافاة هيئة اليونسكو بموافقة الحكومة ، وبعث

---

(١) هو جمال عبد الناصر •

بخطاب آخر الى عبد الناصر ، وآخر الى رئيس مجلس الوزراء فى ذلك الوقت (على صبرى) ليتم له مايريد من أجل استيفاء عمله وطبعه ، ولا أطيل على القارىء فقد باءت كل هذه المحاولات بالفشل ولم ير الكتاب النور . ولايزال مخطوطا فى بيته ينتظر من يتبناه .

المفكر الاجتماعى

النقد الاجتماعى :

من بين مختارات صبرى السربونى للشعراء المعاصرين التى أودعها كتابه «شعراء العصر» الذى أصدره فى أول الشباب نجد مجموعة من القصائد التى تناولت الهيئة الاجتماعية ٠ وواضح أنه ليس له الا فضل الاختيار والجمع ، ولكن فى هذا الاختيار تتبين اتجاهات ذهنه ، وتدرك أن الفكر الاجتماعى كان من شواغله ٠ وتوالت كتاباته بعد ذلك عن المجتمع فاتضح موقفه من قضاياه ٠

ويتبدى فكره الاجتماعى فى نقطتين :

الأولى : النقد الاجتماعى ٠ وفى هذه النقطة يبرز الكاتب عيوب المجتمع ، ويشخص الداء ، ويصور الأخطاء ٠

الثانية : الدعوة الى الاصلاح • ويتمثل فى الاقتراحات التى يحددها ويرى أنها قادرة على الصلاح •

وفى حدود هاتين النقطتين يدورحديثه فى المجتمع، والكاتب الاجتماعى ليس فى مقدوره الا تقويم الأمور ووزنها ، وليس فى استطاعته تلافى آسباب التدهور والانحطاط وحسبه أن يعين الداء ، ويقترح العلاج •

حدد الدكتور صبرى بعض العلل التى تعمل على خفض المستوى الاجتماعى ، وتنخر فى كيان الأمة ، ومن بين هذه العلل ، فتور الحماسة ، ويرى أنها من أسباب تأخر المصريين ، وهناك نوعان من الحماسة : حماسة هادئة تدبر وتسوس جعلت الانجليز يسودون أمما ، وحماسة ثائرة فعالة دفعت الايطاليين الى الثورة والوحدة والاستقلال ، أما فى مصر فقد غابت الحماسة عنها «مذ غابت نهضة الدين واللغة فى العصور المتأخرة بعد الفتح العربى» (١) هنا يفطن الى شىء هام هو ربط الحماسة بالغذاء العقلى ، والغذاء الروحى ، فاللغة تمثل العلم ، والعلم يعمل على استنارة الرآى ، والرأىالقويم هو حماسة العقل ، والعقل المستنير هو القادر على الاصلاح ، ونهضة الدين تعنى معرفة شريعة الدين

(١) أدب وتاريخ واجتماع ص ٣٧٧ •

وتاريخه ، والوقوف على سير الأماثل من رجال الاسلام الأولين الذين نعتبرهم المثل والقدوة ، وهذا من شأنه أن يقوى العاطفة ، ويوجد عند المواطن قوة الاحساس ، وعزة النفس ، مما يجعله يرفض التراخى والكسل • فكأنه يريد أن يقول أن الحماسة هى العقل الراجح الطامح ، والعاطفة الدينية القوية ، واذا ماأصابهما فتور وضعف فكيف يكون التقدم والتطور ؟ وليت شعرى ماهى الحماسة غير عقل مستنير ، وعاطفة فعالة •

ولاينفى السربونى أنه مرت على مصر فترات حماسية ، ولكنه يأسى لاضمحلال المجتمع المصرى وتمزقه بعد ثورة ١٩١٩ وتبدد حماسة الرجال المتربعين فى الدست •

وفى مقال نشره فى «الرسالة» وضمه كتابه «أدب وتاريخ واجتماع» يشخص فيه علل المجتمع المصرى يتعرض فيها لانتقاد التعليم والمحاكم والقوانين ويذهب الى أن الكثير من عللنا وآفاتنا «نشأ معظمها من الاستعباد وطول عهوده ، وقد أصبحنا وفينا مركب الشعور بالنقص ، وهذا واضح جلى فى «معاملات» المصريين والأجانب ، ومابقيت هذه العلة بغير علاج حاسم فستظل الامتيازات فى نفوسنا وأخلاقنا • وان

تكن قد محيت في الورق والمعاهدات» . وهنـا ينقر السربونى على التفرقةفى التعامل بينالمصرى والأجنبى، وان كان هذا الداء قد استؤصل بعد جلاء المحتل ، فان هذا الكلام يعنى أنه يرصد العلة ، ويثير الغبار فى وجه الحكومة والمستعمر ، ويقترح العلاج لهذا الداء فى الفترة التى كتب فيها مقاله (١) .

ويفطن صاحب الترجمة الى علة الاضطراب التى تعتور الحركة الاجتماعية واطراد تقدمها فيقول «ان قادة الرأى مختلفو الأمزجة ، ووجهـات النظر ، ولم نسمع مرة أن مفكرينا وضـعوا أساسا ثابتـا لاقامة اصـلاح ، بل يغتبط كل منا ، بأنه صـاحب المشروع الفلانى ، فيجب أن يسجل التاريخ باسمه ـ فردا كان أو حزبا ـ ذلك المشروع . أما كيف يدرس المشروع وكيف ينفذ ، وهل ينفذ دفعة واحدة ، أو على مراحل ، وهل يراعى فى تنفيذه الحال والمستقبل وارتكازه على قواعد من البيئة والظروف فهذا كله فى المحل الثانى». يشير هنا الى مـرض نفسى واجتماعى هـو الأنانية ، والأنانية نقص فى الشخصية . فالحـكام السـابقون عندهم الرغبة الجارفة لتأكيد نفوذهم ، ودعم كيـانهم

(١) نشر هذا المقال فى الرسالة عدد ١٩٤٥/٢/٥ .

بنسب نتائج جهود الأمة اليهم ، لاعلاء أسمائهم ، وذيوع صيتهم ، والتلهف على المديح ، وانتظار الثناء ، فيبحث كل منهم عما يميزه عن سواه وفى هذا الجو يظهر الوصوليون ، وهكذا تسيطر النزعات الفردية والحزبية على الاتجاهات الوطنية والقومية • وهذا يؤدى الى الاهتمام بالقشور دون اللباب ، فتكون الدعاية والاعلان عن المشروع أكثر من العمل الجاد على نجاحه والوصول به الى النتائج المرجوة • فالداء في القادة أنفسهم ، ورأيه دائما أن الشعب المصرى شعب عبقرى، قابل للحضارة والرقى ، وقادر ــ لو وجد القادة القدراء ــ على خلق الصناعات الكبرى ، وفى هذا يقول «ان طينة المصريين طينة مباركة ، وانها مملوءة بالحيوية الكامنة ، اذا وجد القائد أو الزعيم الذى يعرف كيف يوقظها أتت بالعجب» •

ويمضى فى تقصى سر تأخر المصريين فيرى أن مصر خليط من نظم القرون الوسطى والعصر الحديث «فيها محاكم شرعية ، ومحاكم آهلية ، وكان فيها محاكم مختلطة فيها فقه ابن مالك ، وقوانين نابليون ، وفيها الجلباب والقفطان والبذلة» وهذا يعنى أن المصريين لاينتمون فى حاضرهم الى نظام واحد ،

ولايحكمهم قانون واحد ، ولاتظللهم مدنية واحـدة ، ويجب أن نفهم ضـمنا أن نفوس هـؤلاء تؤثر فيهـا مختلف الثقافات ، فيتفاعل بعضهم مع التراث الشرقى، ويمىل فى بعضهم الآخـر الفكر الغـربى • مجموعة تتعلق بكل ماهـو مادى ، وأخـرى تتمسك بالحيـاة الروحية ، وهذا يعنى أننا منقسمون على أنفسنا ، كل فريق متعصب لمبادئه ، ومستعد للدفاع عنهـا ضـد الفريق الآخر ، فلا اتساق ولا التئام ، وفى هذا الجو ينشأ صراع بين الرجعيين والتقدميين ، فتبلبل الأفكار، وتضطرب الأمور ، وتضيع المصلحة العامة فى هـذا النزاع • وكيف تكون الطفرة ، ويتم التطور ، مادام لايجمعنا نظام معين •

وفى كتابه «أدبوتاريخ واجتماع» يسجل خطراته فى الاجتماع فيتحدث عن عصر الانتقال ونهوض الأمم وسقوطها ، وعوامل اليأس والأمل فى الحياة المصرية ، ويتناول الواقعيين والخيـاليين فى مجتمعنا ليبين فى النهاية سر تأخر المصريين •

ودور السربونى فى المجـال الاجتماعى هو دور «الأديب الاجتماعى» وليس دور «العالم الاجتماعى» فالأديب الاجتماعى يتخذ من ظواهر المجتمع مادة لفكره

وتكون مصادره أحوال المجتمع ، واتجاهاته ، ومايطرأ عليه من تغيير ، ووسائله هى فكره وتحليله ، وبصيرته النفاذة ، ومدى احاطته بما جرى ومايجرى فى الساحة أمامه ، أما العالم الاجتماعى فهو الذى يدرس الظاهرات الاجتماعية دراسة علمية استقرائية مستعينا بالمراجع الوافية المفصلة ، ونتائج الدراسات السابقة المستقرة ، ثم يضع القواعد العامة ، والنظريات التامة ٠

وفى كتبه التاريخية يوضح النظم الاجتماعية السائدة ، والأحوال المعاشية الغالبة فى هذه الأقطار التى يؤرخ لها مثل السودان وشرق أفريقيا ، فيبين اختلاف حظوظهم من هذه النظم ، ويوضح أوجه القصور والفساد فيها ، ثم يشرح أطوار هذه المجتمعات ، وأشكال هذا الارتقاء الذى طرأ ـ وميادينه حتى يصل الى حسن الادارة ونظام الحكم ٠ وهو فى هذه الحالة «مؤرخ اجتماعى» لأنه يقوم بدراسة منظمة متعمقة لها مناهج علمية ، تستند الى وثائق ومستندات ، وتتصل بالحالة الاقتصادية والسياسية ، وترتبط فيها النتائج بالمقدمات ٠ أما فى الأمور السالفة التى ذكرناها فى

علل المجتمع المصرى فانه كان يكتفى بالملاحظة وارسال الخطرات وعرض الاقتراحات •

التعـــليم :

كان السربونى معلما أكثر من ربع قرن من الزمان وألقى دروسه فى أماكن عديدة ، مثل معهد المعلمين ، ودار العلوم ، وجامعـــة فؤاد الأول ، ومعهد الوثائق والمكتبات •• ولابد أن يكون له آراء فى التعليم •

يرى أن التعليم فى مصر لم يتقدم تقدما محسوسا الا فى الاحصائيات الخاصة بالتعليم ، أما التعليم فانه لم يتقدم، ورأى أن العبرة ليست فى كثرة انشاء الجامعات ولكن فى تحقيق الجامعة أغـــراضها فى خـــدمة العلم الصحيح • ووضح الشقاء الذى يلقاه العلماء والأدباء الأعلام فى الجرى وراء القوت اليومى •

ولكن كيف ننهض بالتعليم ؟ روى لى الدكتـــور صبرى ذات يوم أنه اجتمع مرة مع على ماهر أيام كان وزيرا للتعليم ومســـيو لاكو مدير المتحف ، ومســـيو برنارد أستاذ الجغرافيا فى السربون ، وجاء حـــديث التعليم واصلاحه ، وبأية جهة نبدأ فانقسم الثلاثة الى

فريقين أحدهما يقول : نبدأ باصلاح التعليم العالى لأنه يغذى التعليم الثانوى ، وفريق يقول نبدأ الاصلاح من تحت لأن التعليم الابتدائى والثانوى يغذى التعليم العالى ، فقلت (أى الدكتور صبرى) ولماذا لانبدأ بالاثنين فى وقت معا · ونحن نحبذ رأى السربونى ونسانده لان القولين أو الطريقتين لاتنفصلان ، وكانت فكرته فى هذا الحديث أن يعمل على خلق المعلم أولا ، فالمعلم الحقيقى الدارس هو وحده القادر على خلق الأجيال وبث روح جديدة فى التعليم ·

وعندما كلفته وزارة المعارف الاشراف على معهد الوثائق رأى أن أول شىء يجب الاهتمام به هو تعلم اللغات الاجنبية واتقانها ، وعمل مسابقة للقبول بالمعهد ، بحيث لايقبل فيه الا عدد قليل بعد التصفية الدقيقة الشاملة لأن تخريج أفراد قلائل فى استطاعة كل منهم أن يكون جيلا أفضل بكثير من تخريج عدد كبير من المدرسين لايستطيع أحد منهم أن يكون نفسا واحدة ، وبذلك يمتاز المعهد من حيث المستوى الدراسى على الكليات الموجودة ، ولم تتح له الظروف ليكمل خطته فقد فصل من العمل على نحو مارأينا ، وماكاد يتولى مدير جديد للمعهد حتى أمر بالغاء امتحان القبول

التحريرى والاكتفاء بامتحان شفوى فتقدم الى المعهد أعداد كبيرة.(٣٠٠) نجحوا جميعا وقبلوا حينئذ تمت تهنئة المدير الجديد على «الاستيعاب» الذى يمثل نظام الكم لا الكيف ٠

وهذه الحكاية التى رواها لى تبين أشياء كثيرة :

● توجيه اهتمامه الى الكيف ، لتخريج المفكر وليس لتخريج الموظف ، ويرى أن اقتران العلم بالوظيفة يعمل على نشر الجمود ٠

● يلاحظ أن العلاقة تكون قوية بين التلميذ والاستاذ فى حالة الكم القليل ، فيستطيع التلميذ أن يفيد من معلمه ، ويكون أكثر تأثرا به ، وماذا نقول اليوم فى علاقة الاستاذ بالتلميذ ، والمعلم يتحدث الى آلاف الطلاب فى مدرج ضخم من خلال «ميكروفون» ، هل يمكن أن تكون هناك محاورات تستهدف ايضاح أمر ما ؟ وهل يمكن لاستاذ أن يتعرف على خصائص تلاميذه ويوجههم الوجهة الصحيحة حسب مايعرفه من خصالهم ، ان الطلاب والحالة هذه يمكنهم أن يجلسوا فى بيوتهم ويتلقون العلم من المذياع اذا كان المذيع هو الاستاذ نفسه ، وما الفرق بين حديث الاستاذ من ميكرفون الجامعة وحديثه من ميكرفون الاذاعة ؟ اذا

أدركنا كل هذا عرفنا كم كان السربونى مصيبا فى التركيز على الكم ٠

● وتبين هذه الرواية أيضا أن المعلم أو العالم هو اذن حجر الزاوية فى اصلاح التعليم فلابد من تكوينه تكوينا علميا صحيحا ٠

ومن وسائل النهوض بالتعليم ايفاد بعثات الى الغرب لخلق الفنيين والمثقفين ، ويحكى عما رآه فى جنيف عندما كان مديرا للبعثة المصرية قال لى : كان اليابانيون يتصرفون فى شؤون البعثات بطريقة تثير الدهشة ، كانت لهم بعثة ضخمة لاتقل عن الألف طالب يرسلونهم بعد اختيارهم اختيارا دقيقا لاتنفع معه وساطة ولا محسوبية ، وكان عضو البعثة يتقاضى فى ذلك الوقت (٣٤ ـ ١٩٣٦) حوالى سبعين جنيها ، نصف هذا المبلغ يكفيه ليعيش عيشة راضية ، والنصف الثانى يستعين به على الاندماج فى البيئة ، وتوثيق صلاته مع زملائه من العمال السويسريين ليقف على سر المهنة ، حتى اضطرت سويسرا الى تحريم دخول بعض المصانع على اليابانيين ٠ لذلك كان يرى أن نبدأ دون انتظار فى ارسال بعثات تعليمية الى مختلف دول أوربا لاتقل مدتها عن سبع سنوات حتى يتمكن أفراد البعثات من

دراسة اللغة والبيئة والعلم مع مكافأة كل من ينبغ منهم . وبهذه الحكايات والذكريات كان يحدثنى عن وجهة نظره فى العلم وسبل الارتقاء به فالاصلاح يجب أن يأتى عن طريق العلم والبحث العلمى ، وينعى على القائلين أن نجاح الأعمال عندنا مرهون (بالبركة) .

وفى عام ١٩٤١ ألقى محاضرة عن رسالة الجامعة فى العصور الحديثة فى دار جمعية الاخوة الاسلامية تناول فيها نقاطا كثيرة عن رسالة الجامعة ودورها القومى يقول : «تلك قوة الايمان والعلم التى يجب تعهدها بنشر التربية والأدب بين طبقات الشبيبة والشعب وطبعها بالطابع القومى» (١) .

المرأة :

ويجب ونحن نعرض لفكره الاجتماعى آن نعرج على رأيه فى المرأة ، ونوجز الحديث فى نقطتين .

- تحرر المرأة .
- نفسية المرأة وأسلوب التعامل معها .

يسرد الدكتور صبرى فى ثنايا ذكرياته عن

(١) أدب وتاريخ واجتماع .

أوربا أنه التقى عـام ١٩١٣ ۰ مع فضيلة الشـيخ مصطفى عبد الرازق ، سأله الأخير عما اذا كان يفضل تحرير المرأة مع مافيه من أخطار فكان رده ايجابيا ، وحجته فى هذا أن «تجنب الأخطار فى كل الحالات من أصعب الأمور ، وأن الاختلاط من شأنه آن ينشر الحياة والالهام فى كل مكان» وقد يقول قائل ان هذه الأراء ليست الا رد فعل وامتداد لآراء قاسم أمين التى كانت ترددها الأفواه فى ذلك الوقت ، ولكننا نقول انها من وحى البيئة الأوربية التى شـاهدها وأنطقته هـذا الكلام ، كما أنطقت قاسم أمين أيضا الذى كان يتلقى علومه فى فرنسا يقول السربونى : (٢) «ولاشك أن اختلاط الرجال والنساء كما هو الحال فى أوربا ، وكما كان الأمر فى عهد العرب ، من شأنه أن ينشر الحيـاة والالهام فى كل مكان ، وانك لاتـرى فى أوربا تلك الطرقات التى تراها فى مصر جافة جرداء صحراوية بسبب تزاحم الرجال وحدهم فيها ۰۰»

والدكتور صبرى ليس من هـذا الطراز المتشائم الحامل على المرأة فى الشرق والغرب من أمثال نيتشه وشوبنهور والعقاد ، هؤلاء الذين قالوا فى المرأة ماقال

(١) أدب وتاريخ واجتماع ۰

مالك في الخمر ، وشرحوا نفسيتها وبينوا مدى قدرتها على الافســاد ، واشــاعة الخلل في الحــكومات حتى الاضمحلال والسقوط ، ورموها بكل مايخيف الرجل منها ومن طباعها وخداعها ، وقلة حيائها (١) ، وان كنت أميــل الى كثير من آراء هــؤلاء القــوم ، الا أنه لايسعنى فى هذا المقام الا آن آبسط رأى السربونى فى المرأة والذى على النقيض من آراء هؤلاء • يقول ان «المرأة زينة الحياة بشرط أن لاتوضع في «حق» واذا هذبت وأطلق لها العنــان امتــلأت الأرض بهجة •• وساعد ذلك على وجود شعب حى ذى ارادة حية ، لبق فى سياسته وتصريف أموره ، وانتفى عنه ذلك الجمود القــاتل» • ان صبرى هنــا يعطى المرأة كل ثقتــه واعجابه ، ويرى آنها ملهمة ومجددة للحياة ، تحرك النفوس وتقوى الارادة • وهو هنــا على النقيض من نتشه الذى يحذر من المرأة اذا أعطيت حريتها وأطلق لها العنان •

ويرى صاحب الترجمة ضرورة أن تأخــذ المرأة نصيبها من العلم ، وقد تبينا ذلك من انتقاده لسياسة

---

(١) قال العقاد فى كتابه هذه الشجرة « ان الرجال يستحون حيث لا يســتحى النســاء • فيستترون فى الحمامات العــامة ولا تستتر المرأة أمام المرأة الا لعيب جسدى تواريه » •

نابليـون التعليمية التى أهملت تعـليم البنـات لأن حكومته لن تجعل منهن جنودا أو موظفات (١) ٠

ننتقل بعد ذلك الى نفسـية المرآة التى شـغلت الكثيرين من رجال الفكر ٠

يفطن السربونى الى خـوالج المـرأة المتقلبـة ، وأحاسيسها الغائرة الفـاترة ، وجموح غـريزتها ، وشطط شعورها ثم انقلابها ، وتبدل مشاعرها بغير مبرر معروف ، ويتطرق الى كيفية معاملة المرأة ، قال السربونى ٠

« ولاريب أن مخاطبة النساء ومعاملتهن تتطلبان دقة الاسلوب السياسى واحكام صنعة الكلام ، وصوغه فى قالب ناعـم يدل على فهم نفسـية المرأة ، وسرعة تقلبها ، وقوة حاستها ، وسهولة التأثير عليها وجموحها المفـاجىء لأقل سبب ، قالب يحسن ادماج التلطف فى التهديد والتهديد فى التلطف ، والتلميح فى التصريح والتصريح فى التلميح ،قالب يتفنن شدة ولينا عند القطيعة والتلويح بها ، ويتشكل بالظروف والمناسبات كلها» (٢) ٠

---

(١) أدب وتاريخ واجتماع ص ٤٥٣ ٠

(٢) امرؤ القيس ص ٨٩ ٠

فاللين والكياسة والتلطف واعلان الرضا لايأتى بالنتائج المرجوة من المرأة ، وانما لابد من دمج الرضا بالغضب ، والنعومة بالخشونة ، ومزج التهديد بالقطيعة مع التلطف فى الخطاب ، فتلين المرأة وترضخ لانوثتها وهى تشعر بعلو الرجل وغلبته عليها وتحسب أنها غالبة .

***

ان المفكر الاجتماعى معنى بذكر السلبيات التى تعوق الاصلاح وتعطل النهضات ، ولابد أن يعمل على اكبار الوعى العلمى فى الأمة واتساع دائرتها الثقافية، ذلك أن الفكر هو مجلى عظمة الأمة ، ومن واجبات الباحث الاجتماعى ادراك قيمة الوحدة الوطنية والتئام أجزائها ، لأن تحطم قوى الشعب النفسية يؤدى الى التفكك والتدهور والانحطاط . وأعتقد أن كل هذه الأفكار تناولها السربونى وجلاها فى خطراته الاجتماعية .

صور أدبية ولغوية

الأسلوب والصور الأدبية :

دراسة أسلوب الكاتب متممة لترجمة حياته ، ذلك أن الاسلوب يعكس ثقافة الأديب ويبين قدر محصوله ويعتبر احدى صور نفسيته ، لأنه يعبر عما يخالج شعوره تجاه حدث أو مشهد بكلمات تعرب عن حالاته النفسية ، فهذه العبارات التى يضعها الكاتب أمامنا توضح لنا مايأنس له فؤاده ، وما تنفر منه طباعه .

والدكتور صبرى من أصحاب الأساليب المميزة فى أدبنا العربى الحديث ، ولاينقصنا الدليل والمثال على مانقول ، فهو كاتب أيضا الى جانب انه ناقد ومؤرخ وشاعر ، ولا أخص قطعا أدبية دون غيرها يتمثل فيها أسلوبه ، ولكنى أقول أن كتبه الأدبيـة جميعا كتبت بأسلوب نضيج له خصائصه وطابعه العام .

ويبدو أن أديبنا قد استقام أسلوبه فى وقت مبكر فعرف كيف يختار الألفاظ الدقيقة لمعانيه • كتب مقالا فى الأهرام بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩١٣ بعنوان دقات الساعة جاء فيه :

«تنصف الليل ، ومر بعد وهنه ساعتان كما خبرتنا ناعية الزمن» •

احساس رهيف هنا بمضى الزمن • ثم يقول : تروعنى دقات الساعة ، وأشعر منها بوحشة وانقباض ، ويخيل الى أنها صدى أقدام عدو شديد البأس صعب المراس ، خلقه الله شفافا كالهواء ، كما خلق بعض الحيوان بلون الصخر والرمال ، الا أن الأمر على الضد ، فالأول يتخفى ليصيد ، والثانى من أجل ألا يصاد ، وما نشعر الا وقد أصمى سهمه فى الساعة الأخيرة فأجهز على البقية الباقية ذلك هو الموت» •

هذه كلمات تصور لنا احساس شاب فى مقتبل شبابه ، يرنو بأذن حساسة الى دقات الساعة ، وهذه الدقات ليست موسيقى منتظمة الايقاع كما يمكن أن يعبر عنها آخر ، بل انه يدرك أن هذه الدقات أوقات تمضى من عمره على هذه السرعة ، فيلوح أمامه شبح الموت ، احساس دقيق بانقضاء الزمن ، وانقضاء زمن

الانسان يعنى موته ، انها «ناعية الزمن» التى تذكره بالتناهى والعدم ، فتروعه دقاتها ، وتوجد فى نفسه الوحشة ·

وان اختيار تعبير «ناعية الزمن» للساعة ليس من قبيل البلاغة فقط ، وانما أيضا من قبيل قوة الادراك، وقدرة الاتصـــال بالحقيقة · تعبير جميل جـــديد ، لايتمثل جماله فى أنه زاوج تعبيرا آخر ليكون موسيقى داخلية تشنف آذاننا ، ولا لأن جـرسه له من الوقـع اللطيف حتى تهتز له أعطافنا ، ولكن لانه يصور حقيقة كبرى بلفظين هى انقباض الانسان عندما يتذكر الموت وهو حى ·

ولنقرأ قطعة أخرى يصور فيها حريقا رآه وهو طفل صغير (١) ·

«··· كان الفلاحون كعادتهم يكدسون الحطب فوق سطوح المنازل ، فاذا بالشرر ذات يوم يتطاير من بيت لبيت ، واذا بالنار حيرى مولهة تنتشر فى كل ناحية رقعا حمراء ، صفراء ، سوداء · وألسنة اللهب تتصاعد وتنساب رأسـية أفقية · بعضـــها يتنقل مع الريح ، والبعض الآخر ينزل من العلية الى القاع وينسرب ،

(١) قافلة الزيت نوفمبر / ديسمبر ١٩٦٢ ·

ثم مالبثت النار أن تجمعت أشتاتها وأجزاؤها وتربعت على عرشها الضخم فوق القرية ، بين الرهبة والجلال» •

«مازلت أتمثل تلك النار ، وذلك اللهب الراقص بألحانه المشرقة • انى أحب النار وهى تتثنى كالاغصان مجتمعة وتنطوى وتنتشر وتزحف وتغطس وتطير وتميل يمنة ويسرة مع الريح وهى تجاذبها فى عناق هوائى رائع • •»

كأننا أمام حريق لا أمام كلمات تصفها وتصورها، منظر رآه الطفل فى طفولته فاختزنته ذاكرته ، وصوره لنا عند السبعين ، نحن مع قريحة تدخر المشاهد بأحجامها وألوانها حتى يحين الوقت للتعبير عنها ، أننا مع عين لاقطة ، وملكة مصورة ، وكلمة معبرة • وسر هذا التصوير الحى أنه يضع أمام الذهن صورتين متضادتين ، صورة الليل الحالك الى جانب الضوء المنبعث من الحريق ، أو بعبارة أخرى صورة النور وهو يكون أشكالا فى الليل الأسود ، والكاتب يحرك الذهن ليتخيل هذا المنظر الحركى بين النور والظلام ، فكلما ازدادت النار اشتعالا ، كلما تبدد ظلام الليل ، وكلما تجمعت النيران وخبا الضوء كلما امتد الظلام وران ، ونراه أيضا يخرج من نطاق الجزئى الى الكلى ، وينتقل

من البعض الى الشمول ، والحركة من الجزئى والكلى ، وبين البعض والشمول تتحقق فى هذا التصوير الفنى الرائع • ان هذا المنظر ليس فى لوحة تصويرية ، وانما فوق الأرض يصور حركة النور والظلام بين الليل والحريق ، لذلك يثير فينا الاحساس بجمال الأضواء والألوان وتخيلها بالذهن وهى تتفاعل فى الفضاء أو مع الموجات الهوائية • يالها من صورة حركية لعوب •

هذا تصوير فنى لايعنى أن الحرائق وماتجره من ويلات تبهج قلبه ، يقول فى آخر المقال : «مررت بالمنازل فرأيت جثث الأطفال التى كانت شواء النار مكفنة بخرق من القماش الخشن مصفوفة على الأرض العراء أمام البيوت ، ورأيت تلك الأيدى والوجوه الغضة كالجنى ذابلة مسودة ، ورأيت فى الداخل الحمام محترقا ومختنقا فى بيوته لايتحرك ولاتسمع له هديلا ولا خفق جناح •••»

نعود مرة آخرى الى صورة الحريق لنقف عند ألفاظه أو أدواته التى يستخدمها فى التعبير والتوصيف، فليتأمل معى قارئى عبارته «النار حيرى مولهة تنتشر فى كل ناحية رقعا حمراء • صفراء • سوداء» فهذه

الألفاظ تقدم لنا تصويرا ذهنيا لما هو غائب عن العين عمليا وواقعيا ، وهذه الألفاظ أو الألوان . حمراء . صفراء . سوداء هي امكانات الصورة التي تكون الشكل المرئى لعيوننا ، الممتع لنفوسنا من الناحية الفنية ، ويجب على الذهن أن يربط بين هذه الكلمات أو المرئيات ، ويدرك العلاقة غير المرئية بينها ، لأنها توجد على الورق منفصلة ، ولكن في الصورة الطبيعية مختلطة ، وهكذا يكون لدقة استخدام اللفظ من الايحاءات الذهنية والعاطفية مالها ، ونلاحظ هنا أنه يستعمل الألفاظ التى تناسب المعانى دون اعنات ، فتكون أدق فى الابانة فلكل لفظة من هذه الألفاظ أكبر الأثر فى تنوير الصورة ، وفى وقعها على الحس والعقل جميعا . وهذا الاسلوب ليس قوامه المجاز والتشبيه فقط ، وانما يعتمد الى جانب ذلك على ايراد الصور المتآلفة .

ولنقرأ قطعة ثالثة من وحى حديقته يقول فى وصف مشاعره تجاه الطبيعة فى الشتاء :

«فى السماء رى وصفاء ، وأمواج من الضوء تضاحك الأعين والورد ، وتكسو الخضرة الهادئة بهجة تسكن اليها النفس ، وتستريح النواظر التى طال

تقليبها فى وجوه الرجال من هذا السواد الأعظم» ·

«والآن فى منتصف النهار اسـمع تغريد الطير ، وزقزقة العصفور ، فيعاودنى طربى ونشاطى وأعودالى المشى بين الأشجار التى تحيط بى وتحنو على كاسرتى ، وحولى من جميع النواحى أيان أتنقل شبكة متحركة من الأضـواء والظـلال أتقلب فى نعمائها بين بـردها وحرها» ·

«وهاهى الريح تحرك أعالى النخل الجبار وتغنى فى أذنه كما تغنى أمواج البحر المصطفق فى آذان الساحل· أغنية حلوة رتيبة تحرك الشجن الدفين · أغنية القوة · أغنية الارادة المنزهة عن كل لينـة وضعف · أغنيـة الطبيعة الشـامخة التى تسخر من الانسـان ـ وتعبث بصخبه وضوضائه ، وحركاته البهلوانية التى تنطمس فى ثناياها » ·

تلاحظ هنـا أن حسـه الفنى قـد اكتمل ، وأن احساسه بالطبيعة قد ارتقى ، حتى استطاع أن يدرك أمواج الضوء وهى تضاحك العين والزهر · وهـذه الكلمات توقظ ملكاتنا الفنية ، وتزكى قـوى العقل المتخيلة ، فنشاهد مافى الطبيعة من جمـال وجـلال وبهاء ·

وتدرك حضوره فى ساحة الطبيعة ، وامتداد الصور واتساعها فى عباراته ·

انه يتأمل ، والتأمل هو مقدمات الخلق والابتكار ·

ولا أدرى بماذا أعلق على هذا الاسلوب الناضج ببيانه الساحر ، وتصويره الناطق ، وصفائه الرائق ؟ ان أحسن تحية لهذه القطعة هى اعادة قراءتها ·

وفى القطع الفنية التى تحمل عنوان «فى حديقتى» و «على النيل» فى كتابه «أدب وتاريخ واجتماع» يجرى فيها على مألوفه فيقدم أحاسيسه متحدة بطرائف التعبير ، ويتجدد حسن هذه القطع البديعة بتوارد الصور الباسقة فيها ·

وأسلوب السربونى لانجد فيه العبارات المسجوعة المقفاه ، وان وجدت فهى واجبة غير مجلوبة ، لانه يطلق جمله من قيودها ويرسلها حتى تحيط بأطراف الموضوع ، وأهم مانلحظه على هذه العبارات السيولة والسهولة ، فلانستنجد بالمعاجم لتخبرنا بمعانيها ·

ومن عناصر أسلوبه ابتداعه للتشبيهات ، وتوفيقه فيها يقول مثلا : «وقد كانت معجزة البارودى أنه خرج بقوة باهرة من طوق التقليد المحكم الذى نشأ فيه ،

ونقفه كما ينقف الفرخ البيضة» (١) وقوله فى الشوقيات المجهولة جـ ٢ ص ١٢ : «وهذه الأبيات وأمثالها كان يجب تنحيتها عن الطبعة المنقحة كما تنحى الفروع الميتة عن الشجرة» • وقد مر بنا بعض التشبيهات فى القطع الثلاث التى عرضنا لها وهى تشبيهات مبتكرة بعيدة عن المبالغة الممقوتة ، مما يجعلها مقبولة ، فضلا عن أنها تزيد الصورة وضوحا وثراء •

ونرى فى بعض عباراته آثار المحفوظ القديم من الشعر ، يقول مثلا : «وكأنك تنادى منهم صخرة لاتحركها الأغاريد » (٢) هذا المعنى مأخوذ من بيت المتنبى :

أصخرة أنا مالى لاتحركنى (٣)
هذى المدام ولا هذى الأغاريد

وتتخلل أسلوبه معانى القرآن يقول (٤) : «أمثال أولئك المترجمين يجنون على شعر شوقى بترجمتهم السقيمة وخير لهم ألا يترجموا فانهم لن يبلغوا الجبال

---

(١) مهرجان حافظ •
(٢) أدب وتاريخ واجتماع ص ٢١٤ •
(٣) فى رواية أخرى تغيرنى •
(٤) الهلال نوفمبر ١٩٦٨ •

طولا» والجزء الأخير مأخوذ من قوله تعالى «٠٠ انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا» ٠

وفى الجملة نرى أن أسلوبه يوقع فى نفوسنا عدم تسرعه فى الكتابة ، بل يتناول الأمور فى تؤدة وتبصر، ولايستكثر من عدد الصفحات بمط الكلام ، والاسهاب فى الحديث بغير فائدة باقية ٠ ومثل هـذه الأسـاليب البليغة لاندرى كم كابد فيها قائلها قبل أن تصل الينـا سهلة ، لطيفة الايقاع ، تتعالى مع هدوئها وبساطتها ٠

اللغـــة :

كانت تدور بينى وبين الدكتـــور صبرى مناقشات كثيرة فى اللغة العامية ، وكان يرى أن بعض الكلمات العامية اختصار لجملة عـــربية فصـــيحة مثل «معرفش» أصلها «ما أعرف شيئا» و «معلهش» أصلها «ماعليه شيء» وهكذا . لذلك أباح استعمال العامية فى حدود معينة أو «فى بعض الحالات خصوصا اذا كانت العامية ترجع الى أصل فصيح مثال ذلك : قال شوقى عن النخلة أنها عروس العزب ، والعزبة ليست عربية ، ولكن مجرد ذكرها يقرب الى أذهاننا وقلوبنا صورا محببة من ريف مصر وألوانه التى ألفناها ٠ جاء فى كتب اللغة عزب ، بعد وغاب ، والمصدر العزبة بضم العين ، والعـــازب الكلأ البعيد ،

فالعزبة الأرض البعيدة فى الريف ، ولعل الأبعدية أيضا من الأبعد ضد الأقرب» (١)

ويلاحظ هنا أن الدكتور صبرى لايدعو الى استخدام العامية على طول الخط ، ولكنه يدعو الى استخدام الألفاظ الدارجة أو العامية التى ترجع الى أصل فصيح ، ذلك أن الدعوة الى العامية التى لا أصول لها من الفصحى دسيسة قوم مغرضين ،وان لغتنا الفصيحة تتنكر لهذه اللهجات المبتدعة ، لأن استخدام الألفاظ العامية يعنى أن ننزل بلغتنا من فوق عرشها العظيم البهى ، الى تخليطات ورطانات يسمونها العامية ٠

وقال تعقيبا على هذا البيت لشوقى :

خطب لا صوت الا دونها
فى صداها الخيل تجرى والسنين

«٠٠٠ لم يقل شوقى (السنون) كما تحتم القافية ، ويقتضيه السياق ، ولكنه قال (السنين) رغم أنف النحو ونزولا على حكم الذوق وأجروميته ٠ فكلمة السنين هنا من الدارجة الفصحى التى لاتستأذن فى الدخول على القلب والحس ، كما أن الياء ، اذ تأتى بعد حرفين

(١) من خطبته فى مهرجان حافظ ٠

مكسورين هما السين والنون ، وقبل حرف ساكن هو النون الأخيرة تمد اللحن الحزين مدا يساير مواكب الأحداث والأيام» (١) .

وواضح من هذا أن الدكتور صبرى يخضع كل شيء في اللغة للذوق لا الى القواعد الموضوعة المتعارف عليها . يقول فى المصدر الذى قال فيه كلامه السابق عن اللغة والأجرومية : و «ان الذوق فى الاجرومية هو الذى يحكم قواعدها ، وليست القواعد هى التى تتحكم فى الذوق كما يتوهم النحويون العرب جميعا ، لذلك تراهم يبالغون فى تأويل هذه القواعد ، ولكن تأويلاتهم لاتسعفهم واليكم بعض الأمثلة : جاء فى سورة ق «ونزلنا من السماء ماء مباركا ... وأحيينا به بلدة ميتا» بسكون الياء وهى كلمة مذكرة فى وصف (بلدة) مؤنث . لو قيل (وأحيينا به بلدة ميتة) بسكون الياء واضافة تاء التأنيث لأطاحت تاء التأنيث بقوة التذكير فى الكلمة عند الوقوف عليها . وكذلك الحال اذا قلنا بلدة ميتة بتشديد الياء ــ فى سورة الأعراف قال تعالى: (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت). بالياء المشددة هذه

(١) مجلة المجلة عدد ديسمبر ١٩٦٨ .

الكلمة الأخيرة بقوة تعبيرها لفظا ومعنى لابديل لها هنا جاء فى اللسان • وفى التنزيل العزيز «لنحيى به بلدة ميتا» • قال الزجاج : قال ميتا لأن معنى البلدة والبلد واحد •

ويضرب عدة أمثلة ثم ينتهى الى نتيجة أن للبلاغة أجروميتها ، وهذه الأجرومية لاتزال قواعدها مجهولة ، وليس فى استطاعة أحد حصرها لأنها تختلف باختلاف الحالات التى لا عدد لها والذوق وحده هو الذى يستنبطها ويكشف عنها •

وتعليقنا على هذا الكلام هو أننا لاننكر دور الذوق فى تلمس أسرار اللغة • وبلاغتها وآدابها ، ولاننفى أن شاعرا أو أديبا يستطيع أن يخرج على قواعد اللغة قليلا ليأتى بمعنى أوفق يضفى على الموضوع وضوحا واشراقا ، ولكن هل كل أديب أو شاعر له هذا الذوق الدقيق ، والحس الرهيف بحيث يتصرف فى اللغة والأجرومية بذوقه العالى ؟ وهل تترك اللغة للخبرة الذوقية الخالصة • ان الذوق قلب ، ومسارى الهوى تستطيع أن تتحكم فى الذوق الفردى ، ومن المستحيل حماية الذوق مما يتعرض له من ضعف فى بعض الأحيان •

ان الذوق لايستطيع أن يتفهم النصـــوص الأدبية بمفرده . واذا أجدى الذوق في الأدب والنقد ، فانه أقل نفعا عندما نتصرف فى قواعد اللغة الاساسية استنادا اليه لاختلاف الذوق من فترة الى فترة ، ومن شخص الى شخص ، واســتخدام الذوق يعنى الضرب بمــوازين العربية الدقيقة عرض الحائط ، اننا نبيح لذوق الكاتب اختيار لفظ دون لفظ على أن يضعه فىسياقه من القواعد التى اصطلح عليها .

وقد صرح السربونى أن ، أولار ، المؤرخ الفرنسى هو الذى هداه الى اخضـــاع اللغة للذوق ، ولعله تأثر بقول بول فرلين الشاعر الفرنسى «امسك بالبلاغة والو عنقها» (١) .

ننتقل الى جانب آخر من جوانب السربونى اللغوية ذلك هو تعريب الكلمات أو الأسماء الأجنبية ، أو وضع مسميات عربية للآلات المستحدثة حتى لاتشيع الألفاظ الأعجمية فى لغتنا .

كتب الدكتور صبرى مقالا (٢) عن كتاب اسماعيل مظهر «سير ملهمة من الشرق والغرب» تضمن نقدا لغويا

---

(١) عمالقة الأدب لبرتون راسكو .
(٢) قافلة الزيت عدد أكتوبر / نوفمبر ١٩٦١ .

للكتاب . ولا أعتقد أن هذه الانتقادات اللغوية التى وجهها إلى اسماعيل مظهر يقصد بها تقويم لسانه ، بقدر مايهدف الى تعريب لفظ تعريبا صحيحا قبل أن يستقر فى الأذهان . أطلق اسماعيل مظهر اسم «المزمنة» على الكرونومتر . وهى الآلة التى تقيس الزمن ، ويرى السربونى أن استعمال كلمة «المؤقتة» بكسر القاف المشددة أفضل ويحلل لذلك بقوله : «يقال أزمن الشىء اذا أتى عليه الزمان وطال» «المؤقتة أدق وأنسب فى نظرنا من المزمنة . أقته أو وقته توقيتا جعل له وقتا يفعل فيه وكذلك اذا بين مقدار المدة . وكل شىء قدرت له حينا فهو مؤقت (بفتح القاف) وكذلك كل ماقدرت غايته فهو مؤقت . واستعمل سيبويه لفظ الوقت فى المكان تشبيها بالوقت فى الزمان لأنه مقدار مثله فقال : ويتعدى الى ماكان وقتا فى المكان كميل وفرسخ وبريد، والتأقيت أو التوقيت أن يجعل للشىء وقت يختص به وهو بيان مقدار المدة ، وتقول وقت الشىء يؤقته اذا بين حده ثم اتسع فأطلق على المكان فقيل للموضع ميقات . والتوقيت تحديد الأوقات» .

ويحاول أن يضع كلمة عربية بدل كلمة الكاريكاتور ويرى أن كلمة السخرية بتشديد الياء والجمع السخريات .

ولكننا نرى أن كل الرسوم الكاريكاتورية لايقصد بها السخرية والتحقير ، ويرى السربونى أن كلمة طازج كلمة فارسية بمعنى طرى ويمكن أن يستبدل بها كلمة «الطريفة» ويعلل بقوله «الطريف المستحدث والتالد القديم»وفى زعمنا آنه ليس كل مستحدث فيه طراوة ٠

وتعريب الألفاظ الأعجمية من الأبحاث المستحدثة ، ولاتزال هناك كلمات أجنبية كثيرة لم توضع بدائل لها عربية ، فاذا كان السربونى يدلى بدلوه ، ويجتهد فى وضع مسميات لهذه الأشياء ، فاذا أصاب فقد أفاد ، واذا لم يصب فحسبه أنه فتح باب المناقشة فى مثل هذه الألفاظ الأعجمية ٠

اثنا عشر عاما فى صحبة الرجل

ندوة تريومف الثقافية :

لاأذكر على وجه التحديد متى رأيت الدكتور صبرى، ولكن على وجه التقريب كان ذلك عام ١٩٦٦ .

كانت العلاقة بينى وبين الاستاذ على أدهم ـ الذى كان رئيسا لتحرير «مجلة الكتاب العربى» فى ذلك الوقت ـ قد توطدت ، وعرفت منه أنه يجلس فى كازينو تريومف فى مصر الجديدة مع لفيف من الأدباء فى صباح كل يوم جمعة ، وذهبت ذات يوم جمعة الى هذا المكان ، وأخذت أحدق فى الجالسين حتى وقع بصرى على الاستاذ أدهم وحوله عدد من الرجال المسنين ، فاتجهت اليه وصافحته وصافحت كل الجالسين ، وأخذت مكانى بينهم، بعد أن نسبنى اليهم ، وعندما انتهت الجلسة فى الثانية بعد الظهر تقريبا ، صحبت الاستاذ أدهم وهو فى طريقه الى بيته ، وراح يعرفنى على أسماء هؤلاء الأدباء ولم تكن أسماؤهم غريبة عنى كل الغرابة .

ورحت أتردد على هذه الندوة كلما واتت الظروف، أما هؤلاء الذين كانوا يجتمعون فهم ، الاستاذ على أدهم صاحب المؤلفات الكثيرة فى الأدب والتاريخ وفلسفة التاريخ والفلسفة ، والدكتور محمد صبرى السربونى موضوع هذا الكتاب ، والدكتور أحمد فؤاد الأهوانى رئيس قسم الفلسفة سابقا ، وصاحب المؤلفات الفلسفية والنفسية ، والدكتور عثمان أمين رئيس قسم الفلسفة الأسبق ، وصاحب كتاب «الجوانية» وغيره من الكتب الفلسفية وخاصة عن ديكارت ، والاستاذ عبد المجيد نافع وكان أكبر المجتمعين سنا ، وله عدة مؤلفات أهمها كتاب «السلام الاجتماعى» وكان رئيسا لتحرير جريدة «الشعب» التى كانت تصدر فى حياة اسماعيل صدقى ، ومن أكبر المحامين فى مصر ، وكان يتندر كثيرا على لطفى السيد وطه حسين ، والشاعر عبد الرحمن صدقى مدير دار الأوبرا الأسبق وله شعر كثير مجموع فى ديوانين هذا غير كتبه عن أبى نواس وبودلير ، وكان ينضم الى هذا المجلس لواء متقاعد لاأذكر اسمه . والمستشار القضائى سيد عبد العظيم ، والدكتور محمود حافظ وكيل الوزارة الأسبق وأستاذ علم الحشرات فى احدى الجامعات . ورأيت من حين الى حين الدكتور عبد الفتاح

الديدى ، وكان يعرض نتائج بحثه فى رسالة الدكتوراه على الدكتور الأهوانى ، والاستاذ محمد خليفة التونسى أحد أصدقاء العقاد وأحد تلاميذه . والاستاذ حبيب الزحلاوى قبل سفره الى أمريكا اللاتينية وموته فيها ، والاستاذ عمر عبد العزيز أمين صاحب سلسلة الروايات المترجمة التى صدرت فى مصر لمدة طويلة • وغيرهم •

ولم يكن يحضر كل هؤلاء فى جميع الجلسات ، فكان يتخلف بعضهم ، ويحضر البعض الآخر •

كانت مناقشاتهم تدور حول السياسة والتاريخ والأدب والفلسفة وسائر قضايا الفكر الانسانى • ولأنهم كانوا من أصحاب الاطلاع الغزير ، والتخصصات المتنوعة والمؤلفات الكثيرة ، والخبرات العميقة • فاننى أراهم يتنقلون فى مختلف الأحاديث ويتحدثون عن تجاربهم ومعارفهم ويسردون ذكرياتهم ، ويشير كل منهم الى مواقفه الخاصة فى بعض الأمور ، وكيف لم يؤخذ بوجهة نظره فى مسألة فترتب على ذلك ماترتب • ومن آداب هذه الندوات أن الحديث فيها يكون سلسا خاليا من التكلف وهم أكثر صراحة فيما بينهم لأنهم لايخافون رقيبا ، والموضوعات كانوا يتساجلون فيها سرعان ماتتغير عندما يتذكر أحدهم شيئا يتعلق بالموضوع

المبسوط للمحاورة عملا بالقول «الشيء بالشيء يذكر» وأحيانا يطرح أحدهم قضية للمناقشة فيشترك كل منهم فى الحديث ، ويدلى بما عنــده من معــارف وخبرات ، فيأتون بالتالد والطريف ، وقد يختلفون ويحتــدون ، ولكن لايصل الخلاف الى حد الغضب ، ويقنعون بعضهم البعض بما يتوارد على أذهانهم منمعارف وأدلة ، وتنتهى الندوة وكل منهم سعيد مسرور ·

استمرت هذه الندوة طيلة الستينات ، وعــــدة سنوات من السبعينات وتوقفت بعــد ذلك لأن روادها أخذوا يتساقطون ولم يبق من كل ماذكرت الا القليل · وهذه الندوة تعيد الى أذهاننا الندوات الأدبية التى كانت تعقد فى بدايات هذا القرن فى المقاهى والصالونات ·

وبمرور الوقت توطدت العلاقة بينى وبين هــؤلاء الأساتذة وكنت أزورهم فى منازلهم ·

ملامحــــه :

الدكتور محمد صبرى رجل متوسط الطول ، أميل الى القصر ، يتناسب تكوينه عرضا وقامة ، ملامح وجهه الأبيض لطيفة تجمع بين البشاشة والتحدى ، حاد الأنف

ويتدلى من طرف فمه غليون وسرعان ماتنفرج شفتاه فى الطرف الآخر ليتصاعد منهما الدخان مختلطا بأنفاسه ، ويضع على فوهة غليونه اصبعه بين الحين والحين ضاغطا فى خفة على النيران السارية فى التبغ ، وعلى عينيه السوداوين نظارة لاتفارقهما ، وعند القراءة يرفع نظارته على جبينه العريض (أحيانا) ويرخى جفنه الأعلى على عينه اليسرى قليلا ، ويتدلى حاجبه الأيسر تبعا لذلك بعض الشىء ، يغطى شعره الأبيض «بيريه» أو «كاسكيت» فلايظهر منه الا شعر الفودين ، له شارب صغير يترك مسافة من الناحيتين فوق شفته العليا ، ويمشى متمهلا حتى لايتعثر ، وعصاه لاتفارق يمناه ، وفى مزاجه حدة ٠

هذه هى الصورة التى رأيت عليها الدكتور صبرى عندما عرفته ٠

حديث الذكريات :

توثقت عرى المودة بيننا ، وكنت أزوره أكثر من أى أديب آخر ، وأجلس اليه فى منزله ساعات طوالا ، يدور فيها حوار حول الأدب والفن والتاريخ ، ويسرد على ذكرياته مع الشعراء الذين عرفهم فى عقود هذا القرن ، ويتحدث عن حياته فى أوربا بين متاحف الفن،

ومعاهد العلم ، ويفيض فى ذكر سياحاته فى المدن والجبال والحدائق فى بلاد الغرب ، وكنت أقرأ له فى دواوين الشعراء القدامى والمعاصرين ، وهو يتولى الشرح والتعليق والتحليل ، ويذكره ماأقرأه له بأبيات لآخرين من الشعراء العرب أو الافرنج فيربط بين ماينتجه أدباء الشرق والغرب بعبارات أدبية شائقة ، وينفذ ببصيرته الى جوهر الأشياء ، ويحدثنى عن الحياة السياسية فى مصر ، وعن الرجال الذين كانت تربطه بهم صلات وثيقة ·

ولا أستطيع أن أروى كل مادار بيننا فى هذه السنوات الطوال ، انها اثنا عشر عاما حافلة بجليل الذكريات فى مختلف القضايا والموضوعات ، وحسبى أن أقول أن هذه الجلسات التى لاأستطيع عدها قد أفادتنى كثيرا فى هذه الدراسة وفى غيرها ، اذ عرفت منه ما لا أعرف ، وتفتح ذهنى على ما لا علم لى به ·

وكان يلقانى بعبارات ترحيب غير عادية أو مألوفة، ذهبت اليه فى اليوم الثالث من حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وعندما فتح الباب ورآنى قال وآنا خارج الباب وهو داخل الشقة : ألم أقل لك ان مصر هى بلد المعجزات وراح يتحدث عن الحرب ، واستأذنت فى الدخول وجلست فى مكانى ، وهو يواصل كلامه عن المصريين

وبسالتهم فى الحروب . وبعد انتهاء حديثه عن مصر والحرب قال لى : أهلا وسهلا .. ولم تأخذنى الدهشة فقد اعتدت على هذه المقابلات ، وانظر معى أيها القارىء فان ماكان يجب أن يقوله عند الباب قاله فى حجرة مكتبه ، وماكان يجب قوله فى حجرة مكتبه قاله عند الباب وكم كانت تسعد نفسى بمثل هذه اللقاءات وهذا الحوار ، فانها تتضمن الود والتقدير والاجلال . ودونهما عبارات الترحيب التى يرددها كل لسان ، ولاتحرك الوجدان .

وكنا نختلف معا فى الحكم على عدد من الأمور ، وأشد ماكان اختلافنا على شاعرية العقاد وشوقى ، ولم يكن خافيا على الدكتور انى من تلاميذ العقاد ، وأنى متحمس له ولكثير من أفكاره ، وكان رأيه فى العقاد أنه رجل ومفكر ، يفهم فى الشعر ويقدر أخيلته (١) ،

(١) قال عن العقاد فى كتابه « أدب وتاريخ واجتماع ص ٢٥٥ » : وقد أبدع العقاد فى تحليل شعر ابن الرومى ، وكتب صفحات رائعات » وقال عنه فى مقال نشرته مجلة المجلة عدد ديسمبر ١٩٦٨ : « المرحوم العقاد مثلا ، وقد عاصرته وعاشرته زمنا طويلا ، كان من القلائل الذين يفهمون الشعر ، ويقدرون شوقى بلا شك ولكنه وهو الكاتب الكبير ، كان كشاعر مندفعا الى منافسة شوقى فحجبت عنه هذه المنافسة رؤية شعر شوقى فى اطاره الصحيح » .

ولكنه ليس شاعرا ، ويقول «أنت عايزه يبقى شاعر بالنبوب ، وكنت ألقى عليه من شعر العقاد ماتسعفنى به الذاكرة لاقناعه ، فكان يصر على رأيه» ولعله كان يعتقد هذا ، ويقينى أن العقاد شاعر كبير مجدد ، وشعره يحتاج الى عقلية لها آفاق فلسفية حتى تتذوقه وكان يقول عن طه حسين أن له الكثير من الروائع ، كتب مرة مقالا عن الموسيقى لايكتبها «مفتح» ويقول لو جمعت مقالات العقاد وطه حسين السياسية ودرست لكان ذلك عظيم الفوائد ، لانها نوع من الهجاء يمكن أن نسميه الهجاء السياسى .

وذكرت أمامه يوما بيت المعرى :

والذى حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

فقال ان بنت الشاطىء قالت عن هذا البيت أنه بيت عادى ، فقلت لها انه من أرقى الأبيات الشعرية العالمية ، قلت لها ذلك أمام أنطون الجميل ومن بين ماقاله لى ، وهو من أسرار الحرب العالمية الثانية :

اننى علمت فى ١١ مارس ١٩٥١ من عطالله باشا أن الانجليز فى حالة التقهقر من مصر فى الحرب العالمية الثانية كانوا يفكرون فى اغراق «البحيرة» كلها ، وأن الاغراق يبدأ من أبى النمرس غرب النيل حتى

الاسكندرية ، ومعروف أنهم كانوا يريدون نسف القناطر الخيرية ، وقد علمت من حمده باشا محبوب أن عثمان محرم عارض فى اغراق «البحيرة» بالماء المالح لأن نتائج الاغراق القديم جدا لاتزال باقية ، وعلق على هذا قائلا ان الانجليز أغرقوا أرضا فى الاسكندرية عام ١٨٠٧ .

ذاكرته :

أما ذاكرته فانها رغم تجاوزه سن السبعين ثم الثمانين ، كانت تعى الكثير ، وتستحضر العديد من الأحداث البعيدة ، والأخبار الصحيحة ، وانه ينطلق متحدثا بلا ريث فى شتى الموضوعات فلا تتعارض عليه، كان يشرح الأداب التصويرية من خلال مفاهيم جمالية وفنية ، ويميز فى سرعة أدق العيوب فى فن صياغة الشعر ، وهكذا كان ذهنه يفيض بخبراته ، حتى حسبت – فى بعض الأحيان – أن ذاكرته تضاهى ذاكرة الشاب الحدث فى وفائها وعطائها ، وسردها لدقائق الاشياء ، وهذا يدل على أن مراكز الادراك عنده مازالت متيقظة واعية قادرة على أداء وظائفها .

ولكن فى بعض الأحيان الأخرى تضطرب ذاكرته ، ويصيبها وهن ، فلا تستطيع تجميع الجزئيات الصغيرة فى مشهد معين ، فتتفكك منه الأحداث ، وتكثر فى رواياته الفجوات ، بل أحيانا تنخفض طاقتها فلا تقوى على استظهار المواقف القديمة ، فتتناساها بالجملة ، وقد يكون مرد ضعف هذا الجزء من الشخصية الذى نسميه الذاكرة – فى موقف من المواقف – الى التوتر النفسى ، وكثافة الأحداث ، وبعد عهدها ، أو الى حالة نفسية معينة تسدل على الذاكرة حجابا يخفى بعض مافيها ، فتفقد بعض خصائصها أعنى القدرة على استعادة الماضى. ونسيان ذاكرة الانسان لشىء لايعنى عدم قدرتها على التفكير وعجزها عن التعبير .

أذكر أنى ذهبت اليه ذات يوم حاملا قصيدة ، وبعد أن أخذت مكانى فى مواجهته أخرجت القصيدة من جيبى ، وقلت له سأقرأ عليك قصيدة نظمتها لتدلى برأيك فيها ، ورحت أقرأ ، وقبل أن أتم الشطر الأول قاطعنى قائلا ، سأقرأها أنا لأنى أخشى أن تكون متأثرا بطريقة قراءة الشعر فى الاذاعة فتمط حينا ، وتخفض صوتك بلا مبرر ... الخ وراح يقرأ

وأب يظل جناحه أفراخه

ماذاق من جرائهم طعم الكرى

ولكم تزود منهمو لرحيله

قبلا اذا ما الصبح بان وأسفرا

وكنت أظن بعد قراءة البيت أنه سيقول شيئا ، الا انه مضى فى القراءة دون أن يقول ما أنتظره منه ، حتى اذا وصل الى هذا البيت :

والناس اما غافل أو كادح

والرزق فى الدنيا لمن قهر الورى

قال لى : ان هذا البيت من نظمى ، فبادرته قائلا : وكيف تسرب الى قصيدتى ؟ قال ربما تكون قد سمعته منى وتسلل الى قصيدتك دون أن تدرى . المهم ضعه بين قوسين دون اشارة الى وانشر القصيدة ، ومضى يقرأ ويستملح معنى ، ويستخف بآخر ، وكيف أن نفس (بفتح الفاء) الشاعر قد ضعف فى هذا البيت ، وعلا فى الأبيات السابقة عليه ... وما الى ذلك من نقد . كان يقرأ ويعلق وأنا مجرد مستمع لا أتدخل فى الكلام الا فى القليل ، ثم أعطانى القصيدة وجاملنى ببعض العبارات . الا أننى ضحكت ، فتعجب لضحكى ،واستفسر عن علة ذلك فقلت له : ان القصيدة ليست من نظمى . انها قصيدتك أنت وقد نشرت فى جريدة الأفكار بتاريخ ١٥/١٠/١٩١٤ تحت عنوان «حول الحرب» ووجدتها فى



الدكتور صبرى بالقرب من شاطىء البحر

كتاب «السلطان حسين كامل لمحمد سيد كيلانى» فرد قائلا : ان هذا لايغير رأيى فى القصيدة ٠

ثم أردف قائلا : وأين أنا الآن من هذا التاريخ البعيد ٠ واننى أسجل هذه الواقعة على أن ذاكرته أحيانا يخبو ضوؤها ، ويضعف اشعاعها ، فلا تقوى على التذكر ٠

وكانت هذه القصيدة ومادار حولها من نقاش باعثا على استرجاع أبيات فرادى أو ثنائية نظمها فى وقت الشباب فراح ينشد بعضها معلقا عليها ومن هذا قوله :

جار الحمام على الحمام فكم هوت
منه مطوقة فناح مطوق

قال : أنا غير معجب الآن بهذا الجناس ، ولكن هذا البيت كان يعجب به صادق عنبر ، وأنشد هذين البيتين :

قد فزت بالقدح المعلى مرة
لما لعبت مع الزمان الميسرا

حتى وجدت الخسر ضربة لازب
فعلمت أن الدهر كان مغررا

وقوله :

مضى العـام مذموم الفعـال مشيعا
بأنة محـزون ودمعـة مشـفق
فلا الغرب فى سـاح اليقين بمهتد
ولا الشرق من رق الاسـار بمعتق

وقال : بيتان من قصيدة طويلة فى العام الهجرى ، وأضاف قائلا : قرأت القصيدة لاسماعيل صبرى فأخرج البيتين المذكورين منهـا وقال على طريقته يحسن نظـم خمسة عشر بيتا فقط من هذا الطراز بدلا من القصائد المطولة .

وأنشد :

يدوس الفتى فى سعيه النمل غافلا
كأن ليس يسعى فى الثرى مثله النمل
ولو نطقت يـوما لقـالت له اتئد
وفى رأسك العينان والباصر العقل

وقال معلقا : قلت هذا قديما ومع ذلك فانى أقتل كل يوم مئات من النمل وأنشد :

وما النـاس الا شـاهد أو ممثل
وكم يخلق التصفيق فى المسرح الأجر

وعلق قائلا : سمعه الشاعر أحمد نسيم فأثنى عليه .

وقضيت معه يوما جميلا ، أنا أستمع وهو يشدو بالشعر ، ويعقب عليه ، ويوضح صوره ، وأخيلته ، ومكانة اللفظ فى العبارة الشعرية ، تساعده الذاكرة فينطلق ، وتخذله فيتعثر ، ويستنجد بالمصادر لتعصمه من السهو ، والرجل هادىء الصوت ، يناقش منفعلا فى بعض الأحيان ، ومن عاداته أن يضم شفتيه اذا ماتذكر شيئا مؤسفا ، ثغره مضحاك ويميل الى ذكر الطرف والملح .

شقته :

وكان الدكتور صبرى يعيش فى شقة كبيرة فى ضاحية مصر الجديدة عندما عرفته ، أشبه ماتكون بمتحف صغير ، لافتة للنظر ، تغص بالآلاف من الكتب المتنوعة فى مختلف ألوان الفكر الانسانى من أدب وتاريخ ولغة ، وعلم وآثار وفن ، تنتشر فى الحجرات والطرقات ، فوق الرفوف والمكاتب والأرائك ، وتتناثر الصحف والمجلات فوق الأرض فى فوضى شاملة ، حتى أن قدم السائر فى السكك لايمكن الا أن تصطدم بها ، ويشاهد المتجول فى هذه الشقة الصور الزيتية

الكلاسيكية فى الأطــر المختلفة المعلقة على الجـدران ، وفوق المكتبات الخشبية ، ويمر نظــره على عــديد من التحف المنحوتة والمحفورة على النحاس والجلد والخشب ، وتماثيل صغيرة وكبيرة لفنانين عالميين من قرون متفاوتة، فهذا تمثال حامل النور من خشب يشبه خشب «القرو» وتمثــال من البرنز للأســد والثعبان للفنان بارى من القرن التاسع عشر ، وفيل برنزى لفنان هندى يرجع تاريخه للقرن التاسع عشر ، وصينية نحاسية ابتاعها من خان الخليلى ويقول عنها انه هو مكتشف صانعها ، فنان مشهور بنقش الأشخاص على الزجاج الملون فى الكنائس وهو من أشهر تلاميذ روبنز ، ويرى النــاظر لوحتين تمثلان الذبائح من النحاس وهما من فن البرتينون وهو فن يقوم بتصغير التماثيل الكبيرة ، وتمثال لبرمرانت وآخر لروبنز صنعا من معدن يغلب عليه الرصاص ، وهو أقل قيمة من النحاس لسهولة العمل عليه ، ولكن الدقة فى صنع التمثالين عالية ، والجالس الى الدكتور صبرى يستمتع بحديثه وهو يحكى حكاية كل لوحة وكل تمثال من هذه اللوحات والتماثيل • كيف اشــتراها ، وأين عثر عليها ، وكيف اكتشف صــانعها • وقد كان يذهب الى المتاحف الأوربية الكبرى ليكشف عن صانعى هذه التماثيل أو اللوحات ومدى قيمتها وعندما لايحصل

رأيا مقنعـــا ، يقـــوم هـــو بالكشف فى معجم لديه عن امضاءات الفنانين ليتعرف على الفنان صـــاحب اللوحة والى أى عصر ينتمي . ونبذة عن تاريخه ، ومايتميز به ، وهذا جهد فنى فى تحقيق اللوحات الزيتية المجهولة النسب يحسب له ، ويماثله فى الشعر تحقيق القصائد التى لانعرف قائلها .

وتضم مكتبته الكتب النخب ، كثيرة متراصة توجب العجب ، ومن بينها الأعمال الكاملة للفنان رمبرانت فى ثمانية مجلدات كبيرة ، والذى يجب معرفته أن مجموعة رمبرانت طبع منها حوالى ٦٠٠ نسخة كل نسخة لها رقم معين مثبت داخل الغلاف ، ومذكرات مترنخ فى ثمانية أجزاء ، وكتاب مطبوع عام ١٦٨٢ عن رحلات فى تركيا وبلاد العجم ، وكتب الرحالة قديما وحديثا ، ودوائر معارف كاملة فى الفن والفكر . ومخطوطات كثيرة مثل شرح ابن جنى عـــلى ديـــوان المتنبى ، ومخطـــوط لابن الانبارى فى اللغة ، وآخر لديوان البحترى عليه شروح وتعليقات ، وقد اعتمد على هـــذا الديوان المخطوط فى درس البحترى ، ومذكرات خطية لمحمد عبده ،وكتب مخطوطة لسيدالمرصفى لم يأتذكر لها من قبل ، ويقتنى طبعات مختلفة لبعض الكتب لمقارنة بعضـــها ببعض ، ومجموعات من الصحف والمجلات التى ظهرت فى مصر

منـــذ أواخر القـــرن الماضى مثـــل سركيس والمشرق ، والتقدم ، ومجلة المجلات العربية وغـــيرها ، ومكتبته الفنية لايوجد مثلها الا عند قلائل فى العالم ، ومكتبته عن تاريخ أفريقيا لا أعتقد أنه يوجد مثلها على المستوى الفردى ، وقد جمع كل هذه الأشياء من مختلف البلدان التى زارها أو عمل فيها مثل فرنسا وسويسرا ، وايطاليا وألمانيا وهولندا وبلجيكا وانجلترا ، وكان يملأالصناديق بالكتب والتحف ويرسلها الى مصر ، ولم تحظ كل هذه الأشياء بالتنسيق الواجب ، والتنظيم اللازم ، والتنظيف الدائم ، فالتراب يعلوها ، ويد الاهمال امتدت اليها ، فتجد أوراقا كثيرة ممزقة ، وصـــحفا جف ماء ورقهـــا فصارت هشة تحتـــاج الى مرمة ، وكتبا انفصلت عنهـــا أغلفتها حتى لقد زاره أحـــد الصحفيين فكتب عنـــه فى الأهــــرام (١) «تخـــــرج من السربون ويعيش مـــع العنكبوت» .

وكان يقيم بمفرده فى هـــذه الشقة ، فلا خادم ، ولا أحد من الاسرة ، وكان يقوم وهـــو فى هـــذه السن بقضاء حاجته بنفسه ســـواء مايلزمه من الخـــارج ، أو مايعده من طعام فى منزله ، ومايجب أن يقال فى هذا

(١) الصحفى هو كمال الملاخ .

المقام أنه أستاذ ماهر فى طهى الطعام واعداده ، وهو ذواقة يعرف كيف يختار المأكولات التى تلائم حالته الصحية ، والمقادير المناسبة ، ويعرف كيف يعد أصنافا جديدة للطعام ، وطرائق بديلة فى الطهى ، ومقاومته لاعراض الشيخوخة جعلته يحتفظ الى حد ما بحالته الصحية ، معتمدا فى ذلك على نصائح الأطباء الفرنسيين ، مستعينا بتجاربه وملاحظاته على معدته بعد كل نوع من المأكولات بالنسب التى يتعاطاها ويعرف كيف يجرب نوعا آخر من الطعام أو يعدل من نسبه ٠

موقفه من الناس :

كان السربونى يؤمن بالحياة ويتغنى بالجمال ، ولكن فى أخريات أيامه تبرم بالناس ، وضاق صدره بهم ، وساء ظنه فيهم ، وتجاوز المدى فى كثير من الأحيان ، ومات وهو يظن أن بعض الجهات تدبر له المكائد ، وتعطل مسيرته ، وتنغص عليه حياته ، وسيطرت عليه مشاعر التوقع والتوجس ٠ واذا لاذت الوساوس بالانسان تحول دون مضيه فى عمله ، وتقدمه فيه ، لأنها تشغل العقل بالأوهام ، وتعطل الحواس التى تنقل اليه اللذة ، وبالتالى تفتر علاقاته بالمجتمع ٠ فلا جرم

ان رأيناه يكتئب نفسيا ، وتسهل اثارته لأوهى الأسباب •

وليس اعتباطا ترديده لبيت الأحيمر السعدى فى أكثر كتبه العربية •

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوت انسان فكدت أطير

اذ فهم البيت على أن الانسان ذئب للانسان ، وان تكريره لهذا البيت يكشف لنا ناحية هامة فى حياته ، وتفكيره ومواقفه تجاه الناس ، وقد ترسخ اعتقاد لديه باضطهاد الآخرين له ، وتمكن منه هذا الاحساس واستغرقه ، حتى عز عليه أن يقول فى أقرب المقربين اليه خيرا ، وصار الكثير من نواحى حياته ، وخاصة فى سنيه الأخيرة غامضا بسبب عزلته واحتجازه ، ولذلك عاش فى الظل سنوات طويلة قبل وفاته ، فلم يذكره الدارسون كثيرا فى ثنايا كتاباتهم •

وفى الرجل جانب خشن أصيل فيه ، واضح عليه ، وكاميتيديا فى علاقاته بمن يعرفهم ويعرفونه •

واذا كنا قد ذكرنا هذا الجانب الذى يحسب عليه ، فانه يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار المضايقات الكثيرة التى سببها له الآخرون ، وقد ضربنا أمثلة للقضايا التى

رفعها ضد الحكام ، والجور الذى تعرض له فى وظيفته ورزقه ، وكيف يطلب من الانسـان الذى توالت عليه المحن والمظالم أن يكون سمحا ودودا رائق البال ، حسن الرأى فى الناس ٠

وفى الرجل جوانب انسانية مضيئة ، تدل على أنه أصيل فى حب الخير ، ونضرب عدة أمثلة لذلك ٠

مر بنا كيف رسب فى امتحان الليسانس ، ونجح طه حسين ، فذهب اليه يبلغه ويهنئه ، ولم يحقد عليه ، ولم يخف فرحته بنجحه ، وحكى لى الاستاذ سيد كيلانى أنه فى عام ١٩٤٧ عندما كان طالبا فى كلية الآداب ، أرسل خطابا الى السربونى حين كان مديرا بالنيابة لدار الكتب ــ دون معرفة سابقة ــ والتمس فى خطابه أن ييسر له عملا يمكنه من مواصلة دراسـته ، فـرد عليه وأفاده بالقدوم لمباشرة عمله ، وقد واجهت الدكتـور بهذه الحكاية فلم يتذكر ، وقص على الدكتور عبد الفتاح الديدى قصة مفادها أن السربونى ساعده عندما تقـدم ليكون أحد المبعوثين المصريين الى فرنسا لولا اعتراض طه حسين ٠ كما روى لى الاستاذ عمر عبد العزيز أمين ذات يوم فى كازينو تريومف أن للدكتـور صبرى أياد بيضاء عليه ، وقد صرح له باصـدار سلسلة الروايات

التى ترجمها هو وآخرون ، وليس هذا فحسب ، ولكنه أسدى النصائح لكثيرين وعلم آجيالا كاملة ، وللأسف لم يذكره بالخير الا أقل القليل ٠

وكان السربونى يدافع عما يعتقد آنه حق ، ويصحح الخطأ باعتباره باطلا ٠

وقد زهد الرجل فى كل شىء قبل الرحيل ، حتى فى الكتابة والشهرة وذيوع الصيت ، ولى واقعة معه أرويها للتدليل على ذلك ٠

اقترح على صديقى الشاعر الاستاذ الحسانى عبد الله أن أكتب مقالا عنه لنشره فى مجلة الثقافة المصرية ، ورحبت باقتراحه ، ورحت آعد المقال دون أن يعلم السربونى مافى طويتى ، وكان كلما التبس على شىء ذهبت اليه ليوضحه لى ، وعندما لاحظ كثرة أسئلتى حوله ، استفسر عن علة ذلك ، فأخبرته بالحقيقة ، وكنت أظن أنه سيهش لذلك ، ولكن الذى حدث أنه ثار فى وجهى ، وثنى همتى لأصرف نظرى عن هذا الأمر ، وأحاطنى علما بعدم رغبته فى ذلك ، وآحجم عن اجابة مطالبى ، الا آننى مضيت فى الأمر وآتممته ، ونشرت المقال على حلقتين فى مجلة الثقافة ٠

وقد ادركه لزهد فى الشهرة قبل ثلاثين عاما من

وفاته ، يقول فى مقدمة كتابه «أدب وتاريخ واجتماع» الذى صـــدر عام ١٩٥٠ : « ٠٠ زهــدنا فى الكتابة ، وزهدنا عن جوائز القــوم » ٠ ومع ذلك عاود الكتابة لأنها داء فيه ٠

الجمعة ١٣ يناير ١٩٧٨ ـ قبلات الوداع :

زرته فى أصيل هذا اليوم ، ولم آكن قد زرته منذ عدة شهور ، وطرقت بابه ، ففتحت لى سيدة ، وعجبت وتساءلت من تكون ؟ ولم يسبق أن فتح بابه لى غيره ، وعرفت منها أنها كريمته ، ودخلت اليه فى حجرته ، وما أن رآنى حتى هتف قائلا : أين أنت ؟ كيف حـــال الأصدقاء ؟ وما آخبار الأدب والأدباء ها آنا فى عزلتى لا أعرف شـــيئا ، فقلت له بخير مادمت أنت بخير ، ثم أشعل زوج كريمته المدفئة وعندما انبعث منها الدفء ورأى النار تحدث الينا بعض الشيء ، ولم أســتطع أن أخفى مشاعر الحزن العميق التى خالجت نفسى وأنا انظر اليه ، وأتحدث معه ، وحاول النهوض فخذلته قوته ، فاتكأ على صدر زوج بنته وجلست معه بعض الوقت ، وصافحته وانحنيت لترتعش شفتاى على يده وجبينه فى قبلات ابن لأبيه ، وتلميذ لاستاذه ، وصديق لصديقه ، وأنا لاأدرى أنها قبلات الوداع ٠ وتركته على هــــذه الحال ٠

الأربعاء ١٨ يناير ١٩٧٨ :

كان الأطباء قد شخصوا مرضه بتصلب في الشرايين، ومهما يتقدم الطب فان «لكل أجـل كتاب» ففي مساء الأربعاء الموافق ١٨ ينـاير ١٩٧٨ صـعدت روحه الى بارئها ، وفي يـوم الخميس ١٩ ينـاير ١٩٧٨ حملت صحيفة الأهرام الى الدنيا نعيه ، ولم أشترك في جنازته لعدم علمي بذلك ، وكانت جنازة هـزيلة لاتليق به ، وقد وصف الاسـتاذ فتحي رضـوان جنـازته بقوله : «... فلم يخف لتوديعه حتى اللحظة الأخيرة الا عدد من عارفي فضله ، والمقدرين لمآثره . ولايزيدون على العشرة . «فكان ماأصاب هذا المفكر العظيم من الجحود ونكران الفضـل أبى الا أن يلاحقـه ويصاحبه حيـا وميتا»

ووصفها الاسـتاذ بدر الدين أبو غازى بقوله : «فلم يكن من نصيبه غير نعى صغير من أسرته ، وجنازة متواضعة مشى فيها أربعة من مقدريه لشخصه ومكانته، ومجموعة من الضباط جاءوا لمواساة أحد أفراد أسرته» .

وهكذا كانت جنازته متواضعة ، فمضى مـوته في صمت ، ولم تذكره الصحف والمجلات الا فى كلمات قليلة كتبها عارفوه من أمثال الاستاذ فتحي رضوان فى آخر

ساعة ، والاستاذ بدر الدين أبو غازى فى الأهرام ، والدكتور عبد العزيز الدسوقى والاستاذ محمد عبدالغنى حسن فى مجلة الثقافة ، والاستاذ جلال السيد فى الجمهورية والاستاذ زكى عبد القادر ومحمود فهمى عبد اللطيف فى الأخبار . وهذه المقالات تتراوح بين القصر والطول ، ويغلب عليها العزاء والأسى لفقده .

وفى ١٩٧٨/٣/٦ أقام الاستاذ فتحى رضوان ، وبدر الدين أبو غازى حفل تأبين له فى مقر جمعية الاقتصاد والتشريع السياسى حضرها عديد من عارفى الرجل ، وحاضر فيها كل من فتحى رضوان ، وبدر الدين أبو غازى ، د. ابراهيم نصحى ، وحسن كامل الصيرفى (شعر) ومحمد عبد الغنى حسن (شعر) و د. محمد أنيس .

وقد وضح المؤبنون بعض جوانب فى شخصيته ، وألقوا أضواء على مؤلفاته . ومهما يكن من أمر فان قدر الرجل أكبر بكثير من كل ماقيل فى الخطب والمقالات .

ولعل فى مادة هذا الكتاب ضوءا أقوى ، ينير الطريق أمام دارسيه ، ويفتح الباب لقارئيه .

نشرة ببليوجرافية

النشرات الببليوجرافية Bibliographies تتضمن الفهارس والمراجع والاثبات لموضوع معين أو عدة موضوعات ، وهى تساعد على تقصى انتاج الكاتب (مثلا) وتتبع آثاره ، وصدى كتاباته عند الآخرين ٠

وقد كثرت النشرات الببليوجرافية فى التراث العربى المعاصر ، وأشير هنا الى النشرة الببليوجرافية الضخمة التي قدمها الاستاذ يوسف أسعد داغر تحت عنوان «مصادر الدراسة الأدبية» وهي مكونة من جزءين وتقع فى أكثر من ١٢٠٠ صفحة واحتوت على أكثر من ١٣ر٠٠٠ مصدر ، وتناولت مصادر الدراسة الأدبية من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث ، كما قدم الاستاذ عبد الستار الحلوجي نشرة ببليوجرافية خاصة بآثار العقاد الفكرية عام ١٩٦٤ تقع فى نحو ١٥٠ صفحة ٠

واننى أهيب بكتاب التراجم أن يثبتوا فى تراجمهم نشرة موسعة محققة مفصلة تتضمن المراجع والاثبات حتي يتيسر للباحثين الآخرين أن يتابعوا كاتب الترجمة وصاحبها ٠

ان ماكتبته فى هذه الدراسة عن السربونى لايمثل الا وجهة نظر واحدة ، هى وجهة نظرى ، ولا أدعى أنها وجهة النظر الوحيدة والصحيحة ٠ لذلك بادرت باثبات هذه النشرة البيليوجرافية لتمد الدارس الذى يرغب فى دراسة السربونى من جديد بفهارس يرجع اليها لتقديم وجهة نظر أخرى ٠ ولايقتصر دور هـذه النشرات على هذا فحسب ، بل ان الباحث يستطيع بعد الرجوع الى هذه المصادر أن يستكمل النقاط التى أثرناها ولم نتمكن من استيفائها ، أو يستوضح أمـورا جاءت غامضة فى دراستنا ، أو موضوعات أهملناها لعلة أو لغير علة ،ـ وهكذا أقدم الى القارىء والدارس جميعا مفاتيح نقـد هذه الترجمة ٠

ولاأزعم أن ما أثبته فى هـذه البيليوجـرافية من مقالات السربونى الأدبية أو التـاريخية أو الاجتماعية هو كل انتاجه الذى لم يضمه كتاب ، بل دونت ماتيسر لى ٠

وهذه الفهارس تشتمل على :

١ ـ مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة

٢ ـ مقالاته التى لم تجمع فى كتب

٣ ـ ماكتب عنه فى مختلف الكتب والدوريات ·

مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة

١ ـ شعراء العصر « الجزء الأول » قدم له مصطفى لطفى المنفلوطى صدر عام ١٩١٠ .

٢ ـ شعراء العصر « الجزء الثانى » قدم له جميل صدقى الزهاوى صدر عام ١٩١٢ .

٣ ـ ذكرى الماضى أو سياحة فى الجبل ، وهى مقالات وجدانية خيالية اعتنى بطبعها وجمعها صالح شكرى بجريدة المؤيد ، تتصدرها قصيدة للشاعر أحمد الكاشف عام ١٩١٥ .

٤ ـ الثورة المصرية « الجزء الأول » La Révolution Egyptienne باللغة الفرنسية ، قدم له أولار A. Aulard أستاذ الثورة الفرنسية بالسربون صدر عام ١٩١٩ فى باريس .

٥ ـ المسألة المصرية ، باللغة الفرنسية صدر فى باريس عام ١٩٢٠ .

٦ ـ الثورة المصرية « الجزء االثانى » باللغة الفرنسية صدر فى باريس عام ١٩٢١ .

٧ ـ تاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليا ، وهى محاضرة القاها على قسمين فى الجامعة المصرية فى يوم ١٠ ، ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ ونشرتها جريدة الاستقلال ، ثم جمعها فى كتاب صدر عام ١٩٢٢ تتصدره مقدمة للشاعر خليل مطران .

٨ ـ محمود سامى البارودى ، بحث نشره على دفعات فى جريدة السياسة الأسبوعية ثم جمعه وطبعه فى عام ١٩٢٣ .

٩ ـ اسماعيل صبرى .

١٠ـ نشأة الروح القومية فى مصر La Genèse de l'Esprit Nationnel Egyptien وهو رسالة الدكتوراه Docteur és lettres كتاب باللغة الفرنسية يقع فى ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير يبحث فى تاريخ الوطنية المصرية منذ عصر محمد على الى آخر الثورة العرابية ، صدر فى باريس عام ١٩٢٤ .

١١ـ تقرير عرابى الى المحامين « رسالة تكميلية » باللغة الفرنسية صدر فى باريس عام ١٩٢٤ .

١٢ـ تاريخ مصر الحديث من محمد على الى اليوم ، كان مقررا على طلبة المدارس صدر عام ١٩٢٦ .

١٣ـ تاريخ العصر الحديث ، ويتكون من ثلاثة كتب فى مجلد واحد ، الكتاب الأول عن مصر وهو نص كتاب « تاريخ مصر الحديث من محمد على الى اليوم » والكتاب الثانى بعنوان « الولايات المتحدة » والكتاب الثالث بعنوان « الاستعمار الأوربى » قررته وزارة المعارف على المدارس الثانوية وبعض معاهد التعليم العالى ، صدر عام ١٩٢٧ :

١٤ـ الثورة الفرنسية ونابليون ويشتمل على عديد من الصور .
تتصدره لوحة من تصوير الرســـام رافيه Raffet عن
الحرية » ، طبعة دار الكتب صدر عام ١٩٢٧ .

١٥ ـ أدب وتاريخ ، وجمع فيه الكتب التى أصدرها عن البارودى
واسماعيل صبرى ، وتاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليا ،
وأضاف اليه الكتاب الرابع « الفصول » وهى أبحاث متنوعة
فى النقد والأدب والفلسفة .

١٦ ـ الامبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية .
L'Empire Égyptien sous Mohamed Ali et la Question d'Orient (1811-1846).
صدر فى باريس باللغة الفرنسية عام ١٩٣٠ فى ٦٠٠ صفحة
من القطع الكبير .

١٧ ـ الامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل والتدخل الانجليزى
الفرنسى
L'Empire Egyptien Sous Ismail et l'ingérence Anglo-Française (1863-1879).
صدر فى باريس باللغة الفرنسية عام ١٩٣٣ فى ٦٠٠ صفحة
من القطع الكبير .

١٨ـ مصر فى أفريقيا الشرقية ـ هرر وزيلع وبربره ، صدر فى
عام ١٩٣٩ .

١٩ ـ نوبار باشـــا مقال نشر فى دائرة المعارف الاســـلامية التى
كانت تصدر فى هولندا باللغة الفرنسية .

٢٠ـ الشوامخ الجزء الأول « امرؤ القيس » صدر عام ١٩٤٤ مطبعة
دار الكتب .

٢١ـ الشوامخ الجزء الثانى « الشعر الجاهلى أعلامه وخصائصه » صدر عام ١٩٤٤ ٠ مطبعة دار الكتب ٠

٢٢ـ الشوامخ الجزء الثالث « ذو الرمة » صدر عام ١٩٤٦ مطبعة دار الكتب ٠

٢٣ـ الشوامخ الجزء الرابع « البحترى » صدر عام ١٩٤٦ مطبعة دار الكتب ٠

٢٤ـ السودان المصرى ١٨٢١ ـ ١٨٩٨ باللغة الفرنسية ، وهو الكتاب الذى عرض من خلاله محمود فهمى النقراشى قضية السودان فى مجلس الأمن عام ١٩٤٧ ٠

٢٥ـ الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ، وهو ترجمة الكتاب السابق بعد اضافة بعض الفصول اليه ٠ صدر عام ١٩٤٨ ، مطبعة مصر ٠

٢٦ـ أطلس الامبراطورية السودانية ٠

٢٧ـ أدب وتاريخ واجتماع ، صدر عام ١٩٥٠ ، مطبعة مصر ويحتوى ما اشتمل عليه كتاب « أدب وتاريخ » الذى صدر عام ١٩٢٧ وأضاف اليه الكتب الآتية :

- فصول فى الأدب (أدب النقد والتحليل) ٠
- أدب الوحى والتصوير وضم هذا الفصل الكبير بعض مقالات كتاب ذكرى الماضى ٠
- امرؤ القيس وجوته فصل فى حوالى ١٠٠ صفحة ٠
- فصول فى الاجتماع ٠
- فصول فى التاريخ ٠

٢٨ـ أسرار قضية التدويل بتقديم جمال عبد الناصر صدر عام ١٩٥٧ ـ دار القاهرة للطباعة .

٢٩ـ فضيحة السويس صدر عام ١٩٥٨ المطبعة العالمية .

٣٠ـ خليل مطران أروع ما كتب صدر عام ١٩٦٠ ـ مطبعة دار الكتب .

٣١ـ االشوقيات المجهولة الجزء الأول صدر عام ١٩٦١ ـ مطبعة دار الكتب .

٣٢ـ الشوقيات المجهولة الجزء الثانى صدر عام ١٩٦٢ ـ مطبعة دار الكتب .

٣٣ـ حضارة العرب فى الكونغو ووسط أفريقيا فى القرن التاسع عشر ، مخطوط باللغة الفرنسية يقع فى ١٥٠٠ صفحة .

مقالات فى الدوريات لم تجمع فى كتب

مقالات أدبية واجتماعية وفنية :

١ ـ الى الفقيد الراحل رثاء فى المطرب عبد الحى حلمى .

مجلة الملاجىء العباسية عدد ذى القعدة ١٣٣٠ هـ .

٢ ـ حافظ بك ابراهيم .

مجلة سركيس عدد ١ يونيه ١٩١٢ .

٣ ـ عصر حافظ .

محاضرة طويلة ألقاها فى مهرجان حافظ الذى أقامه المجلس الأعلى للفنون والآداب فى يولية سنة ١٩٥٧ .

٤ ـ الوصولية والوصوليون .

جريدة منبر الشرق (رئيس تحريرها على الغاياتى) بتاريخ ١٥/٢/١٩٤٦ .

٥ ـ لقد آن الأوان لاصلاح دار الكتب .

مجلة عالم المكتبات عدد يناير / فبراير ١٩٥٩ .

٦ ـ عبقرية الشعر الجاهلى .

بحث كبير نشر فى مجلة « المجلة » عدد أبريل ١٩٥٩ .

٧ ـ الطبيعة فى الشعر ٠
مجلة قافلة الزيت عدد محرم ١٣٧٩ هـ ٠

٨ ـ تراثنـــا ٠
الأهرام فى ١٩٦١/٥/٥ ٠

٩ ـ المناسبات فى شعر البحترى ٠
محاضرة ألقاها فى مهرجان الشعر الثالث فى دمشق سبتمبر ١٩٦١ ٠

١٠ـ سير ملهمة من الشرق والغرب ٠
مقال عن كتاب الأستاذ اسماعيل مظهر ـ قافلة الزيت أكتوبر ونوفمبر ١٩٦١ ٠

١١ـ محمود مختار كما عرفته ٠
مجلة المجلة عدد يولية ١٩٦٢ ٠

١٢ـ الحـــريق ٠
من الأدب التصويرى ـ قافلة الزيت عدد نوفمبر / ديسمبر ١٩٦٢ ٠

١٣ـ أحمد شوقى فى ذكراه ٠
جريدة المساء فى ١٧ أكتوبر ١٩٥٧ ٠

١٤ـ على هامش الشوقيات المجهولة ٠
الهلال عدد نوفمبر ١٩٦٨ ٠

١٥ـ أحمد شوقى حياته وانتاجه وشعره ٠
مجلة قافلة الزيت عدد مايو ١٩٦٥ ٠

١٦- الوطن والتاريخ فى شعر شوقى .
بحث كبير فى مجلة « المجلة » عدد ديسمبر ١٩٦٨ .
١٧- معركة فن بيكاسو .
رد على العقاد والجباخنجى - جريدة الجمهورية فى ٣٠ ديسمبر ١٩٦١ .

احاديث صحفية :

١ - تخرج من السربون .. حديث أجراه كمال الملاخ .
الأهرام فى ١٩٥٨/٢/٩ .
٢ - البحث عن تراثنا .
مجلة الكاتب عدد ديسمبر ١٩٦١ .
٣ - حديث أجراه فوزى سليمان .
جريدة المساء فى ١٨ نوفمبر ١٩٦٢ .
٤ - حديث عن المكتبات أجراه حسن محسب .
جريدة المساء فى ١٩ فبراير ١٩٦٤ .
٥ - ونحن نعيد كتابة التاريخ حديث أجراه محمد طلبة رزق .
مجلة بناء الوطن عدد نوفمبر ١٩٦٥ .

مقالات تاريخية وسياسية :

١ ـ النهضة المصرية فى طورها الجديد ، وجوب ترك السياسة الحزبية واتباع سياسة قومية عملية نظامية اصلاحية .

الأهرام ١٤/٤/١٩٢٢ .

٢ ـ عقلية المحافظين أو الاحتلال المقنع فى الزمان والمكان جريدة الكتلة فى ٢٥/٥/١٩٤٦ .

٣ ـ السوداان المصرى حقائق يتجاهلها الانجليز :

الأهرام فى ١٠/١/١٩٤٩ .

٤ ـ الى أين ؟ أجلاء أم تدخل ؟

جريدة المصرى فى ٢٨/١٢/١٩٤٩ .

٥ ـ عتـــاب .

يعاتب فيه الصحافة المصرية على سكوتها عن شرح وجهة النظر المصرية فى مسألة المستعمرات الايطالية .

الأهرام فى ١٣/٤/١٩٤٩ .

٦ ـ مصر والسودان يقفان والفلك المسخر دائر .

المصرى فى ١٧/٦/١٩٥٢ .

٧ ـ لمحات الى الثورة .

مجلة « الثورة » فى ١/٧/١٩٥٤ .

٨ ـ دول اتفاقية ١٨٨٨ .

جريدة الأخبار فى ٣/١٢/١٩٥٦ .

٩ ـ مؤتمر التضامن الأفريقى الأسيوى ٠
مجلة معهد الدراسات الاسلامية العدد الأول السنة الأولى ١٩٥٨ ٠

١٠ـ صفحة من تاريخ جمال الدين الأفغانى ٠
ويتناول فيه أيضا تاريخ الماسونية فى مصر ٠
مجلة الدراسات الاسلامية ١٩٥٨ ٠

١١ـ علم التاريخ ـ بمناسبة أحداث الكونغو ٠
جريدة وطنى فى ١٩٦٠/١٠/٩ ٠

١٢ـ العرب كانوا فى أعالى النيل قبل أن يكتشفها يونكر ٠
الاهرام فى ١٩٦١/٣/٣ ٠

١٣ـ لو كنت فى الآخرة لما صدقت كل هذا الذى حدث ٠
الجمهورية فى ١٩٦٢/٦/٩ ٠

١٤ـ فيلم الخرطوم ٠
الجمهورية فى ١٩٦٥/٩/٢٣ ٠

١٥ـ السـودان ٠
الجمهورية فى ٢٠ مايو ١٩٦٨ ٠

١٦ـ وضع المحراث وراء الثيران ٠
رد على الأستاذ محمد على رفاعى يصحح فيه معلومات تاريخية عن أفريقيا ٠
الجمهورية فى ١٩٦٨/١١/١٣ ٠

١٧ـ الحدود الآمنة والوجود الاسرائيلى ٠
الأهرام فى ١٩٧١/١/١٩ ٠

١٨ـ يوم مجيد فى تاريخ مصر ٠
المساء فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٧ ٠

دراسات عن حياته ومؤلفاته

(أ) دراسات عن حياته ومؤلفاته :

١ ـ سعد زغلول : مذكرات سعد التى رواهامن كامل سليم
الأخبار ٢١/٤/١٩٦٩ .

٢ ـ أحمد شوقى : رسالة شوقى اليه ـ مقدمة كتاب البارودى .

٣ ـ خليل مطران : مقدمة كتاب الحركة الاستقلالية .
رسالة مطران اليه حول كتابه الشوامخ الجزء الأول .

٤ ـ محمد عبد الغنى حسن : صبرى السربونى المؤرخ والأديب .
الثقافة عدد ٥٤ مارس ١٩٧٨ .

٥ ـ الدكتور عبد العزيز الدسوقى : طويت صفحة السربونى .
الثقافة عدد ٥٣ فبراير ١٩٧٨ .

٦ ـ فتحى رضوان : محمد صبرى السربونى
كتاب أفكار الكبار .

٧ ـ بدر الدين أبو غازى : صبرى السربونى ودقـــات الساعة .
الأهرام ١١/٢/١٩٧٨ .

٨ ـ محمد فهمى عبد اللطيف : آستاذنا السربونى •
الأخبار ٢٥/١/١٩٧٨ •
الذين نسيناهم •
الأخبار فى ٩/٢/١٩٧٨ •

٩ ـ فايق الشرقاوى : صبرى السربونى متى ينصفه التاريخ •
الأهرام ٤/٣/١٩٧٨ •

١٠ـ جلال السيد : الأديب الذى نسيه الأدباء ، والمؤرخ الذى تجاهله المؤرخون •
الجمهورية فى ٤/٢/١٩٧٨ •

١١ـ حسن عبد المنعم : ارفعوا عنهم أذيال النسيان •
الأهرام فى ١/٣/١٩٧٨ •

١٢ـ عبد المنعم شميس : محمد صبرى السربونى •
فصل ضمن كتاب « شخصيات فى حياة شوقى » سلسلة اقرأ •
المساء فى ١٢/٤/١٩٦٣ •

١٣ـ عاشور عليش : مع الدكتور محمد صبرى السربونى شيخ المؤرخين المساء ١٢/٤/١٩٦٣ •

١٤ـ حسن كامل الصيرفى : فقيد الأدب والتاريخ •
الثقافة مايو ١٩٧٨ •

١٥ـ يوسف القعيد : ظلمناه حيا فهل ننصفه ميتا •
المصور فى ٢٤ مارس ١٩٧٨ •

١٦ـ بنت الشاطىء : أفكار الكبار •
الأهرام أول فبراير ١٩٨٠ •

(ب) : دراسات حول الشوامخ :

١ ـ امرؤ القيس درس وتحليل ·
الأهرام فى ١٩٤٤/٣/٢٦ ·

٢ ـ رسالة من خليل مطران عن كتاب امرىء القيس ·
مجلة الأديب عدد يونيه ١٩٧٨ ·

(ج) : دراسات عن كتاب « الشوقيات المجهولة » :

١ ـ بنت الشاطىء : أضواء على تاريخنا ·
الأهرام فى ١٩٦٢/١/٥ ·
رسالة من السربونى وتعليق من بنت الشاطىء ·
أضواء على تاريخنا ·
الأهرام فى ١٩٦٢/١/١٩ ·
أضواء على تاريخنا ·
الأهرام فى ١٩٦٢/٨/٣١ ·

٢ ـ محمود أبو الوفا : الشوقيات المجهولة ·
قافلة الزيت عدد أبريل / مايو ١٩٦٢ ·

٣ ـ أنور الجندى : الشوقيات المجهولة ·
الأديب يناير ١٩٦٢ ·

٤ ـ على حسن العماى : الشوقيات المجهولة ·
مجلة الأزهر يناير ١٩٦٢ ·

٥ ـ كامل الشناوى : عبقرية وصبر واضطهاد ـ الشوقيات المجهولة ·
الجمهورية فى ١٩٦١/١١/٩ ·

٦ ـ رشـدى صالح : حدث أدبى خطير ـ اكتشاف ١٣٠ قصيدة مجهولة لشوقى ·
مجلة الاذاعة فى ٢٨/١٠/١٩٦١ ·

٧ ـ جريدة وطنى : كلمة بلا توقيع تحت عنوان « نفائس أدبية جديدة » ·
وطنى فى ٢١/١٠/١٩٦٢ ·

(ج) دراسات عن كتاب أدب وتاريخ ، وأدب وتاريخ واجتماع :

١ ـ مجلة الزهراء : أدب وتاريخ ·
الزهراء عدد رمضان ١٣٤٥ هـ ·

٢ ـ وديع فلسطين : أدب وتاريخ واجتماع ·
المقطم فى ٢٦ ديسمبر ١٩٥٠ ·

٣ ـ أحمد حسين الصاوى : أدب وتاريخ واجتماع ·
الثقافة (أحمد أمين) ٢٢ يناير ١٩٥١ ·

(د) دراسات حول كتاب خليل مطران أروع ما كتب :

١ ـ عباس العقاد : خليل مطران أروع ما كتب ·
قافلة الزيت يونيه/يوليه ١٩٦١ ·

٢ ـ وديع فلسطين : خليل مطران أروع ما كتب ·
الأديب مايو ١٩٦٢ ·

٣ ـ حسن كامل الصيرفى : خليل مطران الناثر ٠
مجلة « المجلة » نوفمبر ١٩٦٠ ٠

٤ ـ جيلى عبد الرحمن : أروع ما كتب خليل مطران ٠
المساء فى ٢٠ يناير ١٩٦١ ٠

(هـ) معركة الفن والجمال : بين السربونى وهؤلاء :

١ ـ العقاد : قواعد علم الجمال ٠
الأخبار فى ١٩٦١/١٢/٢٧ ٠

٢ ـ أحمد الصاوى محمد : السياحة والجمال ٠
الأخبار نوفمبر ١٩٦١ ٠

٣ ـ صدقى الجباخنجى : تقاليد جديدة فى الجدل الموضوعى ٠
الجمهورية فى ١٩٦١/١٢/٢٢ ٠

(و) مقالات عن كتابيه حول قناة السويس :

١ـ جمال عبد الناصر : رسالة عبد الناصر وهى مقدمة كتاب
أسرار قضية التدويل ٠

٢ ـ أحمد قاسم جودة : مقال فى الجمهورية عدد ٢ مارس ١٩٥٧
جاء فيه « هو بحث فى أقل من مائة صفحة يغنى عن قراءة مائة كتاب فى تفسير السياسة الدولية الحاضرة والغابرة بشأن قناة السويس وخليج العقبة أيضا ٠٠ » ٠

مقالات عن كتابيه الامبراطورية المصرية
فى عهد محمد على وعهد اسماعيل :

١ ـ مجلة ريفى دى فرانس عدد أول يولية سنة ١٩٣٠ .

٢ ـ مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن ـ المجلد السادس القسم الأول ١٩٣٠ .

٣ ـ مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية ـ بقلم شارل رو ـ عدد يناير/فبراير ١٩٣١ .

٤ ـ مجلة الأدب المستشرقة (ليبزج) سنة ١٩٣١ عدد ٧ بقلم هاز تكليفر الأستاذ بجامعة جيتنجن .

٥ ـ ريفى بليه (باريس) أول أغسطس ١٩٣١ بقلم بول فايل .

٦ ـ مجلة الجمعية الأسيوية (لندن) يناير ١٩٣٢ بقلم الكولونيل الجود .

٧ ـ مجلة المستعمرات الايطالية عدد نوفمبر ١٩٣٠ .

٨ ـ كتاب جورج دوان « حرب الشام الأولى » بالفرنسية ١٩٣١ .

٩ ـ مجلة العالم الاسلامى الانجليزية عدد ٢٥ يولية ١٩٣٤ .

١٠ـ مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن . باب نقد الكتب ـ عدد ١٠/فبراير ١٩٣٤ بقلم هنرى دودويل .

١١ـ مجلة العلوم الدينية (جامعة استراسبورج) ١٩٣٤ .

١٢ـ مجلة الأللستراسيون الفرنسية عدد ١٨ نوفمبر ١٩٣٣ .

١٣ـ مجلة بوليببليون الفرنسية سنة ١٩٣٣ .

١٤ـ مجلة الجمعية الجغرافية بباريس عدد ديسمبر ١٩٣٣ .

١٥ـ مجلة الشهر (ليموا) عدد ١٠ يناير ١٩٣٤ .

١٦ـ مجلة الدراسات التاريخية بباريس عدد يولية ١٩٣٤ .

١٧ـ مجلة افريقيا الفرنسية عدد فبراير ١٩٣٥ .

١٨ـ مجلة الأدب المستشرقة (ليبزج) بقلم هازنكليفر .

١٩ـ المجلة الأمريكية التاريخية بقلم هوسكنز الأستاذ بجامعة تفتس .

٢٠ـ صحيفة جامعة شيكاغو عدد سبتمبر ١٩٣٤ بقلم فيليب موسلى .

مختارات حول الحرب (١)

وأب يظلل جناحه أفراخه
ما ذاق من جرائهم طعم الكرى
ولكم تزود منهمو لرحيله
قبلا اذا ما الصبح بان وأسفرا
ويناضل الحدثان عنهم جاهدا
حتى يرد من العوادى عسكرا
والناس اما غافل أو كادح
والرزق فى الدنيا لمن قهر الورى
فاذا العشية أقبلت ألفيتهم
أبدوا لمقدمه السرور الأكبرا

---

(١) نشرها الأستاذ محمد سيد كيلانى فى كتابه « السلطان حسين كامل » ص ٢٦١ وجريدة الأفكار فى ١٥/١٠/١٩١٤ . المؤلف .

من ضاحك جذل ومن مستبشر
يلقى أباه مهللا ومكبرا
فتدافعوا للقائه وتسابقوا
ولو انه صخر اذن لتفجرا
يارحمتا لبنيه روع قلبهم
خطب يدك المشمخر اذا عرا
فمضى الى الحرب الضروس أبوهمو
ومشى الى الموت الزؤام ومادرى
من ذا يواسى اليوم ربة بيته
أكذا يداس عرين آساد الشرى ؟
لهفى على العهد القديم وأنسه
عجبا لذاك العهد كيف تغيرا
بعثوا اليه بكتبهم وتساءلوا
عنه فما وجدوا هنالك مخبرا
وأتى البريد ولا كتاب مسعد
فبكوا عليه رحمة وتحسرا

***

يابنت روما (١)

يابنت روما لاتكوني كما
كانت أثينا بين قيل وقال
دفنت عدل الله في أرضه
فاستوثقي من شر ذاك المآل

(١) يقول الدكتور صبرى عن هذه القصيدة فى الشوقيات المجهولة ص ٣٩ :

« لا فى أثناء حرب طرابلس ... نظمت قصيدة .. عنوانها « يا بنت روما » فاختار داود بركات وعبد الحليم المصرى منها تسعة أبيات نشرتها الأهرام فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩١١ بامضاء (اسماعيل صبرى) فاضطر اسماعيل صبرى فى اليوم التالى (١٧ أكتوبر) الى نشر أبيات من نظمه أولها :

بعض هذا الجفاء والعدوان
راقبى الله أمة الطليان

كما نشرت الأهرام فى نفس العدد (١٧ أكتوبر) فى الصفحة الثانية فى آخر العمود الثالث ما يأتى « قصيدة أمس ـ كتب الينا محمد أفندى صبرى أن قصيدة أمس بعنوان (يا بنت روما) هى له فورد فيها اسم اسماعيل صبرى خطأ » « وقد نشرت اللواء فى عدد ٢١ أكتوبر ١٩١١ القصيدة كاملة » « وظلت الأبيات التسعة التى سبق نشرها فى الأهرام بامضاء (اسماعيل صبرى) منسوبة له (و) هى ديوانه فى ص ١٨٦ تحت عنوان الحرب الايطالية فى طرابلس » .

أعلنت حـربا فاصـطلى نارها

فأنت للنـار وقـود حـلال

أهلك قـوم ينحتـون الدمى

ويزجـرون الطـير طـير الخيـال

لا بـدع ان طـاروا بألبـابهم

وأصبحوا من غيهم فى خبـال

***

هـذى طـرابلس وأبنـاؤها الـ

شجعان يزجون صفوف القتـال

دوارع الطليـان لم تسـتطع

صبرا على النسف ورشـق النبال

حتى هـوت للقـاع معمـودة

فدنسـت مثـوى نفيس الآل

ياليث

قـد آن أن أصـلت سيف الـردى

فقـد عـدا الذئب علينا وصـال

ان لم أذد عن موردى بالقنـــا
فلا صـفا عيشى بتلك الليـــال
حـلمت يــاليث ولمـــا تثب
فازأر فقد حــان وضوح الهلال
فى يدك المنجل فاحصـد به
أعمــار أقوام طغوا فى الضـلال
غـــدا يـــروى بالدمــاء الثرى
وينبت النصر فترعى الشـبال

ياشرق

ياشرق ضــاع المجد فى غمضـة
والعيش يمضى بين حــال وحــال
كم اسـتباحوا حــرمة بيننـــا
وكم أذاقـونا صـنوف الوبال
ياحبــذا لو عــاد عيش لنـــا
كان فأمسى فى ربيع الزوال

الانسان والنمل

يدوس الفتى فى سعيه النمل غافـلا
كأن ليس يسعى فى الثرى مثله النمل
ولو نطقت يوما لقـالت له اتئد
وفى رأسك العينان والبـاصر العقل
اذا كنت تسـعى للمعاش فكلنـا
خلقنـا له والأرض يملكها الكل
وهذى القصور الشم ان تفخروا بهـا
فمـا لكمو فى حسن تنظيمها فضـل
لنـا قبلكم عش يحـار لصـنعه
مهندسكم لولا التعصب والجهل

(١) أثبت السربونى هذه الصيدة فى كتابه « ذكرى الماضى » ص ١٨ الذى صدر عام ١٩١٥ ثم عاد ونشرها فى كتابه « أدب وتاريخ واجتماع » الذى صدر عام ١٩٥٠ وعدل فى بعض كلماتها وقد أثبتنا هنا صياغتها الأولى · وهى قصيدة فلسفية · المؤلف ·

وفى أزل الدهـر القـديم خيامكم
وأكواخكم عن صـدقنا شاهد عدل
ولو أن فيكم من أطل من الذرى
ذرى جبل نحـو السماء العلا يعلو
وشـاهد بالتحـديق خلقا كثيرة
تروح وتغـدو مايبين لهـا شـكل
لـكان بهـا مستهترا غـير حافل
كما استحقرت فى عينه هـذه النمل
فلا تشتكوا ظلم المقـادير انهـا
تدوس كما دستم فما يحسن العذل
اذا لم ترع سـمعا اليكم وانتمو
مساكين لاحـول لديكم ولاطـول
فليس لكم غير الصدى من مجاوب
ففى سمعكم وقر المغفل من قبـل

في سبيل الأغانى (١)

(١)

هـذى الأمـانى كلهـا خـدع
العيش ولى فليس بى طمـع
لهفى عـلى الدار وهى عاطلة
تبكى عليهـا السـحائب الهمع
يارحمـة للـوفاء عنـدهمو
مـاذا عـلى الظـاعنين لو رجعوا
أطمعتموا العـاذلين فاتئـدوا
فاليوم جـاروا عـلى وابتـدعوا
واهـا لأفيـاء سرحـة لكمـو
مـراى أنيق بهـا ومسـتمع

(١) نشرت فى مجـلة « الملاجىء العباسية ... » عـدد ذى القعدة ١٣٣٠ هـ .

سـقيا لهـا لو يعـود منتجع
رعيـا لهـا لو يطيب مزدرع
يامرتع اللهو هـل همو نزعوا
من بعـدنا عنـك أم همو رتعوا
وكيف طاب المقـام فى زمن
تكاثرت فيـه حـولنا البـدع

(٢)

مازلت أبـكى عـلى العيش الأفـانين
وأنـدب السرح من حين الى حين
لفت ضلوعى على داء الغـرام وكم
فتشت فى الحى عن آس يداوينى
فعدت أقرع من سنى ومانظـرت
عينى وفيـا من الأنـداد يبكينى
فلا تسـلنى عن الأحبـاب انهمو
قد أسـلمونى لعهـد غـير مأمون

فيابنــات الصــبا ان كنت وافــدة
هــاتى كؤوسك أفنيهــا وتفنينى
ويابنــات المنى ان كنت محسنة
عــودى فأنت عــلالات المســاكين
وما صــبابة مشــتاق براجعـــة
أو يرجــع العيش مخضر الأفــانين
انا قنعنا ولــكن بعـــد ماذهبت
أيامــه ورضــينا اليــوم بالدون

زمان التصابى (١)

الا مالسلمى موحشات ديارها
فيالربوع هاج مابى ادكارها
هيا عين قضى بعض دينك انه
شفاء قلوب لم ترو حرارها
لقد أبدعت فى الهجر حتى حسبته
دلالا أرتنا كيف فيه ابتكارها

---

(١) نشرت فى مجلة « الملاجىء العباسية ومكارم الأخلاق الاسلامية » عدد شوال ١٣٣٠ هـ وهى مجلة دينية علمية أدبية تاريخية زراعية وعظية مدرسية كانت تصدر فى الاسكندرية فى أول كل شهر عربى ، وكانت تابعة لجمعية العروة الوثقى الخيرية محررها خليل حمدى حمادة ، ومديرها أبو بكر لطفى ، ومن كتابها طنطاوى جوهرى وحسن القاياتى ، ومصطفى نجا مفتى بيروت ، ومحمد حمدى النشار ، وكان ايراد هذه المجلة « ينفق على لقطاء وأيتام الملاجىء العباسية الذين أخذت جمعية العروة الوثقى على عاتقها القيام بالانفاق عليهم وتربيتهم تربية صالحة » . المؤلف .

لى الله من عصف النوى بغـريرة
عـزيز علينا أن يشط مـزارها

فما غـادرت منى بغير جـريرة
سـوى مهجمة بين الدموع انهمارها

رعى الله أيامـا نعمنـا بظلهـا
سـواء علينـا ليلهـا ونهـارها

ونضر أعـواد الشـباب فانه
نعيم الليـالى لو تدوم قصـارها

وما أنس لا أنس المنى وغصـونها
مهـدلة آفنـانها وثمـارها

واذا نحن فى عرض الشباب روائح
غواد دخيل اللهو طـاب مغـارها

زمان التصابى أين أنت وقد جـرت
صـغار العـوادى بيننا وكبارها

زمان التصابى لهفـة بعد لهفـة
عليك بأنفـاس يطـير شرارها

أأحبابنا ياهل عـلى البين من يد
تنهنه أشـجانا تأجـج نارها

أدور بعينى كل حـين فـلا أرى
ظـلالكم حـــولى فأين قرارها

تبـدد ذاك الشـمل وانكدرت به
كواكب لا أدرى الام انـكدارها

فـواها لعيش أين منى رغيـده
وهـل غبطة فى العيش دام افترارها

تصوير الشاعر وتصوير الفنان(١)

ان تصوير الشاعر وتصوير المصور لايتعارضان ، فلكل منهما مزية الترجمة بأسلوب خاص عن احساسنا أمام مظاهر الحياة والحركة فى الكون .

فقد يتمكن المصور مثلاعند تصويره غروب الشمس من تسجيل لون من تلك الألوان الرائعة السريعة الزوال التى تبدو فى تشكل الضوء بأشكال لا حصر لها فى السماء وفى السحاب المتغير فى كل آونة ، فالمصور الماهر فى مقدوره أن يسجل شكل أو لون لحظة من تلك اللحظات الساحرة التي يمر بها الوجود .

أما الشاعر فقد تكون صورته أعم وأقل دقة وان كانت لاتقل عن اختها روعة ، فاذا قال لافونتين الشاعر القصصى «ان آجمل الغروب ماجاور الليل»

(١) العنوان من عندنا . وهذه القطعة مختارة من الجزء الثانى من الشوامخ ص ٦٢ .

تجلت فى البيت روح الغروب وماتنطوى عليه مناظره من فتنة وجمال

واذا قال حميد بن الأرقط :

حتى اذا أغست دجى الدجـــون
وشـــبه الألـــوان بالتـــلوين

أحسسنا بروعة ألوان الغروب من أصفر الى أحمر الى أسود كما يحس الأعرابى أو ساكن الريف بجمـــال ألوان النخيل وبهجة تعاقبها وظهور اللون بعد اللون ، قال صاحب اللسان يشرح البيت : «يقال كيف تركتم النخل فيقال حين لون وذلك حين أخذ شيئا من لونه الذى يصير اليه فشبه ألوان الظـلام بعد المغـرب يكون أولا أصفر ثم يحمر ثم يسود . ولون البسر تلوينا اذا بدا فيه أثر النضيج» .

واذا قال أبو النجم الراجز :

حتى اذا الشمس اجتلاها المجتلى
بين ســماطى شـــفق مهـــول
صفواء قد كادت ولما تفعل
فهى على الأفق كعين الأحـــول

أحسسنا بجمال الشفق وأغنتنا كلمة مهول بما فيها من لمحة الى ألوان الأفق وما عليه من تهاويل من حمرة وصفرة وخضرة عن تفصيل تلك الألوان ، وفى رواية «مرعبل» بدلا من مهول وهى من الكلمات الساحرة التى تتمثل فيها صورة كاملة ومثلها كثير فى لغتنا ، وبعبارة أخرى هى كلمة شعرية استعملت استعمالا خاصا يحملها من المعانى مايحملها ، يقال رعبل الثوب : مزقه ، وترعبل الثوب : تمزق أو خلق ، والرعبلة من الرياح التى لاتستقيم فى هبوبها ، ولما كان الشفق الأحمر لايستقر فى الأفق فى طريق واحد وتتغير أشكاله وقطعه من الغروب الى العتمة بطريقة غير راتبة أو منتظمة كان تشبيهه بالثوب المرعبل من التشابيه العقم ، وما من شك عندنا أن كلمة «مرعبل» أدق وأقوى وأروع من كلمة مهول التى تصلح لوصف الأفق لا الشفق ، يقال هولت المرأة : تزينت بزينة الناس والحلى هذا فيما يتعلق بالألوان ، أما فيما يتعلق بالحركات فقد تمكن (اسنيدر) من تأديتها بقدرة فائقة فى طردياته ، وقد حاول الشعراء الأقدمون تصوير بعض هذه الحالات ، واحتالوا لتصوير الحركات الدقيقة المتشعبة الخاطفة فى أشكالها المختلفة وفصولها المتنوعة ٠

مثال ذلك : تصوير مطاردة الكلاب للثور لضابىء ابن الحارث البرجمى قال :

يساقط عنه روقة ضارياتها
سقاط حديد القين أخول أخولا

قال شارحه : «يقال ذهبوا أخول أخول يراد تفرقوا فى كل وجه • والروق : القرن ، والضاريات الكلاب التى قد ضريت بالصيد وتعودت أكل اللحم • ويساقط هنا بمعنى يسقط ، يعنى أن الثور يطعن الكلاب من كل وجه جاءت منه واذا طعن كلبا منها ألقاه بعيدا كما يخرج الشرر من الحديد المحمى اذا ضرب متفرقا فى كل وجه» •

ويوجد فى متحف اللوفر بباريس صورة لاسنيدر رسم فيها حركات الكلاب وهى تطارد الثيتل (والثيتل حيوان من نوع الوعل والأيل له قرنان ذوا شعب) وتثب عليه وهو يطاعنه ويرديها :

تعطفه طورا وطورا تنهس
وهو يكر بينها ويدعس

ومن اطلع على هذه الصورة فهم جمال بيت البرجمى (يساقط عنه روقه ضارياتها) وفهم أن كلمة

يساقط هنا ليس معناها يسقط بل يسقط تباعا أو شيئا فشيئا وبحركة فنية فى استطالتها واطراد هبوطها، يساقط عنه أى عن يمينه وشماله ٠

وتمثل صورة اسنيدر كلابا تحافز الثيتل وتتمطى بصلبها على ظهره وتعانقه بيديها وهو يعلو بصدره وقدميه الأماميتين محاولاالافلات منهابقوة ،وتحتأرجل الثيتل كلبان صريعان سطيحان على ظهرهما ، وفى أعلى الصورة على طرف أحد روقيه المنسحبين فى استقامة خلف الرأس وفى مستوى أعلى الجبهة ، كلب يرى وهو يهوى على ظهره فاغرا فاه ٠

وظاهر من الصورة أن الثيتل ــ وكل ذى قرن ــ يطعن فريسته بقرنه فيحملها الى أعلا ثم تهوى على الأرض هويا ــ فالثور يساقط الضاريات عنروقه واحدا بعد واحد علوا وسفلا فى كل وجه سقاط الشرر المتطاير من الحديد ، وسرعان ماتنطفىء الحياة فى الكلاب وهى تخر صرعى ٠

أما قصة الوعل وقصة العقاب فى قصيدة الهذلى فيمكن للمصور تجريدهما من كل تفصيل وايضاح ، وتصوير الوعل مثلا بقرن له حيد اشرافها كالرواجب الى جانب ارطاه رمل وقد رماه الصائد ، وتصوير

العقاب وقد خرت صريعة على حرف ناتىء فى عــرض الجبل ، وتمثيل فرخيها فى وكرها وهما يفزعان كلما هبت الرياح أو سمعا صوت ناعب ، ولاشك أن براعة المصور فى تمثيل الوعل والجارح وجمال المنظر الطبيعى الذى يلفهما تخلق فى الصورتين ذلك السحر المؤثر الذى يغنى عن كل تفصيل ٠

على أنه فى هذه الحالة تجىء قصة الحياة والموت لمحا فى صورة المصور فاذا تمكن الشــاعر من سرد القصــة وتفاصيلها ببيان شعرى كان ذلك دليلا على قدرته فى التصرف باللغة وقوة التخيل والسبك ٠

دقات الساعة (١)

الآن وقد عسعس الليـــل وهمس النسيم في آذان الربى وأخذ الكرى بمعاقد الأجفان ، طويت الكتاب طلبا للهجعة كي أصبح موفور البدن ، فما كدت أطفيء المصباح وتأخذني سنة من النوم حتى «أرنت» الساعة الدقاقة فنابتني رعشة ، ونبا بي المضجع ونفى السهاد اثارة من الكرى علقت بأجفـــاني بعـــدما هجع الطـــير والحيوان .

تنصف الليل ومر بعد وهنه ســـاعتان كما خبرتنا «ناعية الزمن» فتذكرت قول مدرس العربية منذ ســـتة أعوام تجرمت وترادفت ترادف الموج في محيط السنين

---

(١) قال خليل مطران عن هذا النثر انه من « البيان الشائق » وقال « ما يغني تصفحه عن التعرض لوصفه وقد ينقص الوصف أبلغ ما يكون أشياء من معاني الموصوف » مقدمة كتاب « الحركـــة الاستقلالية » . المؤلف .

والأيام ان من أقسام المفعول المطلق مايكون بيانا لعدد نحو «دقت الساعة دقتين» .

أجل ، كرر الاستاذ مرارا هذا المثل فما كنت لأهتم له وكم دقت الساعة فى ذلك الأمس الدابر فكان وقع دقاتها فى أذنى كتغريدة الطائر ورنات العيدان حين كنت أرتع فى خمائل الشباب النضر وما الشباب عندى الا زمن الجهل والغفلة يوم لم ندخل بعد ميدان الكفاح ولم نذق صاب الحياة وعلقمها .

وانى لأتمثل الدهر يومئذ وهو كالصبى الغشوم يتعلم الرماية ، وأنا كالدائرة التى مركزها الغرض ، وما الغرض الا القلب ، وسهامه دقات الساعة يرسلها فتطيش وتحلو رنة القوس وهى تطلقها .

أما وقد تبدلت الأيام وجرت جوار بالنحس بعد السعد وشبنا من هول الزمان ، وصار فتانا كهلا من طوارق الحدثان ، وجاء زمن اليقظة فليخفق القلب فان كل ساعة تمر ترسل اليه سهما من جعبة الآلام لايشذ عن الرمية حتى اذا تبينت الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ودرج الليل فى أكفان الصباح أحسست بأن فى فؤادى اثنى عشر سهما فوهبت الى نسمات الصبح زفراتى والى نداه عبراتى .

لو لم يكن فى دقات الساعة الا تذكرة بما مر من نهار الحياة وتهديد بما سنلقاه لقلت حسبى بذلك ألما ، وما أنس لا أنس قول بعض الغافلين : «علام نبكى الماضى وتحن اليه بعد مانفضت يديك من ترابه ، ورجع المشيع ، وفى الآتى كفاية» ٠

أجل ، رجعنا فراغ الأيدى ملاء القلوب ، ولو علموا آن المستقبل ان هو الا جزء من الماضى واننا اذا بكينا الماضى فانما نبكى على المستقبل ، وان الغد أخو اليوم ، والساعة أخت الساعة ، والدهر أبو الجميع ، وقد تحالفت جميعا على الغدر لقالوا معنا انا لله وانا اليه راجعون ٠

تروعنى دقات الساعة وأشعر منها بوحشة وانقباض ، ويخيل الى أنها صدى أقدام عدو شديد البأس صعب المراس خلقه الله شفافا كالهواء ، كما خلق بعض الحيوان بلون الصخر والرمال ، الا أن الأمر على الضد فالأول يتخفى ليصيد والثانى أجل أن لايصاد ومانشعر الا وقد أصمى سهمه فى الساعة الأخيرة فأجهز على البقية الباقية : ذلك هو الموت ٠ الأهرام فى ٩ أكتوبر ١٩١٣ ٠

وجدنا فى أوراقه الخاصة كراسة تشتمل على نحو عشرين صفحة دون فيها مذكراته عن مفاوضات الوفد المصرى فى باريس ، وقد مر بنا انه كان أحد سكرتارية الوفد ، وكانت تدور مناقشات المفاوضيين المصريين ، وأذنه صاغية ، وعينه شاخصة ، فهو شاهد عيـان فى هذه الأحوال ، ويبدو من قراءة هذه الصفحات العشرين أنه كتبها على عجـل حتى لايضـيع منـه شىء ، وهى مسودات يكثر فيها الشطب والتصليح والتغيير ، صفحات منها كتبت بالقلم الرصـاص ، وأخـرى كتبت بالحبر الأحمر والحبر الأسود ، وتتخلل مادتها كلمات وعبارات بالفرنسية ، وكان ينقصها اعـادة الكتـابة ، وحسن الصياغة ، وجمال الاخراج والتبويب ، وقد اخترنا منها مايمثلها ، وهى على حالتها الماثلة أمامنا ، تكشف عن أحداث هامة فى تاريخ الثـورة المصرية ومفـاوضات الوفد مع المحتلين .

يوم الأحد صباحا ٩ يناير ١٩٢١ :

زيارة لأولار لاعطائه أول نسخة منسوخة من«الثورة المصرية» جزء ثاني وقد وعدني بعد قراءته بكتابة كلمة – اللهم استمع انك سميع الدعاء ٠

بعدئذ – زيارة لعلى ماهر – وعلمت منه أن لطفى السيد يكره كتاباتى وقد شجعنى أحسن تشجيع وأخبرنى أن فى جلسة ٩ نوفمبر سنة ١٩٢٠ جرى حوار حول التحفظات خاصة وقبول الحماية التى ثارت الأمة ضدها ٠ قال عدلى لسعد : قل للأمة انه من المحتمل أن تلغى حين المفاوضات الرسمية وعلمت منه أيضا أن عند زغلول باشا خطابات تؤيد أنه حصل لعب من بعض أعضاء الوفد فى لوندره وأكد لى بعدم اخلاص عدلى ٠ وأفهمنى أن زغلول كان يريد قبول المشروع حتى مع قبول التحفظات لأنه يبقى حماية ولكن هو (على ماهر) أقنعه بقبوله اذا قبلت التحفظات فانه يكون بعد ذلك «استقلال مقيد» ٠

ولما كلمته عن الاستشارة قال لى ان خطته كانت «كان يجب القول بأن المشروع استقلال لغيظ الانكليز والسلطان والوزارة ولأجل التفريج عن الأمة لكى تتنفس وتبقى الحركة وكانت عقيدته أنه يسهل بعد ذلك على الانكليز النص على الغاء الحماية ٠

مقابلة مع سعد باشا يوم الأحد ١٦ يناير ١٩٢١ :

١ ـ عبد الملك حمزه وزميله أفهماه بأن البلد ترى من الخطأ والجهل البين أن يطلب من الانكليز النص على الغاء الحماية قبل المفاوضات الرسمية ، وعلى أثر ذلك بعث سعد باشا بحديثه مع نجيب حول هذه النقطة •

٢ ـ قال لى انه لايريد أن يقبل المشروع حتى ولا بالتحفظات لأنه يبقى حمــاية وانه لايفهــم أن يكون المفوضون الرسميون مختارون بواسطة السلطان فان هؤلاء المفوضين يستمدون قواهم من الحمــاية فمن غير المعقول أنهم يطلبون نص الغائها •

٣ ـ أنه يأسف على انقساماتنا ويتألم منها كثيرا ، ويرى أن أصل ذلك الداء هو حدوث المفاوضات التى كان هو ضدها وكذلك فى الاستشارة ، وقد أخبرنى أنه أرسل للمندوبين الذين ذهبوا لعمل الاستشارة فى مصر خطابات فاتبعوا خطة غير التى أوصــاهم بها كمــا أنه لامهم على ذلك حين عادوا الى باريس •

٤ ـ أكد لى أنه لن يعيش كثيرا ولكنه يريد أن يعطى مثل التضحية مهما كلفه ذلك من الآلام ، وانه يعتقد أنه لابد من انتصار الحق واذا لم ينجح هــو فسيكون خلفه والا فغفه.ه •

يوم الخميس ١٠ فبراير ١٩٢١ الساعة ٩ الا ربع صباحاً

(١) قال كامل بأن محمود باشا كان قال في يوم ٩ نوفمبر بأن سعد باشا
كان يخاطب ملنر كأنه فاتح لندرة فقال سعد باشا عجيباً أو هو كلام
المتقدم أن أعتقد أن ما قلته غير كاف لو كنا بعدها لندرة
وبعد الثانية والتي اجتمع الوفد أجمعه بدعوة من ملنر وكانت
هذه الدعوة مشابهة Congress شيء لو يقبله مثل شعب
ثائر ولقد قلت لملنر أنت لنا أول من يرغب في إيجاد
حل سلمي لمصر ولكنك لم تعطنا الوسائل ولقد قلت
خطبة في وفد الشعب تريد حفظ مركزنا بمصر ثم تريد
لنا إصلاحاتنا تريد حفظ النظام كل ذلك بأمر أما
أنا ماذا أقول للشعب إنك طلبت إلغاء الحماية وزوال
الاستقلال هل يمكنني أن أقول نعم ـــ وقد قال سعد باشا
أن هؤلاء القوم لا كرامة عندهم ثم قال بمناسبة القوانين
الاستثنائية بأنه كان يكلم ملنر فيها فقال له ملنر إن هذا
يحمل الشعب يرضى المشروع بخلاصته ثم أراد سعد " محرها
معد أن يفهمنا ملنر نفسه الحقيقة نذهب نحن لنغش هذا الشعب"
(٢) يعتقد بأن ملنر كان تأكد (بواسطة عدلي يكن) بأن الأمة
كانت قبلت المشروع ولهذا اقتنع زملاؤه الوزراء بنجاحه
هكذا من الصعب بعد ذلك الرجوع إلى رأي آخر
(٣) كان قال سعد باشا بأنه يجب عمل بعض التعديلات على المشروع
الأول قبل عرضه على الأمة أثم نذهب الأخرج واخبر
الأعضاء فجاءوا إليه قائلين إنهم يطلبون منه التعديلات فقال
لهم سعد باشا أنتم أحرار وأنا أرى أنكم تجاوزتم محاكمتي
ولكني لا أغير مبدأي

صورة خطية

من مذكرات السربوني عن سعد زغلول •

عندما كان سكرتير الوفد المصري في باريس •

انتقد عدلى لأنه كان قد تعهد فى البداية بأن يناقش بعض النقط التى جاء بها الوفد فى تحفظاته فلما أراد الوفد مناقشة التحفظات مع اللجنة ساعد عدلى ملنر لكى تبقى للمفاوضات الرسمية ٠

الثلاثاء ١٨ يناير ١٩٢١ :

قابلت مساء اليوم عبد الستار الباسل فى Plaza فأخبرنى عن سبب الخلاف وسفر الجماعة (حمد ـ عبد العزيز فهمى ، محمد على ، لطفى السيد ، محمد محمود) هو التلغراف الذى أرسله الرئيس أخيرا الى الأخبار بدون استشارتهم ، وهذا التلغراف أحدث استياء فى البلد اذ ورد الى عبدالعزيز تلغراف من صديق له وكذلك الى محمود باشا تلغراف من أبيه يفيدان ذلك والمسافرون يعتبرون آن الرئيس خالف خطة الوفد التى تقضى بعدم التنازل عن التحفظات (١) ٠

فأبديت له دهشتى وخصوصا فيما يتعلق بمحمد على ولطفى السيد ومحمد محمود بأنهم أصبحوا لايقبلون

(١) يمكن للقارىء أن يطالع قصة هذين التلغرافين فى مذكرات عبد العزيز فهمى التى نشرها كتاب الهلال تحت عنوان « هذه حياتى » ٠ المؤلف ٠

المشروع الا مع التحفظات مع آنهم كانوا عازمين على السفر فقال انهم انتهزوا الفرصة وعلمت منه أيضا أن عبد العزيز فهمى انقلب على سعد بسبب هذا التلغراف ·
وقد اجتهد حمد فى أن يتركوا ولو مبلغ ٢٠٠٠ جنيه للرئيس فلم ينجح وسيذهبون جميعا اليه غدا (الأربعاء صباح السفر) وقد ذهب اليوم على ماهر وواصف غالى الى سعد زغلول من طرف الجماعة بعدما اقتنعا لكى يطلبا من سعد باشا أن يرسل بيانا آخر للأمة ·· فقبل سعد باشا ولكن مع شروط ورجعت الحالة الى ماكانت عليه (سيئة) وجدنا هذه الصفحة من المذكرات بلا تاريخ تحت عنوان :

مذكرات قديمة بعد عودة الوفد من لوندره قبيل الاستشارة ·

كان عبد العزيز كثيرا مايمتدح عدلى لأنه هو الذى توسط فى المشروع الثانى والثالث وعلى ماهر كان يقول هذا غير صحيح وعبد العزيز كان يعتقد أن أعضاء الجمعية التشريعية سيعتبرون أنفسهم سعداء بهذا المشروع الذين ماكانوا ليحلموا به ·

أما حمد الباسل فكان يرى أنه استقلال أفضل من عهد الترك وكان يعتقد أن سعد تغير من عدلى (بمناسبة

تصريح للأهرام بأنه شخصيا ضد المشروع ولكنه بناء على رأى اخوانه رأى عرضه على الأمة ·

وكان الرئيس قد كتب خطابا من فيشى Vichy الى عبد العزيز يحتج فيه على نشر التايمز Times ملخص المشروع بطريقة تخفى مساوئه مع أن الاتفاق مع ملنر Milner عدم النشر بالمرة ·

قال (١) أمامى وامام الدكتور حامد حمد بك على بأنه يجب أن ينصب تمثال للورد ملنر وقال أمامى ذات يوم متكلما عن المشروع «أليس هذا استقلال تام» ·

ولما ظهرت مقالة بطرس بك غالى عن المشروع فى مجلة كورسيوندل Correspondent كلفنى واصف بشراء نسخة للوفد فلم يرد محمد بك على ودفع ثمنها وقال ان الوفد لم ينظر فى المسألة ، وقد استاء من هذه المقالة حزب المعتدلين ــ لطفى السيد ــ ومحمد محمود ومحمد على وحمد أما عبد العزيز فهمى فسر لما علم منى بظهورها وكان ذلك عنده باللوكنده ·

---

(١) لم يوضح من الذى قال وربما يعنى عبد العزيز فهمى وهذا يبدو من سياق الحديث ·

الاثنين ٣١ يناير ١٩٢١ :

مكثت عند سعد باشا آنا وسليم (١) من الساعة التاسعة الا قليلا وحتى الساعة الحادية عشر الا ربعا • دار الكلام أولا عن مسائل اللغة العربية وكان بيده قاموس «أقرب الموارد» وانتقل الأمر الى السياسة وانه لابد من الاستقلال للنهضة العامة والا فمادام هناك ضاغط فلا أمل ـ ثم تكلم عن المشروع فقال ان بواسطته لاتقوم لمصر قيامة الى الأبد فان الانكليز لن يتداخلوا أول عام ولا الثاني ولكن شيئا فشيئا حتى تعود الحال الى أسوأ مما كانت عليه وتصبح مصر وحدها أمام انجلترا ، ثم قال انه لما كان طلب من ملنر تقدير المصاريف التى تلزم للموظفين الذين سيستغنى عنهم قال ملنر ان هذا لا أهمية له • ومما قاله زغلول لملنر اننا نحن فى حاجة الى أجانب بصفة اختصاصيين لابصفة أخرى ، ونعطيهم الأجر اللازم واذا كان محمد على الأمى أمكنه أن يحسن اختيار أجانب لتعليم البلد وترقيتها فهل مصر اليوم المتعلمة لايمكنها حتى انتقاء أكفاء •

---

(١) هو محمد كامل سليم أحد سكرتارية الوفد فى ذلك الوقت • المؤلف •

وقــد قال زغلول ان سبب (تهــوره) مع انه كان معتدلا جدا قبل قبول منصب وزير المعارف هو أنه مذ عين وزيرا لمس بيده الخطر المحدق اذ أيقن أن الانكليز يريدون قتل المعارف وكل مايبعث على الحياة ٠

الجمعة ١٨ فبراير ١٩٢١ :

١ ــ علمت أنه عند رجــوع أعضـــاء الوفد بعــد الاستشارة قرئت له الشروحات التى كان عملها الأعضاء بمصر فأعلن سعد باشا عدم رضـــائه عنهـــا وأيد ذلك بالمحضر ، وقد قال سعد ان ملنر لم يجتمع بالوفد فمن أين للشارحين أن يقولوا ماقالوه فبهت الأعضاء الذين كانوا بمصر (النحاس وحافظ وويصا) وقد قال الأعضاء ان سبب ترويجهم للمشروع هو آن خصومهم كانوا قد اتخذوه وسيلة للنكاية بالوفد فاضطروا الى الدفاع عنه ولكنهم سرا كانوا يحرصون على أن تبدى الأمة رغبات ٠

٢ ــ لما عاد الوفد الى لوندره آخر مرة ذهب محمد باشا محمود وقال لسعد باشا «اننا صممنا على المقاطعة اذ لابد منها ولكن نخشى من تبديد كل اللجنة المركزية ، وانفضاض الأمة من حولنا فلم يشاركه سـعد باشا فى

الرأى وقال على فرض وجود الشرين فشر عــدم قبــول الحماية أهون ٠

٣ ــ لما أراد سعد باشا ادخــال «التحفظ» المتعلق بأنه مع الزمن تسقط قيود الاستقلال» كان محمد محمود وعدلى يريدان أن يكتفى سعد باشا بهذا وبالنص على الغاء الحماية ٠

٤ ــ كان من رأى سعد باشا عدم تقديم التحفظات حيث أن الانجليز امتنعوا من المفاوضة ولكن الأعضاء ألحوا فى ذلك لكى يقول ملنر انها تأتى فى المفاوضات الرسمية ٠

٥ ــ كان يفكر عدلى مرارا فى تأليف وزارة ويطلب أن نؤيد من الوفد فكان يرفض سعد باشا تأييد وزارة تحت الحماية وكان يقول بأنه لايمكن الاتفــاق مع أية هيئة كانت مالم يتم الاتفاق على تعديل المشروع والا فالوزارة تكون اما خادعة أو مخدوعة ٠

٦ ــ قال سبندر Spender اذ دعى يوما الى الغذاء مع سعد باشا أن كل ماتريده انجلترا هو أن مصرلاتعقد معاهدة سياسية بدونها فقال سعد نقبل ذلك بشرط أن تكون مصر حرة مستقلة ٠٠٠

٧ ــ قال سعد باشا عند الرجوع بعـــد الاستشارة «ان رغبات الأمة عندى تحفظات» ٠

٨ ــ أهم حديث الليلة احتجاج الوزارة ضد كلام تشرشل الذى ظهر فى Times فى ١٨ فبراير وقال ان الوزراء يريدون كسب ثقة الأمة للصيد من جديد وهذا يدل على حرج مركزهم وعلى قوة التيار الوطنى فى البلد ولكنهم قوم غير مخلصين ٠

وجدت ورقة منفصلة بين المذكرات عنوانها :

كلمات لابراهيم باشا سعيد

يوم الأحد ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٢

١ ــ محمود سامى كان نبيها ولكن كانت له مطامع (الخديوية مثلا) ٠

٢ ــ شريف باشـــا كان أشرفهـــم نفســـا ولكن له غلطات : منها وزارته فى آخر الثورة العرابية ، وكان سنة ٨٣ متألما جدا حينما أراد الانجليز ارسال الجيش الى السودان ٠

٣ ـ سلطان باشا مات محزونا (ألفاظ كررها بشدة سعيد باشا) لأن الانجليز غشوه كما غشوا شريف وغشوا توفيق بوعدهم بالجلاء بعد توطيد دعائم الأمن ، وأكبر غلطة السير وراء الجيش الانجليزى ٠

٤ ـ عرابى كان أسلمهم نية وما ضره الا الذين كانوا حوله ٠

٥ ـ كان يجدر بعرابى أن يذهب بعيدا ويحرس مجلس النواب بدلا من أن يتدخل فى أموره ٠

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٥٢١٢

ISBN ٥ – ١١٢٩ – ٠١ – ٩٧٧ –

مفكر أجتماعى وصاحب فكر متحضر ، ورأى قويم .. ويعد من رجال عصر النهضة والتنوير ..

وهذا الكتاب يؤرخ للدكتور صبرى السربونى ، فهو من جيل طه حسين وهيكل ومصطفى عبد الرازق ، ذلك الجيل الرائد الذى تعلم فى مصر وفى جامعات أوربا .. ونهل الثقافة الغربية فى موطنها الأصلى ، وعاد إلى بلاده ينشر العلم والنور .

درس شوامخ الشعراء ، وراح يتغنى بالجمال .. وأرخ لحقب من الزمن فى الشرق والغرب ، وظل لسنوات عديدة يناقش المؤرخين الأوربيين الذين كتبوا تاريخ مصر والسودان ، فدافع عن وطنه دفاع المثقف المتمكن ..

٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب